

أرض زيكولا 3

وادي الذئاب المنسية

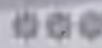
عمرو عبد الحميد



نور
كاتب

قرية البهو فريك - الدقهلية 1921م:

اسمي موسى، عمري ثمانية عشر عامًا، الابن الأخير لأبي وأمي بين تسعة أبناء تبقى منهم ثلاثة فقط على قيد الحياة؛ أنا وأختان تكبراني سنًا، ولدت سنة 1903م في يوم وفاة جدتي، ظنُّ أبي أنَّ ذلك شؤمًا إضافيًا مع موت إخوتي تباغًا بالمرض، لكن - على عكس ما توقع - كنت ذُكره الوحيد الذي نجا من الموت في طفولته. تعلمتُ في مُكتَّاب الشيخ مصطفى، وهناك أتممتُ حفظ القرآن الكريم كاملاً في سن التاسعة. وفي المدرسة الابتدائية بلغت السنة الخامسة قبل أن أترك التعليم رغماً عني مع وفاة أبي؛ كي أرفع شأن أرضنا الزراعية بعدما صرْتُ مسئولاً عن أمي وأختي.



بعد عامين من وفاة أبي رحلت أمي عن عالمنا هي الأخرى، ومع رحيلها صار الخروج من قريتي هو حلمي الوحيد، وإن كنت أدرك في داخلي أنَّ ذلك الحلم سيبقى مؤجلاً إجبارياً إلى يوم إتمام زواج أختي. نعم، يوماً ما سأبيع قطعة أرضي التي ورثتها عن أبي، وسأرحل إلى القاهرة التي أسمع عن جمالها في راديو الشيخ عباس، أو ربما إلى «بلاد برة» إن عطف عليَّ الخواجة فايز، واصطحبني معه إلى إحدى مدن أوروبا التي سمعنا أنه يعرف كل شارع فيها.

الخواجة فايز رجل أربعيني أنيق، أبيض الوجه، رماندي العينين، يتمتع
المصرية أفضل منا جميعاً، ظهر في القرية فجأة بسيارته السوداء أمريكية
الصنع قبل سبع سنوات، ووقتها عرفنا أنه الوريث الشرعي لحوض الأراضي
الشرقية وطاحونة الغلال التي توجد في وسط ذلك الحوض. ظن أهل القرية
مع ظهوره المفاجئ أنه سيعيد تشغيل طاحونة أجداده التي نشأنا لشعبها
مهجورة، جدرانها متآكلة تغطيها رقع متناثرة من الطحالب الخضراء، وينلقها
بإحكام باب حديدي كبير ذو قفل قديم، ولولا تلك الطوبة التي سقطت من
جدارها الشرقي لتترك في موضعها فتحة صغيرة تمكن المتطفلين من النظر
عبرها وقت انسلال أشعة الشمس إليها، لظل ما في داخلها معزولاً تماماً عن
العالم.

نظرتُ أول مرة عبر تلك الفتحة وأنا في عمر الثامنة، ويومها رأيتُ بالكاد
قادوس⁽¹⁾ الطاحونة الضخم المغطى بأكوام من الأتربة، وأجزاء من ذراعيها
الخشبية الطويلة الممتدة بين شباك العناكب الكثيفة، ولم أهتم بعد ذلك
بالنظر عبرها مرة أخرى.

قال البعض إن تلك الطاحونة بُنيت منذ مائة عام، وقال آخرون إن غرفتها
المُشيدة من الطوب المنجور كانت موجودة قبل ذلك بكثير، وعندما اشترى
جد الخواجة فايز أراضي الحوض الشرقي أتى بالطاحونة إلى داخلها كي
تطحن غلاله وغلل القرية، إلا أنها لم تطحن حبة دقيق واحدة، وبقيت تلك
الغرفة مُغلقة يأكلها الزمان، لتصبح القصص المرعبة المنتشرة حول وجودها
هي تسلية أطفال قريتنا في ليالٍ كثيرة.

على أي حال، لم يُجدد الخواجة طاحونته بعد ظهوره من جديد، واكتفى
بزيارات متقطعة لمزارعي القرية المسئولين عن زراعة أرضه، ومع كل زيارة
له ودويتي سيارته كان الحلم في داخلي يطفو من بين أعماقي، ويحثني على
الذهاب إليه كي أحدثه عن رغبتني في التنازل له عن قطعة أرضي المجاورة
لأرضه مقابل أن يساعدني في السفر إلى خارج البلاد بعد زواج أختي، إلا

(1) وعاء كبير قمعي الشكل يُلقى فيه الحبوب عند الطحن.

أنني لم أجزؤ على تلك الفعلة قط، بل لم أتحدث إليه وجهاً لوجه مرة واحدة، حتى اختفى مرة أخرى وانقطعت أخباره من جديد.



مع بلوغي الثامنة عشرة كنت قد أنجمت زواج اختي، وعلى الفور عرضت قطعة أرضي للبيع كي أهاجر إلى القاهرة في أسرع وقت. كانت الأمور جميعها تسري على ما يرام، وكنت على وشك إتمام البيعة لأحد جيراننا، لولا حريق مفاجئ اندلع في قريتنا فجأة ليلتهم أرضي وأرض الخواجة والأراضي المجاورة، ومعه شب أكبر شجار شهدته قريتنا في تاريخها بعد إلقاء النهم بين أكثر من عائلة، وقبل أن يمر أسبوع واحد كان قد قُتل من القرية تسعة عشر رجلاً في إثر تلك الاشتباكات، لتُفاجأ في اليوم الثامن بما لم يتوقعه أحد قط، وهو وصول فرقة عسكرية من الهجانة إلى قريتنا على جمالهم.

كان عددهم ثلاثين فرداً يصطفون بجمالهم في سبعة صفوف، جميعهم ذوو بشرة سمراء، تندس رؤوسهم في عمام بيضاء، عدا قائدهم كان أبيض الوجه، ويرتدي طربوشاً فوق رأسه، وكما سمعنا عنهم دوماً، كانت أياديهم تحمل سياطاً قاسية، ويعلّقون على ظهورهم بنادق ذات فوهات طويلة، ما إن دلفوا إلى مدخل القرية حتى بدأ بعضهم في إطلاق أعيرة نارية نحو السماء، بينما أخذ الباقون يضربون بسياطهم من فوق جمالهم من كانوا يقفون في طريقهم، ليسوقوا الناس أمامهم إلى ساحة واسعة تتوسط القرية، وهناك أعلن لنا قائدهم عن فرض حظر تجوال من غروب الشمس حتى شروقها كل يوم، وعن الويل الذي سيلقاه كل من تسوّل له نفسه الخروج من بيته في ذلك الوقت، لتخمد اشتباكات القرية فجأة، ويسودها السكون بعد سبعة أيام من الفوضى ووقف الحال.

في تلك الليلة لم أستطع النوم مطلقاً، ومكثت في غرفتي المظلمة على الشارع يرتعش جسدي خوفاً كلما سمعت صوت بارودة تُطلق أو رغاء جمل يتجول به راكبه على مقربة من نافذتي، وأدعو الله في سري أسفل غطائي أن يمكنني من إتمام بيع الأرض في أسرع وقت لأنقذ بجلي من تلك القرية، بيد

أَنْ ما جعلني أنتفض عن سريري حقاً هو صوت محرك السيارة الذي لطع
عرفته، والذي ظهر فجأة مع عبور الوقت منتصف الليل! صوت محرك سيارة
الخواجة فايز!

فتحت نافذة غرفتي الخشبية في حذر، كانت السيارة تنطلق إلى داخل
قرينتنا مخلقة وراءها غباراً كثيفاً، أغلقت النافذة سريعاً عندما سمعت أصوات
أقدام جمل يقترب، ولم تمر بضعة دقائق بعدها حتى سمعت أصوات الطلقات
النارية المتتالية تدوي في السماء، كاد قلبي يتوقف، هل قتلوا الخواجة؟
أستطع التحرك من مكاني لمعرفة الحقيقة، ولم أجري على فتح النافذة من
أخرى، كان حديث قائد الهجاة بأنهم لن يتهاونوا مع أي شخص يخرق حق
التجوال واضحاً، مثلما أكد أنهم لن يغادروا القرية حتى يستقر الأمن من
أخرى.

توقعت في داخلي وأنا أفكر في تحجير الخواجة فايز أن يقامم
لن يقل عن أسبوعين بكل حال من الأحوال، وأكملت ليلتي مستيقظاً لنتقم
حلول الصباح في أسرع وقت ليلي أعرف ما جرى للخواجة، إلا أن ما حدث
في الصباح كان مفاجئاً للجميع، إذ خرجنا من بيوتنا مع شروق الشمس و
نجد جندياً واحداً. كانت الجمال فقط تركض في الشوارع بدون أصحاب
وسيارة الخواجة تقف خاوية في إحدى الطرقات دون خدش واحد أو نقطة
دماء واجبة داخلها، تلتفتنا إلى بعضنا بعضاً في دهشة، وتوقع بعضنا
يكون الجنود نائمين هنا أو هناك بعد قضائهم ليلتهم مفتوحين الأعين
الأمن، وغالباً سيكون الخواجة محتجزاً لديهم بعد خرقه حظر التجوال
مع مرور ساعات النهار تأكدنا - بكل معنى الكلمة - أن تلك القرية من الج
قد اختفت تماماً من قرينتنا.

أصابتنا الحيرة جميعًا من اختفاء الجنود الغريب، وقررتُ أنا وبعض الشبان البحث بدقة من جديد في كافة أنحاء القرية لعلَّ هناك شيئًا نكتشفه يخص الهجانة أو الخواجة فايز، غير أنَّ بحثنا باء بالفشل، ولم نعثِر على أثر واحد لهم، ثم عدنا إلى حيثما بدأنا، فوجدنا الأهالي قد أمسكوا بالجمال وقسموها على أنفسهم، قالوا إنهم وجدوا تسعة وعشرين جملًا فقط، أما الجمل المتبقي فادَّعوا عدم عثورهم عليه، لم يكن لشاب وحيد مثلي نصيبًا من تلك القنينة بالطبع، وإن لم أهتم بهذا الأمر من الأساس.



خلال اليوم التالي واليوم الذي يليه، كان الحذر الشديد لا يزال يعم القرية، إذ ظنُّ بعضنا أنَّ ما يحدث اختبار ما لنا، وأنَّ الجنود سيظهرون مرة أخرى في أقرب وقت، لذلك أعلن عمديتنا عن تدوينه أسماء آخذي الجمال، محذرا إياهم من أي ضرر يصيب خلية واحدة منيا، وإلا كان السجن مصير مُسببه. أما السبب الآخر لاستمرار الحذر بيننا هو أنَّنا كنا نتوقع قدوم فرقة أخرى من الهجانة لتبحث أمر اختفاء الفرقة الأولى، وعلى أقل تقدير ستستعيد جمالها جملًا جملًا، وربما تحلِّلنا ثمن الجمل المفقود، لذا لم يسن غريبًا أن تبقى اشتباكات القرية خامدة وإن لم يكن ثمة جندي واحد بيننا، حتى الأحاديث والنقاشات التي ظلت مشتتة لأيام حول أمر الحريق تحولت جميعها إلى ما حدث لأولئك الجنود.

مع اليوم العاشر من الحذر والترقب لم يحدث أي جديد، ولم يأت إلى بلدنا أي فرقة أخرى أو حتى شرطي واحد يبحث أمر اختفاء الهجانة، ومع

صباح اليوم الخامس عشر أعلن رجل من آخذي الجمال يُدعى «منصور» أنه قام بذبح جملة لمن يريد أن يشتري لحماً، ظهر القلق على وجوه الجميع في البداية، لكن مع منتصف النهار كانت الذبيحة قد بيعت بالكامل، وفي الأيام القليلة التالية قام الآخرون بذبح جمالهم للبيع تبعاً، أو بيعها بسوق المواشي القائم بقرية مجاورة، أما سيارة الخواجة فدفعها ثلاثة مزارعين ممن يزرعون أرضه إلى جانب بيت أحدهم، والذي تعهد بحمايتها ونظافتها حتى يعود الخواجة من جديد.



مع اقتراب مرور شهر على تلك الليلة الغامضة، أخبرني من كان ينبغي شراء أرضي بصرف نظره عن الأمر مع الخسارة التي تكبدها من حريق محصوله، ونصحني بالبحث عن مشترٍ آخر. زادني الأمر ضيقاً لإجباري على الانتظار مزيداً من الأيام، لكن بعد ثلاثة أيام أبلغني رجل ممن باعوا جمال الهجانة عن رغبته في شراء أرضي مقابل ثمانية جنيهاً، وافقت على الفور، وفي مساء ذلك اليوم ذهبت معه هو ومساح من قرية مجاورة إلى الأرض لقياس مساحتها قبل إتمام البيعة، تحدثنا ونحن في الطريق إليها عن مرور شهر بالتعام والكمال على اختفاء الجنود، وعدم حدوث أي رد فعل من الشرطة أو الحكومة وكأن شيئاً لم يحدث، قال المساح إنه يؤمن بأن الحكومة ستأتي إلى القرية عاجلاً أم آجلاً، وقد اتفقنا معه في ذلك الأمر، ثم غيّرنا مسار حديثنا إلى سفري المُنتظر إلى القاهرة حتى وصلنا إلى الأرض، وهناك بدأ المساح في أخذ قياساته ومعه المشتري، فتركتهما وجلست أنتظرهما عند ضفة التربة الشرقية، وأخذت أنظر بعيداً نحو مبنى الطاحونة، لربما تكون المرة الأخيرة التي أراها فيها، ثم شعرت برغبتني في التبول فيما كانت امرأتان تزرعان أرضاً بجواري، فيسرتُ نحو الطاحونة كي أقضي حاجتي وده جدارها بعيداً عن أعين النساء، ليلفت نظري -بينما كنت أتبول- أثر حنّ مطبوع بوضوح على الأرض على بُعد أقدام من الطاحونة، كأن صاحبه نجس في ذلك الموضع، استغربت لوهلة، ثم صرفت اهتمامي عنه، وأكملت نظري

إلى مائي المتدفق نحو جدار الطاحونة، لكنني عدت ببصري مرة أخرى نحو ذلك الأثر، واقتربت منه بعدما دار في رأسي أن أغلب المزارعين يجوبون هذا الحقل حفاة الأقدام، وأن نقشة ذلك الأثر الواضحة التي تشبه ثلاثة شمس منجاورة بأشعتها يحيطها إطار مكتمل ليست إلا لحذاء غالٍ لا أعتقد أن أحدا يستطيع شراءه.

نظرت إلى الجدار أمامي وأنا أتذكر الأحذية العسكرية طويلة العنق التي كان ينتعلها جنود الهجانة، ثم برت في حذر حول الطاحونة، كان كل شيء كما اعتدته دوماً، بابها الحديدي مغلق بقلعه، الجدران مأكلة مصمتة، حتى الأرض الجافة حولها لم الحظ فيها أي آثار أقدام أخرى. جال في بالي أن أنظر عبر الفتحة الصغيرة الموجودة في جدارها الشرقي رغم يقيني بأنني لن أرى إلا ظلاماً حالماً لا تنسل أشعة الشمس المشرقة عبرها، لكنني سمعت صوت المشتري بناديتي كي أسرع بالذهاب إليهما بعدما انتهيا من قياس مساحة الأرض، فالتجيت نحوهما.



عدت إلى البيت بعدما وعدني المشتري بإحضار نقوده في الصباح التالي لإتمام البيعة، خبرٌ مثل ذلك كان من المفترض أن يجعلني أظير من الفرحة، لكن ما شغل بالي كلياً هو أثر الحذاء المطبوع بجوار الطاحونة، وكلما حاولت التفكير في شيء آخر وثب الأمر نفسه في رأسي من جديد. لطالما سمعنا في طفولتنا قصصاً مرعبة عن الطاحونة المهجورة، لكن مع بلوغنا أدركنا أنها ليست إلا محاولات تخويقية من الأهالي لأطفالهم كي لا يقتربوا من التربة الشرقية ذات العمق الكافي لفرق أي شخص لا يستطيع السباحة، ثم فتحت نافذة غرفتي الخشبية على مصراعها بعدما ضاق صدري بالهواء من كثرة التفكير، كان القمر في السماء بدرًا مكتملاً مثلما كان في الليلة نفسها التي شهدت اختفاء الجنود، نظرت إليه شارداً وعقلي يواصل ضجيجاً، ثم حدثت نفسي مؤنباً:

- لماذا تشغل نفسك بهذه القرية من الأساس؟ غدا سنأخذ نفوسنا
وتنجزها إلى الأبد.

وأغلقت النافذة من جديد، غير أن رأسي لم يهدأ. بل وصل الفضول في
داخلي إلى ذروته مع شيوخ السكون الأرجاء كافة، ووجدت نفسي أنظر إلى
لعبة الجاز المعلقة على جدار الغرفة لتضيئها، وقلت وأنا أحدثها:

- سأذهب إلى هناك لأنظر عبر فتحة الجدار مرة واحدة فقط، مرة واحدة
وسأعود في الحال، وغدا سأذهب إلى العمدة لإخباره بأمر ذلك الأثر.
لكنني عدت وجلست على سريرتي، وأكملت إلى نفسي مخوفا لها:

- إلى أين تذهب في هذا التوقيت؟ ألا تتذكر أمر الجنية التي ظهرت لجدة
من قبل وقتما كان يروي أرضه بعد منتصف الليل؟ نعم، أخبرني أمي
عن ذلك الأمر مرارا وتكرارا، وأن أباها أقسم لها أن تلك الجنية كانت
تجلس فوق شجرة قريبة من أرضه ليلتها بشعرها الأسود الطويل
الذي تدلى من أعلى الشجرة إلى جذعها، ووجهها النحيف ذي العينين
العموديتين التي يعادل طول الواحدة منهما حبة موز صغيرة، ولولا
ضحكتها الصارخة المفاجئة لما انتبه إلى شعرها المبسوط على الأرض
أمامه الذي كاد يدوسه بقدمه، والله يعلم ما كان سيحدث وقتها، ليركني
إلى داره يهذي ويرتجف، ولم يكرر ذهابه إلى هناك ليلا بعد ذلك.

اعقل يا موسى، الصباح رباح، والنهار له عينان، اهدأ يا فتى.
لا، إنني أحفظ القرآن كاملا، سأذهب إلى هناك، وسأقرأ آية الكرسي
طوال الطريق، لن يستطيع جن الاقتراب مني، سأقرأها بصوت عال، على
جدا، قال الشيخ مصطفى إن آية الكرسي تحرق الجن، الشيخ مصطفى
لا يكذب، سأقرأها وأقرأ غيرها من الآيات، ومن يريد أن يحترق فليقترب
مني، سألقي نظرة سريعة عبر فتحة الطاحونة ليطمئن قلبي أن وجود
ذلك الأثر هناك ليس إلا مصادفة لا أكثر، وسأعود سريعا، نظرة واحدة
فقط، وسأعود لأخلد إلى النوم.

ولطرت إلى اللعبة من جديد وحديثها:

- الطريق مُضاء بالبدر، لكنني أحتاج إليك لأرى ما لي داخل الطاحونة،
نعم إنك كافية أيتها اللمبة، سامحيني على مرافقتك لي في ذلك المكان
المهجور، لكنني سأعود بك سريعًا، آه، سأخذ أيضًا فأسِي الصغيرة، من
يدري لربما ذئب بري يقابلني، أعرف أن الذئب البرية اختفت قبل مولد
أبي بعدما كان الحوض الشرقي مشهورًا بعوائها مثلما حكّت لي أمي
أيضًا، لكن الاحتياط واجب.

هيا يا موسى، قبل أن يغطي السحاب البدر.

ثم ارتديت جلبابي، وعلقت فأسِي الصغيرة بجيبه، وحملت لمبة الجاز،
وخرجت إلى الشارع متجهًا نحو حوض الأراضي الشرقية وسط نباح الكلاب
الضالة، التي استغربت مرور أحد الأشخاص في ذلك الوقت.

عندما ابتعدت عن منطقة المباني السكنية واقتربت من طرف الرقعة
الزراعية بدأت سرعة الريح تشتد شيئًا فشيئًا على غير العادة في ذلك الوقت
من العام، فأخفضت فتيل لمبتي كي لا تنطفئ، ثم نظرت إلى البدر، وحدثت
نفسي مطمئنًا بأن كل شيء على ما يرام، وواصلت تقدمي بالطرقات الترابية
الممتدة بين الأراضي الزراعية حتى وصلت إلى مشارف أرض الخواجة، كان
ظل غرفة الطاحونة الأسود قد ظهر في الأفق فارتبكت قليلًا، ثم مرّت سحابة
مفاجئة أمام البدر سادّ معها الظلام، فبلغ ارتباكِي ذروته وتوقفت مكاني
أبتلع ريقِي بدقات قلب خائفة، قبل أن أتمالك نفسي وأزيد ضياء لمبتي وأقرأ
آية الكرسي بصوت عالٍ، وأكمل طريقِي نحو الموضع الذي رأيت به أثر الحذاء
قبل ساعات، وهناك نزلتُ على ركبتَي مُقربًا الضياء من الأثر ونقوشه، كأنني
أؤكد لنفسي أن ما رأيته نهارًا لم يكن خيالًا توهمه عقلي، ثم نهضت والتفتت
إلى الجدار الآخر الذي تتوسط أسفله الفتحة الصفري، ونزلتُ على ركبتَي من
جديد ماذًا رأسي محدقًا بعيني في داخلها من دون اللمبة، كان الظلام حالكا،
فأمسكت باللمبة وأدخلتها ماذًا ذراعي بفيل خذر إلى داخل الفتحة وأنا أحرك
رأسي يمينًا ويسارًا لعلي أرى ما تُظهره اللمبة، فرأيت بالكاد ما رأيته من قبل؛

قنادوس الطاحونة المغطى بالأتربة وحزء من ذراعها الخشبية الطويلة الفلرنة
بين شبك العناكب، لا شيء آخر، حدثت نفسي:

- هل اطمأنتت؟ لا يوجد جنود في الداخل، والطاحونة كما هي من
سنوات، هيا عد إلى بيتك.

وكنت أخرج دراعي لولا أن عيني لاحظت وضوح الرؤية داخل الطاحونة
نجاة من دون سبب واضح، لا لم تكن نيران اللعبة السبب، زاد الضياء داخل
الطاحونة نجاة مع انفساع السحابة المغطية للبدر، انتفض قلبي غير مصنف
وبدأت أقرأ آية الكرسي من حديد بصوت عالٍ وأنا أنظر إلى السماء، ثم
أخرجت يدي ووضعت اللعبة جانبًا، ونظرت عبر الفتحة مرة أخرى متعجبًا
كان كل شيء في الداخل واضحًا كأنك أشعلت لعبة كبرى في كل ركن من
أركان الطاحونة، ثم عطت سحابة أخرى الدر فساد الظلام فجأة في الداخل
وكأن اللعبات قد أطفئت، ثم انقضت السحابة عنه فعاد الضياء في الداخل
من جديد، نظرت حولي أتلفت خوفًا من وجود جن يراقبني كما راقبت الجن
جدي، وأكملت تلاوة آيات أخرى من القرآن وأنا أفكر في العودة راضًا إلى
القرية لأصرخ إلى الأهالي بأن يأتوا إلى الطاحونة ليروا ما يحدث، لولا أنني
لاحظت شيئًا لم أنتبه إليه من الارتباك عندما أبصرت محتويات الداخل بد
سطوع البدر، لم يكن القادوس منعشًا في أكوام القرب ولا الذراع غارقة وسط
شباك العناكب الكثيفة كما رأيتها عندما أدخلت لعبة الجاز في المرة الأولى
فأغمضت عيني ثم فتحتهما من جديد لأتأكد أن ما أراه ليس تخيلًا أو وهاب
شدة الخوف الذي ينتابني، وحدثت إلى الداخل من جديد لأبصر الطاحونة ذات
نظيفة كأن أحدهم قام بتنظيف أجزائها للتو، همست إلى نفسي:

- ربما خدعتني إضاءة اللعبة، اهدأ يا موسى، لا تقلق.

ونظرت جانبًا إلى اللعبة الموضوعة على الأرض بجواري وحملتها برفل
إلى الداخل مجددًا، ظل كل شيء كما هو؛ الطاحونة واضحة غير متف
في ركाम أو شبك العنكبوت، فأخرجت يدي بأنفاس عالية سريعة، واتخذ
قراري بالعودة إلى القرية لإخبار الناس في صلاة الفجر بما رأيت، ونه

ومكثت أنحرك فمررت سحابة أخرى أمام البدر، لا أعرف لماذا جال في بالي أن
أستدير وأعاود السطر إلى داخل الطاحونة، وهذا ما فعلته بالفعل، نزلت سريعاً
على ركني ومظرت إلى الداخل مرة أخرى، كان الظلام حالكاً، فمددت يدي
باللمبة عبر الفتحة لأتسمر في مكاني مرتعباً، عادت أكوام التراب المغطية
للقادوس وشباك العنكبوت المتشعبة داخلها!

- ماذا؟! هل أصابني الجنون أم أنا عالق في حلم ما؟

لأفاجأ قبل أن أكمل كلامي بتبدل الصورة أمامي تدريجياً لتختفي شبك
العنكبوت شيئاً فشيئاً هي وأكوام الأتربة، وتنصع أجزاء الطاحونة مع انقشاع
السحابة عن البدر وظهوره بالكامل من جديد، فسقطت من يدي اللمبة
مداخل الطاحونة إثر الرعب الشديد الذي أصابني، وسقطت أنا الآخر على
ظهري بجسدٍ مُخشب، أنظر وأنا راقد على الأرض بعين جامدة عبر الفتحة
التي صارت في مستوى بصري، ولا أقوى على التحرك، ثم انتفض قلبي
من موضعه لدرجة كادت تيقفه عندما صدر صوت قوي مفاجئ من داخل
الطاحونة، فجُمعت قواي الخائرة وأنا أتمتع بأية الكرسي، وزحفت على
ركني لأقترب من الفتحة مجدداً بأنفاسٍ لاهثة، لأفتح فاهي عن آخره مذهولاً
ومرعوباً بعدما رأيت ذراع الطاحونة الخشبية تدور ذاتياً ببطء شديد في مدار
أفقي، مصدرةً صريراً متقطعاً، بينما تُلَفِّظ تباغاً من قادوس الطاحونة أشلاء
بشرية: أقدام وسيقان وأيادٍ وأمعاء وأنرعة ورؤوس جاحظة الأعين، جميعها
سمراء الجلد، لم أكن في حاجة إلى من يخبرني أنها أشلاء جنود الهجانة
الذين اختفوا قبل شهر.

وقتيئذٍ أحسست أن الموت يقترب مني بعدما بلغت نقاط قلبي أنصاهاً،
ومكثت مكاني مجمداً أحرق إلى الأشلاء التي يتواصل اندفاعها من قادوس
الطاحونة مع كل حركة إضافية للذراع الخشبية، قبل أن يشعر وجهي فجأة
بأنفاسٍ لافحة، وتتناهي إلى مسامعي زمجرة قريبة للغاية، فنظرت عن
يمينني، فوجدته يقف على بعد خطوة واحدة مني يحملني في فاتحاً فُكَّيه عن
آخرهما، وأنبابه الحادة الطويلة تلمع بقوة مع ضوء البدر.

3

خالد حسني

قربة البهو فريك 2021م:

«كل عام وأنت بخير يا صديقي، وعقبال مليون سنة»
«عيد ميلاد سعيد يا خلودة، وبأرب رب دائماً في صحة وسعادة»
«أهلاً بك في نادي الأربعين مديري العزيز، ربنا يجعلها سنة حلوة عليك
وعلى منى وعلى يامن».

كانت المباركات بمناسبة بلوغي عامي الأربعين تنهال على صفحتي الشخصية في تطبيق التواصل الاجتماعي «فيسبوك» منذ الساعات الأولى لصباح ذلك اليوم، والحقيقة لولا هذا التذكير السنوي من التطبيق لما تذكرت أن عيد ميلادي قد حان، على عكس منى التي لم تكن لنفوت مثل هذه المناسبة، وكعادتها في العشاء كانت قد أعدت كعكة الشيكولاتة السنوية، وعلقت زينة الربيعة بمساعدة ابننا يامن الذي بلغ عامه التاسع قبل بضعة شهور، وبعد غناء ثلاثتنا أغاني أعياد الميلاد الشهيرة تولّى يامن إطفاء شموع الكعكة بدلاً مني ليصبح في بعدها:

- هيا، نمن أمنية في سرك.

ابتسمت لطلبه المفاجئ دون أن أنطق، ولوهلة وجدت نفسي أتمنى أن يحدث حديد يغير وتيرة حياتي الثابتة منذ قرابة عشر سنوات.

نعم، لقد سئمت ذلك الجمود الذي أصابها خلال السنوات الماضية، لذلك رلت أعيش في قرية البهو فريك، وعملي كما هو! محاسب في إحدى شركات المنصورة، وبعد وفاة جدي قبل سبع سنوات توقفت حكايتنا المستمرة في أرض وحدث الذكاء، وعامًا بعد عام قلت حكاياتي أيضًا إلى يامن من ثم الأرض، وإن ظلّ العتي يؤمن تمامًا أنها ليست سوى قصص خيالية لا تنشر عن القصص التي يقرؤها، أما منى فأثرت ألا تتدخل في هذه القصص مطلقًا مُدنية قلقها من ارتباط تلك الأرض بدماء عائلتنا، ومُعلنة لي تخونها من تعلق يامن بسرّاب فوريك ورغبته في الذهاب إلى هناك يومًا ما، تقيمت تلك القنق، ومع الوقت توقفت عن سرد تلك الحكايات تمامًا، وبقيت في ناظم عالقا بمفردتي في ذكرياتي بأرض زيكولا، متمنيًا أن يأتي يوم ولجدي نادين قد عبرا سرّاب فوريك إلينا لأخبرهما أنني سميت ابني على اسم يامن صديقي، أما أسيل فلا أتذكر مرور يوم في السنوات الأولى بعد عودتي بأرض زيكولا دون أن يؤلف عقلي قصة جديدة عن حدثٍ يجمعني أنا وهي، أخرى، ورغم أنني كنت أدرك أنها مجرد خيالات لن تقدم ولا تؤخر ظنّنا الأثكار ترافقتي سنوات طويلة.

حاولت كثيرًا إخفاء الأمر عن منى، لكنني كنت أعرف أنها تشعر بلتضر حرة كبير من تفكيري بأسيل، وإن لم تعلق على الأمر من قريب أو من بعد فأخذت أجبر ذهني شيئًا فشيئًا على تجنب تلك الأفكار، لأكرّس حياتي لروحتي ويامن، وتصبح أرض زيكولا مع مرور السنوات أعظم مأوى حياتنا وسرنا، الأكر الذي لا يعرفه أحد سوانا، وخاصةً بعد وفاة جدي وصديقنا الصرّاب، وتمضي حياتنا الروتينية كأسرة مصرية دون تغيير. وصلت عامي الأربعين الذي بدا وكأنّ أمنيّتي في أول أيامه بتحريك ندى حياتي الجامعة قد بدأت في التحقق في اليوم التالي له.

بدأ الأمر مع تلك الرسالة الإلكترونية التي وصلت إلى هاتفي عبر تلك «محادثات فيسوك»:

وأمره به أن يصلي مرة طارئة، أريد مقابلة في أقرب وقت بخصوص
أمر مهم مشتركاً مقدماً.

وهذا هو مجرد قراءة في الرسالة، وعلى الفور تصفحت حسابي الشخصي،
في صورتي الشخصية فوجي بأنها في منتصف العشرينيات، وجهها رفيع
ومرير، بشرة بيضاء عسيدة، وأنفها تشق دةً واضحة، وشعرها أسود
مُدَّار في حد ذاته رقيقة كثيرة مزبد ضامها شامًا، تمسك في يدها مجموعة
كثير وبشر بيضاء أخرى إلى هيئة الإسكندرية التي ظهرت في حنيفة
التي لم يرد في أنها لا تزال طفلة في الجامعة، خاصة أنها لم تصع
معه. أخرى على صفحتها سوى أنها تعيش في الإسكندرية، وأنتم
تستدري في حسابي على أعرف من خلال مشورتها ما قد تريده مني، ثم
أمره به أن لا يخطأ في جمعها، حسب في الرسالة من جديد، وردت دةً

- مرة أخرى، بعد يومين؟ لا أظن أن نفس بيدي

في أمر من دقيقتي دةً أخرى

- هذا وسجلت أستاذ ذلك أفسس تمام سدي الذي لن أستطيع

شرح الأمر مختصر غير هذه لرددة أما رب تعش في دية اليهود

قريباً

ما كنت حسرت أنها شمس دةً، وكنت مسعرة

- نعم

كنت سرياً

- هل أستطيع مقابلتك هذا الأسبوع هناك؟ وسأشرح لك كل شيء، وفتي

فكرت حساباً شعبي. ثم كنت لها

- أسطري دقيقة واحدة أو ساعتين

ثم حدثت مني التي كانت نشاهد السدار سوارى

- هناك مدة عربية تزيد أن تروريا

تحدثت وسأنتس على الفور.

- من ١٩

أعطيتها الهاتف، فتصلحت بعينها الرسائل، ثم ألقت نظرة سريعة
حسابها في الأخرى، وسألتني في اقتضاب:
- هل تحدثت لأحد عن أرض زيكونا مؤخرًا؟
هزئت رأسي نافيًا، ضمت شفتيها ثم تمتعت:
- أمر غريب، ماذا تريد منك؟

قلت:

- لا أعرف، تصر على مقابلي أولاً.
قالت وهي تنظر إلى صورتها أمام مكتبة الإسكندرية:
- يبدو أنها طالبة في كلية ما.
ثم نظرت إلي وتابعت:

- أخشى المفاجآت، خاصة مفاجأتك، ولكن على كل حال إن كنت
شيء قد تفيدنا به فلا تبخل عليها.
أومأت برأسي متفقدًا معها، ثم أخذت الهاتف مرة أخرى، وكنت
لصاحبة الرسالة:

- ربما نلتقي في المنصورة إن أردت.
رثت على الفور:

- أرحوك، سأتي إلى القرية، أريد أن أتفحص شيئًا ما في جريدك
شعرت أن التوتر قد أصابني بعض الشيء، ليس سرداب قوريك
ومكنت أنظر إلى الرسالة دون كتابة أي شيء، فكتبت لي بعدما طال لتي
- معي أستاذ خالد؟
كنت:

- حسنًا، إن أردت القدوم فأملًا وسهلاً بك.
ودونت لها رقمي لسهولة الوصول إلي، فردت:

- شكرًا حزينًا سيدي، ساهاتك خلال أيام، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

قلت لمعنى:

- سناني خلال أيام، أعتقد أنها صحفية أو كاتبة عثرت على شيء ما
بخص سرياب فوريك.

قلت:

- لا أظن أن يامس يتحدث إلى زملائه عن حكاياتك الخاصة بأرض زيكولا،
وأنا لم أخرج هذا السر من فمي أبدًا، وأنت أيضًا لم تتحدث إلى أحد بعد
وفاة جدك وصديقه.

مززت رأسي متفنيًا معها، فباغتتني بسؤال سريع:

- هل رأيت النجم قريبًا؟

نظرت لبا وقلت:

- لا، كانت آخر مرة منذ صبح سنوات.

أومات برأسها إيجابيًا، ثم أكملت حديثها وهي تنظر إلى التلفاز:

- أنا أيضًا لم أزه مطلقًا منذ كان يامن رضيعًا، لننتظر ونرى ماذا تريد،
لعله أمر آخر تمامًا.

بعد ثلاثة أيام رُبُّ هاتفي برقم غريب، قال صوت نسائي أتى من الجانب

الآخر من الخط:

- مرحبًا سيد خالد، أنا من تحدثت إليك عبر برنامج «مصادقات فيس بوك»
قبل أيام.

نطقت:

- مروة؟

قالت:
- نعم، هل لي أن أزورك في منزلك الساعة السادسة مساء اليوم؟
نظرت إلى ساعتني، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، فلكر
- نعم، على الرحب والسعة.

خلال الساعات التي تلت تلك المكالمة حاولت أن أشغل رأسي بأن
أخري لعل القلق انذي أصابني يقل بعض الشيء، لكنني لم أستطع وجرت
انتظر مرور الوقت دقيقة دقيقة بقارغ الصبر، إلى أن دق جرس الباب لم
قبل الساعة السادسة بعشر دقائق، هبطت إلى الطابق السفلي وفتحت
العود، وجدتني أمامي بهيئتها التي لم تختلف كثيرًا عن صورتها لي يوم
التواصل الاجتماعي سوى أن شعرها المجدل كان أطول قليلًا، قالت بيبي
المتحمستين:

- سيد خالد؟
أومات برأسي إيجابيًا وأما أنخر إلى سيارتها الحمراء الصغيرة التي
تقف أمام البيت، فأردفت:

- هل تسمح لي بالدخول؟
أشرت لها إلى الداخل بأسماء، وقلت في حرج:
- بالطبع.

رحبت بها مني كذلك، وألقى يامن ترحيبًا سريعًا قبل أن يغادر إلى
الطابق العلوي، ثم تركتنا مني بحجود شعورها أن الفتاة تريد مطلقًا
معتري

قيت مروة عندما جلسنا في غرفة الضيوف:
- أعذر عن اقتحامي حياتك بهذا الشكل المفاجئ، لكن هناك
اكتشفته منذ شهور، وأريدك أن تساعدني بخصوصه،
ونابعت عندما نظرت إليها في ترقب:

- إنني أدرس الدكتوراه في مجال الحفريات الفقارية، وهناك جزء هام في رسالتي يرتبط بشدة بمنشور كنت قد نشرته على صفحتك بتطبيق «فيسبوك» قبل شهر.

اندهشت مما تقوله، وأنا أحاول تذكر أي شيء نشرته من قبل في مجال الحفريات، وعندما لم يأت في بالي شيء من هذا القبيل شعرت أنها تقصد شخصاً آخر، غير أنها أخرجت من حقيبتها صورة «فوتوغرافية» مطبوعة بالأبيض والأسود، وأكملت:

- لقد جئت إليك بخصوص هذه الصورة.

نظرت إلى الصورة في تعجب كبير، إذ كنت أعرفها جيداً، كانت صورة قديمة لجدي عند القوي التقطت في أواخر عشرينيات القرن الماضي، كان عمره سنة أو سبعة أعوام وقتها على أقصى تقدير، يجعله أبوه ويقف بجوارهما ثلاثة رجال يرتدون طواقيم وجلابيبهم الفلاحي، ويبتسمون إلى المصور بأسنانهم البيضاء وجوهرهم السمراء التي لفحتها الشمس، كان جدي يحتفظ بتلك الصورة، ونشرتها على صفحتي بتطبيق التواصل الاجتماعي قبل عامين بالفعل في اليوم العالمي للتصوير باعتبارها أقدم صورة شديتها قريتنا، ومعلقاً أسفلها بالشبه الكبير بين جدي في طفولته ويامن ابني، شاركتها بغض الصفحات الموثمة بالتصوير آنذاك متعجبين من نقاء الصورة وجودتها رغم قدمها، وانتهى الأمر، نقلت وأنا أنظر إلى الصورة:

- ماذا بها؟ إنها صورة قديمة لبعض رجال قريتنا قبل أكثر من تسعين عاماً، أخبرني جدي أن مصوراً رحلاً أتى إلى القرية حينها والتقط للرجال هذه الصورة، واحتفظ بها أبوه، ومن بعده جدي.

سألتنني:

- هل الصورة الأصلية موجودة؟

فقلت:

- نعم.

قالت:

- هل تسمح لي أن أراها؟

قلت متعجباً:

- بالطبع.

ونَهَضْتُ إلى غرفة أخرى لأحضر الصورة من صندوق مفتحات خفي
قابلتني مني في الدوحة وسألتني:

- هل الأمر يخص زيكولا؟

هزئت رأسي ذقياً، وأكملت طريقتي إلى الغرفة وأحضرت الصورة
بها إليها، حدثت إليها بمجرد أن أمسكتها، فسألتها في ترقب:

- هل هناك أمر ما بخصوص جدي ورفاقه؟

قالت وهي تواصل تحديقها إلى الصورة:

- لا، لا يتعلق الأمر بالرجال المبتسمين إلى المصور، وإنما يتعلق

الرجل.

وأشارت بإصبعها إلى خلفية الصورة، حيث يقف خلف الرجال
طويل اللحية والشعر نصفه العوي عارٍ تماماً، بينما يغطي نصفه
سروان قصير ممزق، ويلتف حول مؤخرة عنقه حيوان مغمض العينين.

- الشيخ موسى الديب؟

وتابعت:

- قال جدي إنه كان مخبئاً يطوف انقرية بهذا الذئب الميت على
حتى أنه لُقّب بـ«الديب» نسبةً إلى ذلك.

قالت:

- نعم، هذا ما جئت إليك من أجله خصيصاً، لقد عثرت على صورته
على الفيسبوك، وبدأت أبحث عن مصدرها منذ شهور حتى وصلت

منشورك الأصلي، وهناك رأيت لك تعليقًا يخص هذا الرجل، قلتُ فيه إنَّ أهل القرية دفنوا نثبه معه في قبره حين مات.

تذكرتُ أنني كتبت ذلك بالفعل حين سألتني أحدٌ عن غرابة هيئة الشيخ موسى، فأردفت مروة:

- إنَّ الذئب الذي يحمله هذا الرجل على كتفيه يشبه إلى حد كبير سلالة الذئاب الرهيبة التي صورتها أكبر معاهد الحفريات في العالم.
قلت:

- لا أعرف كثيرًا عن الذئاب، لكن ما الذي بهم في ذلك؟
قالت:

- لقد انقرضت تلك السلالة من الأرض منذ ثلاثة عشر ألف سنة.
وتابعت بعدما زمّت شفقتها:

- إنني أوقن تمامًا أنَّ رأس هذا الذئب لا يشبه سلالة الذئاب الرمادية الموجودة حاليًا.

ثم نظرت إليَّ وأكملت:

- إنَّ ما أفكر فيه لا يتعدى إلى الآن مرحلة الشكوك، لكن ستؤكدُه بقايا هذا الذئب الموجودة في قبر الشيخ موسى.

قلت مستفربًا ومستنكرًا ما تقوله:

- هل تريدان أن تفتحي ذلك القبر؟
قالت:

- نعم، وإن كان تصوري صحيحًا فلما أن يعني ذلك أنَّ الذئاب الرهيبة لم تنقرض قبل آلاف السنين كما يظن العالم.

وصمتت لحظة، وأكملت بأسعة وهي تفتظر في عيني:

- وإما أن يعني مجيء ذلك الذئب إلى بلدكم من عالم آخر.

اتسعت حدقتا عيني، واندفعت البعاه إلى عروقي عندما افترضت الفتاة مجيئه ذئب الشيخ موسى إلى بلدنا من عالم آخر، وعلى الفور وثب إلى رأسي سرداب فوريك وما وراءه من مدن، قالت الفتاة كلماتها بنوع من السخرية من دون أن تدري أن ذلك الافتراض قد يكون الأقرب للصواب، بالذات في قريتنا. وعندما شرد ذهني بعض الشيء مفكرًا في إمكانية عبور تلك الذئب إلى أرضنا من خلال سرداب فوريك قبل ما يقرب من مائة عام، صاحت في الفتاة:

- أستاذ خالد، هل أنت معي؟

هزئت رأسي منتبهًا إليها، فقالت في حماسة شديدة وهي تحدق إلى الصورة:

- سيجعلني هذا الذئب من مشاهير مجال الحفريات في العالم إن ثبت حقًا أنه من فصيلة الذئاب الرهيبة.

وتنهذت بالحماسة نفسها، وتابعت وهي تنظر في عيني:

- هل تستطيع مساعدتي في فتح قبر الشيخ موسى؟ أو تحرف أحدًا بكم الأسرار قد يساعدني في ذلك؟

فضممت شفتي وقلت:

- إن مقابر قريتنا تخطيطها البيوت الآن من كل جانب، كما أن القبور هنا ليست مُخلقة ببوابات حديدية سهلة الفتح مثل التي تنتشر الآن في معظم مقابر البلدان، إن كل قبر مُغلق بكومة من الطين الجاف المخلوط بالتبن، لذا لن يكون ما تفكري فيه بالسهولة التي تتخيلينها.

ثم سكت لحظة مفكراً، وتابعت:
- اعتقد أنه من الأفضل أن تستعرجي تصريحاً من الشرطة بفتح القبر، وإلا إن أمسك بك الأهالي فلن تكون العواقب سليمة.

اشاحت سندها وقالت:

- لا لا أريد تضخيم الأمر بهذا الشكل، تعلم أن استخراج مثل هذا التصريح سيُخلّي في متاهات من سين وجيم، وفي الأغلب سيتم الطلب بالرفض في النهاية، وقد يتسرب الأمر فتنتبه الأعين إلى الأمر فتصبح فرصة فتحه في الخفاء.

وأضأت:

- أريد أن أدفع أموالاً لشخص نثق به يستخرج لي عظام الذئب لئلا وينتهي الأمر.

أخرجت زفيرى، وقلت في هدوء:

- بي الحقيقة لا أعرف القبر الذي دُعن فيه الشيخ موسى، ولكن أعتقد ثمة أقارب له لا يزالون على قيد الحياة. لا بد أنهم يعرفون قبره. ثم لي هذا الأمر، وسأفكر أيضاً في الشخص الذي قد يساعدك لي بفتح القبر واستخراج العظام التي تريدونها.

قالت وعيناها تلمعان حماساً:

- هل لي أن أقابل أقارب ذلك الرجل أنا الأخرى؟

قلت:

- إن علاقاتي هنا في القرية قليلة بعد وفاة خدي، ولا أعرف بعد من نستطيع سؤاله عن الشيخ موسى دون أن يسبب لك متاعب أكثر. سأقتصر الأمر لأبام أولاً وسأهاثك في حال وجود أي جديد.

رمت شفتيها، ثم مزّت رأسها موافقة في استسلام، وقالت:

- حسناً، لكن أرجوك لا تتأخر علي في هذا الأمر.

ثم أكملت مُحاضرة بإصبعها:

- وأريكم أن تعني أن تُقي ما تحدثنا بأمره سرًا بيننا.

قلت

- يا استياء زوجتي لن أخبر أحدًا، لن نخسر أحدًا هي الأخرى، إنني أعديك

بذلك.

صمتت لحظة، ثم قالت:

- حسًا، زوجتك فعصب.

ثم نهضت معاذرة وهي تقول:

- سأطرح اتصالًا قريبًا منك، نكين قد عرفت أقارب الشيخ موسى

الموثوقين، وعرفت أيضًا في أي مقبرة دفن.

أومأت برأسي إيجابًا، ثم غادرت.

جلستُ في غرفة الضيوف بعفري أنفخص صورة جذي، ثم أمسكتُ
مهاظفي وبدأتُ أبحث في الإنترنت عن قصيلة الذئاب الرميبة، وجدت أنها قد
امقرضت بالفعل قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، وتحدثت كثيرًا من المقالات التي
قرأتها سابقًا عن قوتها وقدرتها الفائقة على اصطيد الفرائس الأكبر حجمًا،
ثم أخذتُ أشاهد أفلامًا تسجيلية عن حفريات تلك الذئاب، وعن الاختلافات
بينها وبين فصيلة الذئاب الرمادية الموجودة حاليًا، وعدتُ إلى الصورة مجددًا
لأشعر للمرة الأولى أن شكل الذئب الذي يحمله الشيخ موسى يختلف بالفعل
بعض الشيء عن شكل الذئب الرمادي الشبيه، لم أعرف إن كان ذلك شعور
كاذب اختلقه التوتر الذي أصابني بعد حديث الفتاة أم كنتُ محققًا.

دلفتُ إليّ مني، فحكيتُ لها ما حدث، وما أنت من أجله الفتاة، تعجبتُ من

الأمر، ثم قالت:

- ربما عن الشيخ موسى سرداب فوريك قبل مائة عام، وهناك أحد الجنون، إن السرداب يوجد أسفل بلدنا منذ مئات السنين.

ثم أردت في هدوء:
- لا أعتقد أن الأمر يستحق كل القلق الذي أراه على وجهك.

قلت في قلبي:
- إنني أفكر في الأمر من أكثر من جانب، إن استطاعت تلك الفتاة الانتفاء ذلك الذئب للفصيلة المنقرضة قد يتعداها الأمر، وربما تكون ذات صباح بمجيء حملات استكشافية إلى بلدنا للبحث عن مزيد من حفريات الذئاب أو الحيوانات المنقرضة الأخرى، ومع المعدات التي يحضرونها قد يتم اكتشاف سرداب فوريك، ومن يدري ماذا سيحدث بعدها

إن عالمنا ممتلئ بالشرور، وإذا اكتشفت أرض زيكولا وما حولها من بلد فلن يكون أناسها في مأمن أبداً، ستصبح ثروات تلك البلدان مملوكة معتد، وغنيمة تتنافس عليها قوى هذا العالم، خاصة مع الأزمات الطارئة التي نمر بها الآن، وإذا حاول أهل تلك البلدان المقاومة فلن يكون مصيرهم إلا الإبادة المحققة، مع الفارق الكبير بين التسليح هناك وصيغتي شفتي وتابعت:

- سيكون اكتشاف تلك العوالم هي نهايتها، وذلك هو السبب لأد لاحقاً في بسر سرداب فوريك كل هذه السنوات.

فكرت قليلاً في صمت كأنها وافقت تفكيري، ثم قالت:

- وماذا ستفعل؟ يبدو من هيئة الفتاة أنها متأثرة وملحة، إن نها تحصل على حفريات ذئبها وإن لم تساعدنا سيساعدنا غيره قلت:

- سأستخرج رفات ذلك الذئب بمعرفتي قبل وصولها إليه، لم أفلح ليريد مساعدتي من قبل، لكن قياساً على الأضرار التي قد نتج

صحة انتراضها لا بد وأن أسارع بحرمانها من ذلك الاكتشاف، لقد زعمت عدم معرفتي لأقارب الشيخ موسى، لكنني أعرف جيدًا قريبه الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة، الحاج «رأفت الخولي»، لن أفصح له عن الأمر، لكنني أستطيع أن أستعرج منه بعض المعلومات التي أريدها عن الشيخ موسى ونثبه.

نالت في نبرة قلقة:

- أشم رائحة مغامرة جديدة يا خالد.

مززت رأسي نافيًا، وقلت:

- لا، لقد ولّى زمن المغامرات، سينتهي الأمر بإخفائي رفات ذلك النثب وسأتوقف عند ذلك الحد.

ونظرتُ في عينيها وتابعتُ:

- سأفعلها من أجل أصدقائي القدامى يا منى، من أجلهم فحسب.

أومات برأسها وهي تنظر إلى يامن الذي فتح باب الغرفة ودلف إلينا، وقالت:

- حسنًا يا خالد، تذكر فقط في كل خطوة تأخذها أن هناك طفلًا يحتاج إليك.

أومات برأسي إيجابًا في صمت.



في صباح اليوم التالي اتجهتُ مباشرة إلى منزل القريب الوحيد للشيخ موسى الديب؛ «الحاج رأفت الخولي»، رجل في أواخر عقده السابع، كان يعمل ناظرًا لمدرسة ابتدائية. وما زال يتمتع بصحة جيدة، كان يعرف جدّي جيدًا ويكرُّ له كل احترام، استقبلني بحفاوة شديدة حين وجدني أمام باب بيته، وبعدها قدمت لنا زوجته كوبين من الشاي وتركنا معًا قلتُ:

- لقد جئت إليك بشأن قريبك الشيخ موسى رحة الله عليه.

تعمد لوجهه، ثم قال ماسحاً:
- يا، الشيخ موسى! لقد توفي منذ أكثر من خمسين عاماً، لا أظن أن
حباك يعرف عنه شيئاً.

ضحكت وقلت:
- هذا صحيح، لكن جدي كان قد حكى لي عنه من قبل، وعن ذنبه، وقبل
شهور نشرت صورة عبر الإنترنت كان الشيخ موسى يقف في خلفيتها
منته، وأثار ذلك انشأه بعض أصدقائي، وجئت لأفهم حكايته وحكاية
دته بعدما سألتني أكثر من شخص عن قدرة رجل بسيط مثله على
اصطياد ثقب شرس بهذا الشكل.

وأخرجت له الصورة، وأشارت بإصبعي إلى الشيخ موسى، ارتدى نظاره
الطبية وضحك وهو ينظر إلى الصورة، ثم قال:
- أعتقد أنها الصورة الوحيدة للشيخ موسى.

ثم تابع:

- كان شقيق جدي الأصغر، لقبه الناس بالشيخ متلماً باعتابوا أن يقبوا
هندي اعقول في ذلك الوقت، شأت موجدته يحمل دته على كتفيه
ويردد آية اكرسي دون توقف، سبحان الله لم يكن يخطئ في كلمة
واحدة منها، قالت جدي إنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملاً في
طفولته، ولولا حروجه من المدرسة بعد وفاة أبيه لأصبح ذا شأن كبير
في هذا البلد، قبل أن يطير عقله فجأة بعدما وجدوه بين ليلة وضحاها
يسير عارياً في القرية يحمل دته الميت على كتفيه وفأسه في يده،
ويردد آية الكرسي وكلمتين أخريين بينهما.

ثم أحد يتذكر لبضع ثوانٍ، ارتشف خلالها رشفة من الشاي، وتابع:

- «حوا، جانا»، كان يقول هاتين الكلمتين.

سألته مستغرباً:

- ماذا كان يعني بهما؟

قال:

- لم يعرف أحد قط ماذا كان يعني بهما، أو بمعنى أدق لم يشغل أحد باله
بما قد يهدي به شخص مسكين العقل منه.

وتابع وهو ينظر إلى صورة الذئب:

- انغريب أن ذلك الذئب لم يتحلل جسده سريعًا مثل أي حيوان نافق
آخر، لا أعرف إن كان قد قام بحشوه من الداخل بالمطح الخشن أم ماذا،
لكن أحدًا لم يكن يستطيع الاقتراب أصلًا منه لمعرفة ذلك السر، إذ كان
يلصق جسده طوال الوقت كأنه جزء منه، يتجول به، ينام معه، يستحم
معه إن قامت جدتي بتحميمه.

وارتشف رشفة أخرى من الشاي، وضحك وهو يتابع:

- قالت لي جدتي ذات مرة إن أحد الأشقياء حاول نزع الذئب عن كتفيه،
بأمسك أخوها برقبة ذلك الشقي غارسًا أظافره في حنجرته حتى كاد
بقتله لولا أنقذه الناس منه في آخر لحظة، ومن يومها لم يحاول أحد
الاقتراب منه أو من ذئبه.

وتذكر شيئًا آخر، وقال:

- قالت أيضًا إنه كان يختفي مذئبة ليلتين متتاليتين منتصف كل شهر
قمرى دون أن يعرف أحد مكانه، ولما اكتشفوا أنه كان يتوارى خلالهما
داخل أحد قبور القرية المحاورة وحاولوا إخراجه أخذ يصرخ بكل
طائفة رافضًا الخروج من القبر حتى تركوه، فلم يكن من جدتي إلا أن
تذهب إليه بالطعام هناك في هاتين الليلتين من كل شهر.

مكرت في غرابة الأمر، ثم سألته:

- أخبرني جُنِّي أن ذئبه دُفن معه، أهذا صحيح؟

قال الرجل:

- نعم، الكل كان يظن أن الشيخ موسى معسوس من الجن، وكانوا
يعتقدون أن الحس يمكن في ذلك الذئب، وعندما مات خافوا أن ينزعوا

منه شيء ودفنوهما معاً. أتذكر أن شيخاً من بلدة مجاورة هو من ثلثي
العمل له ولدته، وهو من قام بإنزال جثتيهما إلى القبر بعدما خشي
أهل القرية من الإقدام على ذلك الفعل، حتى قبره لم يُفتح منذئذٍ
بعدما خشينا أن يُدفن فيه أحد آخر من العائلة، لدينا ثلاثة قبور؛ قبر
للشيخ موسى بمفرده، وقبران لباقي العائلة، أحدهما للرجال والآخر
للنساء.

انسمت وأطلقت تنهيدة قاتلة:

- إن بلدتنا ممتلئة بالكثير من القصص والحكايات.

قال الرجل:

- نعم، كانت طفولتنا لا تحتاج إلى تلفاز أو إنترنت مثل هذه الأيام بفضل
كثرة تلك القصص.

قلت وأن أنهض:

- أشكرك يا حاج رافت، أردت معرفة القصة منك، لعلني أستطيع إجابة
الأسئلة التي يطرحها الناس عن الشيخ موسى أو أبونها ذات يوم
وأسف على إضاعة وقتك.

قال معانداً:

- لا سمح الله، إنك حفيد الغالي، وسعدت جداً بزيارتك.

ثم غاصت وعى وحيي ابتسامة، ويدور في رأسي حديث الرجل عن وجود
ثلاثة قبور فقط لعائلته، خُصص أحدهما للشيخ موسى بمفرده، كان ذلك يعني
أن القبر المسمى بكومة الطين الأكثر جفافاً بين القبور الثلاثة هو قبر الشيخ
موسى بعدما لم يُفتح منذ أكثر من خمسة عقود، وأكملت طريقي متجهاً إلى
مصدر القرية



قرأت سورة الفاتحة عندما صرت على مشارف منطقة المقابر، ثم خطوت إلى داخلها ينتابني شيء من الاضطراب، كانت القبور تعمد عن يميني وعن يساري مُقْبِبة الشكل ومبنية من الطوب، يحمل بعضها قطعاً من الرخام مكتوباً عليها أسماء العائلات التي تنتمي إليها، وتعزلها عن السماء مظلة مرتفعة من الصاج المدعوم بقوائم حديدية، وكان بعض النساء يجلسن بجوار بعض القبور يقرآن القرآن لموتاهن، فألقيت تحيتي عليهن، وواصلت تقديمي بين الطرقات المتشعبة باحثاً عن قبور عائلة الخولي، إلى أن وصلت أخيراً إلى مرادي، وهناك أخرجت زفيراً ارتياحاً، فمن حسن الحظ أن قبور تلك العائلة لم تكن على أطراف المقابر، بل كانت تتوسطها تقريباً، وهذا ما يجعلها متوارية نوعاً ما، تلفتُ حولي، لم يكن أحداً في محيطي، فأنحيتُ وتفحصت كومة الطين المغلفة لكل واحد منها، كان الفرق بينها وضحاً للغاية، وفي لمح البصر أدركتُ أن كومة الطين التي تغلق القبر الشرقي هي الأقدم، فنهضت وألقيت السلام باسمًا للشيخ موسى وأنا أنظر إلى قبره أمامي، حينذاك انقبض صدري، ودئت في قلبي رهبة مفاجئة لم أعرف سببها، قاسرعت بقراءة الفاتحة مرة أخرى، ثم غادرت باضطراب كبير عائداً إلى البيت.



سألتني متى عما حدث خلال ساعات اليوم، فأخبرتُها عما دار بيني وبين قريب الشيخ موسى، وعن ذلك الاضطراب الذي أصابني عندما وقفت أمام القبر، ثم أردفت لها مطمئناً عندما رأيت قللاً كبيراً يظهر على وجهها هي الأخرى:

- أعتقد أن ذلك طبيعي مع ما أنوي فعله، يبدو أن سنوات الراحة الأخيرة قد جعلت قلبي هشاً وكأنني لم أمر بما يعادل خطورة ذلك مئات المرات.

سألتني، والقلق لا يزال على وجهها:

- متى تنوي فتح ذلك القبر؟

قلت:

- سأراقب منطقة القبور أكثر من ليلة أولاً لأختار التوقيت المناسب،
أريد التعتل فيمسك بي أحد الأهالي ويقع الفأس في الرأس. والنسبة
لمروءة فسأعمل على تأخير عودتها إلى القرية بقدر المستطاع.
مررت رأسها إيجاباً من دون أن تنطق.

خلال الأيام التالية قُسم وقتي بين ثلاثة أشياء رئيسية: عملي نهاري
وبحثي ليلاً عبر الإنترنت عن تفاصيل أكثر تخص الذئاب الرهيبة، والذهول
في وقت يتعدى منتصف الليل إلى منطقة المقابر مُراقباً البيوت المُنشأة
التي تحيطها، هانفتني مروءة أكثر من مرة، تعمدتُ تجاهلها في البداية، لكن
مع إلحاحها الشديد أحبت اتصالها، وأخبرتها كاذباً أنني ما زلت لا أعرف
الشيخ موسى، ولم ألتق أقرباءه بعد.

مع نهاية أسبوعين من الذهاب إلى المقابر أدركت صعوبة الأمر مع استمرار
إنارة الأعمدة المنتشرة بين القبور، وكذلك إنارات البيوت التي تحيطها طرقات
الليل. هانفتني الفتاة مرة أخرى مع منتصف الأسبوع الثالث، وقالت إنني
ستزورني خلال أيام، حاولت أن أنبسط عزيمتها بعدم قدرتي على إيجادي
جديد، وعدم جدوى محبتها، لكنني شعرتُ من نبرتها تلك المرة أنها عازدة
ترتاب أمري، ووجدتها تخبرني صراحةً أنها ستأتي مع زميل لها يدرس نفس
المجال في جامعة المدصورة، ويعرف بعض الأشخاص في قريتنا، زادت
المحادثة من توترتي، وفي الأيام التالية عاودت الذهاب إلى منطقة المقابر
بمعدل أكثر لحلي أصادف فرصة تلوح أخيراً من خلالها توقيتاً مناسباً،
أن شيئاً لم يختلف عن المرات السابقة.

مررت عشرة أيام أخرى لم يحدث فيها أي جديد، ولم تهاتفني خلالها
الفتاة، أحسست في داخلي حينها أنها قد قررت إبعادي عن الأمر تماماً
وتوليها الأمر بنفسها بمساعدة زميلها، فواصلت محاولاتي بإصرار كي أتمكن
توقيتاً مناسباً قبل وصولها هي ومن معها إلى القبر، ثم أنت الفرصة على هذا

من ذهب بعد ثلاثة أيام أخرى عندما سمعت مكبر صوت ينادي في القرية بأن الكهرباء سوف تنقطع عن القرية وأحواها في تمام الحادية عشرة مساءً حتى الساعة من صباح اليوم التالي، اعتاد مسئولو شركة الكهرباء والمياه على مثل هذه التنبيهات كي تأخذ كل أسرة احتياطاتها بشأن فصل الأجهزة الكهربائية وتخزين المياه للبيوت التي تعتمد على مضخات رفع المياه للأدوار العليا، كانت الساعة في يدي وقتها تشير إلى السادسة مساءً، وكانت الشمس في طريقها للغروب عندما تناهى ذلك الغذاء إلى مسامعي أنا ومعنى التي كانت تحلس بحواري، وبمجرد أن انتهى، نظرت إليها وقلت دون تفكير:

- سأخرج عظام الذئب الليلة.

في تمام الثانية عشرة صباحًا كنت قد جهزت أدواتي: جاروقًا معدنيًا صغيرًا، ومصباحًا ضوئيًا، وقفازًا جلديًا، وجوالًا من الخيش، وقارورة ماء متوسطة الحجم، وفي تمام الواحدة والنصف صباحًا خرجت من بيتي.

كان السلام سائدًا مع انقطاع الكهرباء وتواري النجوم والبدر وراء غيوم السماء، أترت مصباحي في بداية الطريق بعد تأكدي من سكون جميع البيوت على جانبيه، وأطفأته عندما انقشعت السحب عن البدر وأظهر ضياؤه الطريق أمامي، ثم وصلت إلى رفعة المقابر فدلقت إليها عابرةً صفيين منها، كانت الأحياء هناك ساكنة حد الموت، وحركة السواد مع عدم وصول ضوء البدر إليها إثر مظلة الصباح الممتدة فوقها، وعندما تفحصت البيوت المحيطة بالمقابر في الاتجاهات كافة كانت جميعها تشبه تلالًا سوداء لا تظهر فيها نقطة ضوء واحدة، حينذاك أترت مصباحي من جديد، وأكملت طريقتي نحو قبر الشيخ موسى.

عندما وصلت إلى أمام القبر دق قلبي بالرهبة دائها التي شعرت بها حين وفقت أمامه من قبل، فتمتمت بأيات من القرآن بصوت خفيض، ثم ارتدبت فعازي وبدأت أزيل بالجاروف كومة التلين المعلقة لباب القبر في هدوء مذر،

ساعدتني شدة جفاف الطين على سرعة إزالته، فحمدت الله في داخلي أنه لم يستخدموا الأسمنت لإغلاق القبور في تلك الآونة، ثم أصدر الجاروف صيلاً عالياً فجأة مع ارتطامه بحجر أسفل كومة الطين، فتوقفت حابساً أنفاسي ثم أكملت عملي من جديد بعد بضعة دقائق تفحصت خلالها سكّون الأجواء من حولي.

استغرقت إزالة كومة الطين وما أسفلها من حجارة ثلث ساعة تقريباً، إلى أن ظهر باب القبر الذي كان مغلقاً بطوبٍ لينٍ مرصوص دون مادة لاصقة مثلما تعودنا أن نفعل في قريتنا. مددتُ يدي وأزلت الطوب واحدة وراء أخرى حتى فتحت الباب عن آخره، ثم سلطتُ ضوء المصباح داخل القبر، ومددتُ رأسي وأنا أحرك مصباحي يميناً ويساراً، كانت أرضية القبر رمليّة تتخفّر قرابة متر عن الأرضية في الخارج، يقبع عليها كفن طويل مهترئ تظهر منه جمجمة بشرية وبعض العظام، وبجوارها كفن صغير تظهر منه منة جمجمة الذئب، همستُ إلى نفسي بقلب يدق خوفاً:

- رحمة الله عليك يا شيخ موسى، اعتنى المُغسل بذئبك وكفنه بكفن خاص به.

ثم وضعت مصباحي بين فكيّ ومددتُ ساقي بحذر إلى داخل القبر، وهبطت إلى أرضيته محاولاً ألا أدوس أي عظمة بقدمي، ثم حملت كفن الذئب بعظامه إلى داخل جوالي بدون أن أضيع وقتاً في أي تفاصيل أخرى وخرجت من القبر، وأعدت سريعاً رص طوب الباب مثلما كان، وباستخدام جارومي خلطت الطين الجاف بالماء الذي كان معي صانعاً عجيباً طينياً، وعلى قدر المستطاع أغلقت القبر بكومة من الطين تعادل حجماً الكومة التي أزلتها، آملاً أن تجف مع طلوع النهار وألا يلاحظها أحد في الأيام القادمة ثم نهضت وتفحصت الأجواء من حولي، كان السكّون لا يزال سائناً، نظرت في ساعتني، كانت تشير إلى الثانية صباحاً وأربعين دقيقة، فحملتُ جوالي وأدواتي وأسهرت عانداً إلى بيتي، وهناك صرخت في مُنى بمجرد أن رأيتها دافعاً إليها محوالياً المنبعج:

- ظفنتك ستتخلص منه بعيدًا.

قلت:

- لم يعد هناك إلا وقت قصير على صلاة الفجر، وخشيت أن يقابلني أحد فيشك في أمر هذا الجوار.

قالت في غضب:

- لم يكن ذلك اتفاقنا، قلت إنك ستتخلص منه بعيدًا.

قلت بصوت هادئ:

- علي أن أنحص هذه العظام جيدًا، لست متخصصًا، لكن قد تساعدني العقالات والصور والأفلام التي عكفت عليها في الأيام العاضية، من يدري؟ لعل الفتاة مخطئة ويكون ذنبا عاديًا ونرتاح من كل ذلك، لن يستغرق الأمر حتى الصباح، وقبل أن تنهضي من نومك أعدك بأن هذه العظام لن تكون في بيتنا.

قالت مقمعة في استنكار:

- أنا ما؟! ومن يستطيع النوم وهي بيته عظام كانت مدفونة لعقود مع رجل يُقال إنه كان ممسوسًا من الجن.

قلت مهدئًا لها:

- أرجوك، اتركيني فقط الآن، وأعدك في الصباح لن يكون هناك شيء تخشينه.

وافقت على مضمض، ثم تركتني وغادرت إلى الأعلى.

كانت الساعة قد صارت الثالثة والنصف صباحًا عندما أخرجت ربات الدشب من الحوال ووضعته بحذر شديد على طاولة صغيرة في وسط غرفة الصيرف يقبع عليها مصباحان مضيئان، ثم بدأت أزيح بحرص الكس المتهترئ عن العظام ففاحت رائحة عطنة في أركان الغرفة.

كانت العظام مفككة عن بعضها تتعلق بأغلبها بقايا ضئيلة من الأنسجة.
جمجمة كبيرة ذات فك كبير ومحجري عيينين واسعين، وضلوع متباعدة
الطول، وعظام طويلة وأخرى مسطحة، وفقرات مختلفة الأحجام، فزئت
جميعها أمامي على امتداد الطاولة، ثم أمسكت بالجمجمة في رغبة ودلتني
إلى مستوى عيني، فابصرت شعاً غير منتظم الحواف طوله حوالي ست
سنتيمترات يظهر في مؤخرتها، ففكرت في داخلي وأنا أتحسس ذلك الشعر
أن تلك الإصابة هي ما نسبت في موته، وتذكرت حديث قريب الشيخ موسى
عن قول جدته بأنه عاد إليهم حاملاً الذئب وفأسه، وهمست إلى نفسي:
- ضربة فأس قاتلة.

ثم تحسست الأتياب والضروس الكبيرة في الفكين العلوي والسفلي بعدما
أثار انتباهي الأتياب الأربعة سيقية الشكل التي يصل طول الواحد منها إلى
قراءة الخمسة سنتيمترات، حاولت تذكر وصف الذئب ارهيبية في المقالات
التي قرأتها كي أقارن ما أراه هو، لكنني شعرت بتشوش كبير، وأدركت في
نفسي أنه بالرغم من كثرة ما قرأته فإن الجزم يمثل تلك الأمور لن يستطيع
القيام به إلا متخصص، ثم وضعتُ الجمجمة جانباً ونظرت إلى باقي العظام
وبدأت أتقصها على عجل، لكنني سرعان ما أخرجت زفير يائساً بعدما
شعرت أن عقلي ثابه لا يستطيع تحديد أي شيء، فتركتُ العظام مبعثرة على
الطاولة وقررت في داخلي أن أدفنها بمجرد طلوع النهار في أي قطعة أرض
بعيدة، حتى وإن عثر عليها شخص من القرية فلن يظن سوى أنها عظام كلب
تحللت أنسجته قبل سنوات، ثم فتحت النافذة لعل الرائحة العطنة التي كانت
تفوح بقرة في الغرفة تتلاشى، وتركت أحد مصباحي الطاولة مُضاء، وملك
الآخر واتجهت إلى باب البيت، وتيقنت من إغلاقه جيداً، ثم صعدت إلى غرفة
نومي بعد ذلك كي أمكث هناك الساعات المتبقية حتى طلوع النهار، وقبل أن
تنطق فني بشيء، قلت:

- سأخفي العظام بعيداً ما إن تشرق الشمس، وننسى هذا الأمر.

هزّت رأسها في غير اقتناع، فوضعت رأسي على الوسادة، لكن ما إن سقطت جفوني حتى سمعت صوت ارتطام أتى من أسفل، وثبت خوفًا من فراشي ووثبت مني هي الأخرى خائفة وأمسكت بذراعي، قلت والخوف يخمر كل خلية من جسدي:

- لعلّ قطًا غريبًا أسقط شيئًا في الظلام.

ثم نهضت من موضعي، وأمسكت بالمصباح وأنرتة، بينما تحركت مني من حلقي تتشبث في طرف ثيابي العلوية، ونزلنا بحذر السلم الداخلي للبيت. كان السكون قد عاد مرة أخرى. قالت هامسة:

- تخلّص من تلك العظام الآن، أبعداها عن هذا المنزل.

ربّت على يدها، وقلت هامسًا:

- اطمئني، لا يوجد شيء.

وواصلنا نزولنا السلم، ثم تقدمنا في ترقب وخوف شديدين نحو الغرفة التي تركت فيها عظام الذئب، لينجمد كلانا رعبًا بعدما وجدنا يامن يقف أمام عظام الذئب ويحمل مصباح الطاولة في يده، صرخت مني من المفاجأة:

- يامن، ماذا تفعل هنا؟

جفل الصبي مرتعبًا، ثم صرخ إلينا في تلعثم:

- كنت أظن أن أبي هنا بعدما وجدت هذا المصباح مُضاء، وجئت فوجدت هذه.

اقتربت منه مني وأبعدته عن الطاولة، إلا أن ما لفت انتباهي وجعل قلبي ينتفض بقوة هي عظام الذئب التي كنت قد تركتها مبعثرة قبل دقائق على سطح الطاولة، إذ وجدتها قد انتظمت جميعها لتشكّل هيكلًا عظميًا مكتملًا للذئب؛ الحمجمة متصلة بالفقرات التي تراصت في هيئة عمود فقري يتصل بالأمام بعظام لوح الكتف المتصلة بعظام الأرجل الأمامية، ومن الخلف بعظام الحوض المتصلة بعظام الأرجل الخلفية وبعضيمات الذيل، وتواحه مقدمة

الجمجمة النافذة بشكل عمودي، قلت ليامن وأنا أنظر إلى عظام الذئب
حذر بالغ وقلبي يكاد يتخلع من موضعه:

- هل قمت بترتيب العظام؟

قال:

- لا.

سرت رعشة عظيمة في جسدي، كنتُ على يقين أنني تركت لها
مبعثرة في غير انتظام وغير موجهة للنافذة، وقلت لعني دون أن أنظر
- أخرجني يامن حالاً من الغرفة.

إلا أنها همست لي بصوت خائف مرتعش وهي تواجه النافذة المفتوحة
- انظر.

نظرت إليها بطرف عيني، ثم اقتربت منها بخطى حذرة وعيني على
الذئب، فأشارت إلى السماء، كانت السماء صافية يوجد بها البدر في
نفسه الذي تتجه إليه مقدمة جمجمة الذئب، فزاد رعبي رعباً، غير أن ذلك
يكن ما تقصده مُنى، بل كانت تقصد النجم الوحيد الذي كان يلمع في
بعثاً عن البدر، لتتابع في رعب شديد:

- إنه نجم أسيل، لقد عاد للظهور من جديد.

تُشمرُ مكاني عندما أبصرت نجم أسيل يلمع في السماء، في مكان آخر
وحيث آخر كنت سأعصي أسعد البشر برؤية ذلك النجم من جديد، لكن مع ظهوره
في تلك التوقيت بالذات وبعد ما حدث من عظام الذئب لم يره عقلي سوى أنه
إنذار بقدوم كارثة كبرى إن لم أبعاد تلك العظام عني وعن أسرتي، وبحركة لا
إرادية مدتُ يدي سريعاً نحو النافذة وأغلقت مصراعها، لأهمس بعدها إلى مني:
- اصمدي بيامن إلى الأعلى فوراً.

أمسكتُ مزارع الصبي في فزع وغادرتني على الفور، وأغلقتُ باب الغرفة
من خلفهما، لأظل وحدي بمواجهة الطاولة أحرق إلى العظام القابعة على
سطحها بأنفاس مرتعبة ومستعناً لأي حركة مفاجئة، إذ توخَّم عقلي أن ذلك
الهيكل قد ينهض ويهاجمني في أي لحظة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث،
فاسنجمعت شجاعتي وأمسكتُ بالجوال في يدي اليسرى، وأسهرت بالتقاط
العظام والقائها في داخله تباطؤاً بيدي الأخرى، ثم أحكمت إغلاق الجوال عاقداً
عنقه أكثر من مرة، وحملتته مهرولاً إلى خارج البيت ومعني جاروفي المعدني
في وقت كان فيه النهار قد بدأ في الطلوع، واتجهت نحو أطراف القرية حيث
حفرت حفرة عميقة في أرض رطبة، وأسقطت فيها جوال الذئب ورددتها من
حديد، لأخرج أنفاسي في ارتياح عندما سوَّيت الأرض بقدمي وتأكدت من عدم
ظهور أي جزء من الجوال، وإن لم أستطع تجاهل النظر نحو البيت المهجور
الذي يكمن في داخله مدخل سرداب فوريك والذي ظهر في الأفق بعيداً أمامي
مع انقشاع ضباب الصباح.



مضت إلى المنزل، كانت منى ويا من ينتظرانني عند السلام الخارجية.
لذلك منى في ارتباك شديد.
- لم أستطع المكوث في الداخل، لا يزال الخوف يعصف بكل خلية في
جسدي.

قلت مطمئناً لها:
- لقد دفنته بعيداً على عمق كافٍ، لن يستطيع أحد الوصول إليه، طيفاً
لن نفسي أمره وكان شيئاً لم يكن، ولعلّ ظهور النجم في ليلة أمس
صدفة لا أكثر.
بدأ على وجهها عدم الاقتناع، لكنها مثلي لم يكن في يدها شيء سوى أن
تتجاوز الأمر وتسلم بزوال الخطر حتى وإن كان داخلها لا يوافقها في ذلك.



دخلتُ إلى البيت فوجدته معيقاً برائحة البخور الفاخرة، وصوت القرآن
الصادر من هاتفي الموضوح على طاولة في منتصف ارددة السفلية على
للذبة، أركضتُ أنها سارعت بفعل ذلك خشية وجود أي آثار شريرة للذنب
بطمأنتها ثم صعدت إلى عرقي مدعياً رغبتني في النوم محاولة مني لعدم
تسبب الأمر على عكس ما كنت أخفيه في داخلي من تشبث وارتباك ظلاً
مصران بمظلي طوال ساعات ذلك اليوم والأيام التي تلت من دون أن أجد
تفسيراً واحداً لما حدث

خلال تلك الأيام استعرت منى في شعلات البخور وتشغيل الهاتف بالقرآن
ومراقبة السماء لرؤية إن كان نجم أسبل سيطهر مرة أخرى أم لا، إلا أنه لم
يكن، وكلتُ حول ما من الاستعسار عن العظام أو الرعب الذي أصابت تلك
الليلة، ذهبتُ كثيراً أمراً خبيراً، وأنها لم تكن إلا عظام كلب جمعتها من الشارع
المجاور في دفعها بعنف رحمة به.



بعد أسبوعين بالتصام والكمال فوجئت بمروءة ومعها شاب ثلاثيني لا أعرفه
يطرقان بابي، استغربت الفئاة من رائحة البخور العالقة في كل مكان عندما
دخلت إلى داخل البيت دون أن أذن لها، لكنها سرعان ما تجاهلتهما وسألتني
في قبرة حادة:

- أين الذئب؟

قلتُ هادئًا في إنكار:

- أي ذئب؟

قالت:

- الذئب الذي أخرجته من القبر.

قلتُ كاذبًا:

- لم أخرج شيئًا، قلتُ لك إنني لم أعرف القبر، ولم أتحدث إلى أي من
أقارب الشيخ موسى.

صاحت منزعجة:

- إنك كاذب، وكاذب فاشل، لقد قابلت قريب الشيخ موسى، وتعجب
حين سألته عنه، وأخبرني أنك أيضًا تحدثت إليه بخصوص قريبه قبل
أسابيع، وكومة الطير التي أغلقت بها القبر يستطيع الطفل معرفة أنها
حديثة الصنع.

وأضافت بعين تثق غضبًا:

- لقد فتحت الثلاثة قبور ليلة أمس بمساعدة بعض الرجال هنا في قريتك
من يعرفهم «فاروق».

وأشارت بطرف عيناها إلى زميلها، وأكملت:

- ولم أجد أي أثر له، فقط آثار أقدام على الرمال في قبر الشيخ موسى.
بالطبع تعرف أقدام من.

قلت:

- لم أجد أي كتاب وتعليك أن تحددني محضراً في قسم الشرطة لـ
انتهامي رسمياً بذلك.

صرخت محدثاً:
- لم أكن أعرف أنك بذلك السوء، لا أعرف ما الذي قد تستفيد من ذلك، لقد حرمتني وحرمت العالم من اكتشاف قد يغير نظريات كبرى زعمتُ فيها.

- قلت لك لم أجد شيئاً، هيا، عودي إلى حيثما جئت، ولا أريد أن أراك مرة أخرى.
خرجتني سظرافها الفاضبة، ثم غمغت بكلمات تلعنني بها، وعادوا وهم ورميلها.

انغثت لناب من ورائها، وأسندت ظهري إليه منتهئاً، في نلخي لم أغضب من ثورتها العارمة، كنت سأفعل الأمر نفسه بل أكثر إن حرمتني أحد من حم قريب سعبت وراءه لشعوره، لكن لم يكن في يدي حيلة، كان حصرياً على ذلك الدب سيؤدي إلى مصائر غير محمودة لأناس كثيرين، فلتسامحني أينما العتاة، ولعلي أجد فرصة أخرى أعوض لك ما خسرتيه من جراء إخطائي بذلك.



في الأيام القليلة التالية بدأت حياتنا تعود شيئاً فشيئاً إلى ما كانت عليه قبل نولي قدر الشيخ موسى متماسين ومتجاهلين ما حدث في تلك الليلة. من أخذت أفتح نفسي وأفتح مني مع الوقت أنني من شغل عظام الدب في ميكله اعظمي قل صعودي إلى الغرفة، وقد أكون فسيت قياسي بذلك مع رماقي ومجري ليلتي، لنغير حياتنا ذلك المنحطف المعاجي، إلا أن شيئاً واحداً لم يسطع تحاوره مع مرور شهر واحد بعد تلك الليلة، وهو نوع من العريب، إذ أصيب العقب بارتفاع درجة حرارته ليال متتالية دون استجابة في من حوائس الحرارة أو المضادات الحيوية أو مضادات الفيروسات.

- لم أجد أي كتاب وتعليك أن تحددني محضراً في قسم الشرطة لـ
انتهامي رسمياً بذلك.

صرخت محدثاً:
- لم أكن أعرف أنك بذلك السوء، لا أعرف ما الذي قد تستفيد من ذلك، لقد حرمتني وحرمت العالم من اكتشاف قد يغير نظريات كبرى زعمتُ فيها.

- قلت لك لم أجد شيئاً، هيا، عودي إلى حيثما جئت، ولا أريد أن أراك مرة أخرى.
خرجتني سطوراً في الغاضبة، ثم غففت بكلمات تلعنني بها، وعاد دم

ورميلها.
انغثت لناب من ورائها، وأسندت ظهري إليه منتهناً، في نلخي لم أغضب من ثورتها العارمة، كنت سأفعل الأمر نفسه بل أكثر إن حرمتني أحد من حم قريب سعبت وراءه لشعوره، لكن لم يكن في يدي حيلة، كان حصرياً على ذلك الدب سيؤدي إلى مصائر غير محمودة لأناس كثيرين، فلتسامحني أينما العتاة، ولعلي أجد فرصة أخرى أعوض لك ما خسرتني من جراء إخطائي بذلك.



في الأيام القليلة التالية بدأت حياتنا تعود شيئاً فشيئاً إلى ما كانت عليه قبل نولي قدر الشيخ موسى متماسين ومتجاهلين ما حدث في تلك الليلة من أخذت أفتح نفسي وأفتح مني مع الوقت أنني من شغل عظام الدب في ميكنه اعظمي قل صعودي إلى الغرفة، وقد أكون فسيت قياسي بذلك مع رماقي ومجري ليلتي، لنغير حياتنا ذلك المنحطف المعاجي، إلا أن شيئاً واحداً لم يسقط تحاوره مع مرور شهر واحد بعد تلك الليلة، وهو نوع من العريب، إذ أصيب العقب بارتفاع درجة حرارته ليال متتالية دون استجابة في من حوائس الحرارة أو المضادات الحيوية أو مضادات الفيروسات

احترف أطباء القرية في تشخيص مرضه، منهم من قال في البداية إنها مجرد التهابات بسيطة في حلقه وصدره، ومنهم من أكد عدم وجود مثل تلك الالتهابات مدعومين بالفحوصات الكثيرة السليمة التي أجريتها مع تعجب كبير باحتفاء الحمى تمامًا نهارًا وعودتها ليلاً فقط في نمط ثابت.

مع الوقت أدركنا أن الشيء الوحيد القادر على خفض حرارته هو غمره في حوض من الماء الفاتر خلال الليل، ليصبح ليل العتي حارًا طويلًا إن غادره لدقائق عادت الحمى من جديد.

لأكثر من شهرين انتقلنا من طبيب لأخر ومن مستشفى لأخرى دون أن نجد شيئًا واضحًا لتلك الحمى، ولأن الأطباء لم يصدقوا أن العتي مريض إن ذهبنا إليهم نهارًا ووجدوا حرارته طبيعية كنا تعود ونذهب إلى عياداتهم الخاصة ليلاً لنبصدقوا صحة ما نقوله عن نمط تلك الحرارة، بيد أننا لم نلق منهم سوى إيماءات من التعجب والدهشة، خاصة أن مسببات مثل هذا النمط من الحرارة لم تُشر إليها أي من الفحوصات الكاملة التي أجريتها، قام بعض الأطباء بإعطائه علاجًا تجريبيًا لأكثر من شهر بافتراض خطأ الفحوصات، لكن الحمى الليلية والهزلان بقيا كما هما. قرأتُ مني كثيرًا هي الأخرى مع بقائها طيلة تلك الشهور ساهرة بجوار حوض مائه الذي صار سريره الليلي وعدم حصولها إلا على قدر ضئيل جدًا من النوم، وأنا لم أستطع الانتظام في عملي مع الذهاب شبه اليومي إلى الأطباء، والسهر بجوارهما لعلهما يحتاجان شيئًا.

مع انتهائنا من زيارة الطبيب التاسع في خلال ثلاثة أشهر، وهبوطنا من سلالم عيادته، نطقت مني بما كنت أخشى أن أفكر فيه:

- اعتقد أن الأمر يتعلق بتلك الليلة.

كنت أفهم مقصدها تمامًا، لكنني ادعيت عدم فهمي، فتساءلت:

- أي ليلة؟!

قالت بصوت يختنق بالدموع:

- الليلة انني وقف فيها يامن امام عظام الذئب اللعينة.
كنت في داخلي أعرف أننا لو دخلنا في الدوامة المتعلقة بمس الحزن فلن
نتتهي أبنا، فقلت وقلبي لا يوافقني:
- لقد لمست العظام أنا الآخر، كن الأولى أن يصيبني المس لا اللعنة.
أرحوك دعينا نواصل رحلة العلاج دون أن تشتتنا تلك الأفكار أو تنزع
عزيمتنا.
انهارت باكياً، وجلست على درجة السلم، وقالت وهي تنظر إلى يامن الذي
كان ينام على كتفي:
- إن حالته تسوء يوماً بعد يوم، بدأت أشعر أنها أيام وأفقده.
أمسكت بيدها في رفق، وقلت:
- سيزول مرضه قريباً بإذن الله، لقد دُلّني أحدهم على طبيب ماهر في
القاهرة لكنه خارج البلاد الآن، سنذهب إليه بمجرد عودته إلى البلاد.
شمعت بكلمات غير مفهومة في يأس، وواصلت تحيبتها.



شهر آخر لم يحدث فيه أي جديد، حمى ليلية لا تستجيب إلا للمياه،
تصاحبها بعض التشنجات في بعض الليالي كانت تأتي لتؤلم وتختفي دون
علاج، وزيارات دون جدوى لأطباء جدد، وكلما سألت عن طبيب القاهرة
وجنته لم يعد من الخارج، ساعدنا أحد أصدقائي في دخوله إلى مستشفى
الأطفال الجامعي في مدينة المنصورة آملاً أن يكون المكان الأفضل لعلاج
حالته، ظل الوضع كما هو خلال الخمسة عشر يوماً التي قضيناها هناك، إلى
أن كنت نعوذا وأخرجته على مسئوليتي لتتابع حالته في بيتنا بعدما لم أشعر
بأي تحسن.

في نهاية الشهر الرابع من المرض قالت منى إنها بدأت تلاحظ هذيان
بعض في بعض الأوقات أثناء نومه في حوض المياه، مرتعبة من بدء تأثير
الحرارة على عقله، حينذاك كدت أموت في داخلي، لم أشعر أنني عاجز وقليل

الحيلة مثل ذلك الوقت، وعندما غادرته أغلقت باب الغرفة وأخذت أبكي بكاء لم أبك مثله في حياتي.

اشعلنا البخور في غرفة الفتى من جديد، وأحضرنا بعض شيوخ القرية لتلاوة القرآن في غرفته، وفي الأوقات التي لم يأت بها الشيوخ لم ينقطع هاتف منى بصوت القرآن، ثم أخذت أبحث بقلة حيلة عن روحاني من طاردي الجان مع انهيار جسد ابني يوماً بعد يوم، دلّني مديري في العمل على رجل ستيقي يقيم في مدينة «العجلة الكبرى» قالوا إنه الأفضل في مثل هذه الأمور، ذهبت إليه في مسقط رأسه، ظننت أنني سأجده يرتدي جلباباً وعقوداً من الكهرمان مثلما تعودت على مظهرهم في الأفلام السينمائية، لكنني وجدته رجلاً أنيقاً يرتدي قميصاً وبنطالاً ويمسك بمسحة وحيدة في يده، شرحت له ما حدث فقال إنه سينال عشرة آلاف جنيه قبل أن يتحرك معي، كنت قد أعددت المبلغ مسبقاً إذ عرفت أنه يطلب ذلك دائماً من مرتاديه، واصطحبته معي إلى قريتنا حيث دلف إلى غرفة يامن وسألنا أن يبقى هو بعفده معه، بعد جدال كبير بينه وبين منى اضطررنا للموافقة في النهاية وانتظرنا في الخارج.

بعد ساعتين ونصف تقريباً كدنا نفقد عقولنا خلالهما أنا وزوجتي خرج إلينا ذلك الرجل وقال بنبرة حائرة:

- إنه معسوس لا شك.

دق قلبي سريعاً، فيما قالت له منى:

- فلتخرج ذلك الجن منه.

زَمَّ شفّتيه وقال:

- لم أستطع التواصل مع الجن.

ثم صعدت لثوانٍ وتابع:

- لكن من واقع خبرتي أشعر أنه من جان الحراس.

قلت مستفهماً:

- أي حراس؟

قال:
- نوع قوي من الجن، يُؤكلون دائماً بحراسة العقابر، مثل حراس العقابر
الفرعونية.
نظرت لي منى وكانت تنطق لولا أنها أمسكت بكلماتها، فقلت للرجل:
- أكل، سيدي.

قال:
- إن مثل هذا الجان قوي عنيد، يحتاج بعضهم إلى قرابين ثمينة للقبض
نصل لدماء طفل منبجرح في بعض الأحيان.
وهذا رأس أسفا ثم قال متراجفا:
- لكنني لست متأكدا في الحقيقة، لم يُمكنني من التواصل معه.
ثم صعدت مرة أخرى وأردف بعد تفكير:
- لا اعتقد أنك ستحضر إليّ سماء طفل ذبيح.

ثقت على الفور:

- بالطبع.

قال:

- هناك حل آخر قد يُجدي، وهو إرجاع الشيء إلى أصله، لطالما طارد
تلك النوع من الجن لصوص العقابر ولم يسلموا منهم في حياتهم إلا
بإرجاع مسروقاتهم. وإن كنت لا أعرف ماذا نال الطفل منهم.
صرخت في منى حينها.

- فلنشد أنفس إلى القبر حالا.

ثقت لعني:

- انتظري.

قال الرجل شاكاً في أمري:

- أي شيء؟

قلت:

- لقد أخرجت عظام ذئب قديم من قبر في القرية منذ شهر. قبل مرض
الطفل بشهر تقريبًا.

هز رأسه وقال:

- يبدو أن ذلك الجن عاقبك في ابنك، فلتُجِد ما أخذته إلى موضعه، ربما
يستطيع طعمك التجاة وقتها.

ثم فوجئت به يعطيني النقود التي أخذها مني مُعللاً ذلك بأنه لا يأخذ
نقودًا مقابل عدم فعل شيء، وغادرنا وهو يدمدم:
- فادّء الشيء إلى أصله.

قالت مني:

- فلتُجِد الذئب الآن إلى قبر الشيخ موسى.
هزئت رأسي موافقًا لها في صمت.

في تمام العاشرة مساءً ذهبتُ إلى رقعة الأرض التي دفنتُ فيها الحوال
الذي يحتوي عظام الذئب، وأخرجته ثم وضعته دون أن أنتحه في حقيبة
ظاهر كنت قد أخذتها معي ظنًا مني أنها ستقل الرتبة التي قد يمسها الحوال
المسح، واستطرت هناك حتى الثالثة صباحًا ثم تحركت بالحقيبة إلى مغارة
القرية، وهناك لم أهتم على الإطلاق بإنارة انبوت من حولها عائمًا في داحني
على إعادة تلك العظام اللعينة إلى قبرها حتى لو تكلفني ذلك إمساك أفعالي
مي، وأخذت أروم كومة الحلين سريعًا، ومن بعدًا طوب الباب المرصوص
دون مادة لاصقة، ثم أخرجت الحوال من حقيبتني وألقيته إلى داخل القبر دون
أن أهدأ إليه، ثم رصصت طوب بابي من جديد دون أن أصنع كومة أخرى من
الخلين، فربحتهُ مُخلفًا بالطوب المرصوص بحسب وعدت سريعًا إلى المنزل

مصر ما ان جدد من وزف أن يحدث تحسن دراهي في حالة يامن الصبر
بعد ابدني انهيء انسا كما في ابروحاسي، لكن درجة الحرارة العنيفة
من كدهم، فاستني هو في رعد ان ملئت قد أعدت الذئب حقاً إلى قلم
ونصف به أثر دفتت وتسلطع أن تذهب إلى القبر بنفسها لتتأكد
منه في

أيام أخرى ظل فيها الحال كما هو عليه، لا تحسن في حالة الصبر، بعد
إلى ضيق القاهرة الشهير أمراً بعد عودته من الخارج، فحصى كل التحليل
والعوصات من شيا وهر رأسه أسفا بأنه لن يخيف شيئاً، مؤكداً أن هذا
النتير من الحداث العربية التي ينف أمامها الطب عاجزاً، وأعاد لنا في
الكشف أسفا، خرجنا من عبادته العزوجة في منتصف الليل تقريباً واستقلت
مسارة حاصة عاشين إلى قريقت التي تقع على مسافة ساعتين تقريباً من
القاهرة، كل القوم مدوا ليلتها، علقت مصري به شارداً وداعياً الله أن يبد
شفاء من سي كان بياض معدداً على الكفة الحطعية في السيارة واضطار
النعطي بقعشة مبللة على جرد أمه، ديف كنت أجلس على انعقد الأنف
محوه الحلق، ملرت في الذئب الذي أعدته إلى القبر وأعدت لوم نفسي التي
رجعت بشيا إلى البيت بدلاً من التحطس منه بعيداً، كنت السبب فيعا حد
لاسي من لسانه متروك على أسامح بعسي أيد الدهر، نظرت في مرة السبابة
الذخلة، كانت من تد استعرتت في اسوم جبالسة هي الأخرى، مسكينة
أنكر أنها ماتت ساعتين مكتملتين خلال الشهور الأربعة الحاضبة، ولجت إلى
هاتفي وأخذت أقدم في تطبيق الفيسبوك وفي تطبيق محادثاته شارداً، كل
سي استكر من رسائل زملائي بأعسل يطعنون على حالة يامن الصحية، لا
استطع الرد وأخذت ألقب الرسائل قبيحة بعزمد من الشرود، استوقفتني اسم
مرو طارق، فتحت رسالته القديمة التي أرادت فيها مقابليتي، وفكرت لوها
في تكة اضار له وإحذاره بأنني أعدت الدف إلى مكانه إن كانت فيه
تسمل بسيا، عدي سي سمعت باسم يهذي فشاء يومه، كانت كلماته نجر

مفهومة في البداية، ثم بدأت تتضح شيئاً فشيئاً لتتسع حدقتا عيني وأنظر إلى الفراغ أمامي غير مصدق أذناي عندما سمعته ينطق بوضوح:
- حونا، جاننا، حونا، جاننا.

التفتُ إليه بأنفاس متسارعة، كان لا يزال مغمضاً عينيه وهو يواصل هنيائه بالكلمات نفسها التي أخبرني الحاج رأفت الخولي أن قريبه الشيخ موسى الديب كان يرددتها وقتما عاد بنثبه إلى أخته الكبرى فائقاً عقله.

كل جديد وقديم وكل ما هو نادر

من كتب ومجلات ومجلات

تبيعوا أدوية الكتب



TWEET/BOOK100100



FACEBOOK/BOOK100100



www.doda100100.blogspot.com

6

مصدومًا نطقْتُ إلى منى كي تستيقظ، فتحت عينيها نصف فتحة،
وسالني في قزع:

- ماذا هناك؟

قلت مرتعبًا:

- لقد كان الفتى يغمغم بكلمتي: حونا، جانا، منذ متى ينطق بهاتين
الكلمتين؟

نظرت لي هي تشبت وكأنها تحاول استيعاب ما أقوله، وقالت مستفهمة:

- ماذا تقصد؟

قلت مؤكدًا:

- لقد غمغم الفتى بكلمتي حونا جانا بوضوح منذ قليل،
اعتدلت في جلستها وقالت:

- لم أسمعها يقولهما من قبل، كانت هلاوس نومه غير مفهومة دائمًا، لماذا
تخشي هاتين الكلمتين تحديدًا، ماذا بهما؟

تذكرت أنني لم أخبرها عن حديث السيد «أفت الخولي» بشأنهما، فقلت
لها عندما رأيت يامن يفتح عينيه ويحدق إلي:

- لا شيء، سأخبرك لاحقًا.

أبركت أنني لا أريد التحدث أمام الفتى، هزّت رأسها إيجابًا، ثم بذلت
القماش المبتلة على رأسه، وأسدت رأسها إلى مسد الكنة، وغاصت في
نومها من جديد وتبعها يامن، بينما أسندت رأسي إلى مسند مقعدي مائلًا

إلى البدر في السماء تتساقط دموعي إلى وجنتي رغم محاولات تماسكي
بفكر عقلي سوى هي تأكيد ارتباط ما يحدث لابني بما حدث للشيخ رحمه
وذلك المصير الذي أراه يتصدر نحوه لحظة بعد أخرى دون استطاعتي إبطاء
أي حله.



وصلنا بيت في تمام الثانية والربع صباحاً، كانت منى ويامن قد استيقظا
نبلها بدقائق، ودُعا السائق ثم دلفنا إلى بيتنا حيث صعد يامن إلى حوض
مياه عرفته دون أن نطق، سألتني منى بمجرد أن فارقنا:
- ماذا حدث في السيرة؟

قلت:

- لقد نطق يامن بكلمتين كان الشيخ موسى يرددهما وقتما عاد بلبه
إلى أمه فنفذا عقله.

احتقن وجهها رعباً، وصرخت:

- تلك لك إن ذلك الذئب هو السبب.

هزرت رأسي أسفاً ومتفقاً معها، فتابعته:

- هل هذا يعني أن اني في طريقه إلى الجنون؟

رمت شفتي ولذت بصعتي قبل أن أقول في قلة حيلة:

- سأحضر روحاني المحلة الذي حقا به من قبل مرة أخرى، لعله يجد
هذه المرة طريقة للتواصل مع الجن الذي يمسّه.

لادت بصمتها في الأخرى، ثم فارقته دون أن تنطق بكلمة.

كانت تلك الليلة من أقسى الليالي التي مرّت علينا منذ مرض ابننا، فلما
كلنا مستيقظاً في صمت طوال الليل بجوار الفتى الراقد معمضاً عينيه في
حوض مياه، استعبرا أن يتحدث أثناء نومه من جديد لعلنا نكذب ما سمعناه
لكنه واصل نومه في هدوء.

عند الساعة الرابعة والنصف سألت منى أن تذهب إلى سريرها في الغرفة
 لأخرى لتريح جسدها رغم إدراكي أنها لن يغمض لها جفن، بعد جدال كبير
 وافقت وتركنتني بجوار يامن أنتظر حلول الصباح بفارغ الصبر كي أهاتف
 الروحاني وأترجاه ليأتي إليا في أسرع وقت، ثم أخذ عقلي يضج بقوة مفكراً
 في كل ما حدث منذ رسالة الباحثة لي، حتى أصاب الألم رأسي، فخرجت
 إلى الشرفة لأملأ صدري بهواء الفجر لعلّه يخفف ذلك الألم بعض الشيء،
 كان البدر ينير الأرجاء، وقفت لدقائق ثم عدت إلى الفتى مرة أخرى، كان لا
 يزال غارقاً في نومه، هممت لأغلق باب الشرفة، فسمعت يغمغم بكلمات غير
 مفهومة، تركت الباب واقتربت منه وجلست بجواره، توقف فجأة عن الغمغم،
 مدت يدي لأجس درجة حرارته، فأصبتني لسعة قوية مفاجئة كأنّ مساً
 كهربائياً أصابني، وللحظة شعرت أنّ عيني رأت مشهداً من حلم ما، أبعدت
 يدي سريعاً عن رأس الفتى، وأخذت أنظر إليه في اضطراب وخوف شديدين
 بينما يعلو صدري ويهبط بأنفاس لاهثة متتابعة.

بعد دقيقة واحدة مدت يدي مرة أخرى في حذر شديد ولامست رأسه،
 أصابني الوخزة القوية من جديد، فثبّت يدي على رأسه بإحكام رغم شعور
 الكهرباء الذي كان يسري بقوة في جسدي، وأغمضت جفوني رغماً عني
 بعدما شعرت أنّ عيني قد تخرجان من محجريهما، لأسمع في أنفي فجأة
 تعلمات شخص يردد آية الكرسي في تلعثم بينما يسير لاهثاً في مكان شبه
 مظلم، حاولت أن أميز صاحب ذلك الصوت، لكنني لم أستطع، ثم أدركت أنّني
 أرى بعين ذلك الشخص الذي كان يهرول ممسكاً في يده مصدراً حافقاً للضوء
 ويتنم بآيات لا أحفظها من القرآن الكريم، إلى أن فتحت عيني غير مصدق
 حين وجدت الصوت اللاهث يحدث نفسه قائلاً:

- اهدأ يا موسى، سنلقي نظرة سريعة، ونعود إلى بيتنا.

فتحت عيني في رعب شديد، كان يامن لا يزال نائمًا، تلفت حولي في
 صدمة وذهول؛ ما الذي يحدث؟ ومكثت أحرق إلى الفتى بأنفاس لاهثة، ثم

وحشني الالم رأسه من جديد، ولما شعرت باللسعة القوية ناتته لم
برحة يدي على جبينه، وأغمضت جفني. رأيت بعيني جنوداً سمرائيد
نائباً عسكرية قديمة ويركبون جمالاً يتقدمون تحوي بسياطهم الطول
بينهم يجري من حولي أناس كثيرون بجلابيبهم في حالة من الهرج والمه
ويقول أحدهم لي:

- ركض يا موسى، سيضربون من يلحقون به، اركض يا فتى إن سبيل
مؤلمة للغاية.

- «ماذا تفعل؟»

فجأة ظهر ذلك الصوت الأنثوي والذي لم يكن غريباً على أنني قط
- «ماذا تفعل يا خالد؟»

رؤد الصوت السؤال نفسه بصوت أعلى مُشرباً على مشهد الجنود
أراه، قل أن ينقطع المشهد تماماً، انقبهت حينها إلى منى التي كانت
بحوالي متعجبة وتكرر سؤالها لي استغرب شديد وهي تحاول نزع يدي
عن رأس يامن، كدت أخبرها بما رأيته، لكنني أمسكت بكلماتي في اللد
الأخيرة، وقلت:

- لا شيء، كنت أطمئن على حرارته.

فالت:

- كاد رأسه يتحطم في يدك، إنك مرهق للغاية، فلتقم ساعتين قبل نداء
إلى عمك، لقد اكتفيت من النوم.

حاولت إقناعها بأن تتركني أكمل الجلوس بجوار الفتى، لكنّها أصرت:
وسعت يديا حي على جبهته، ترقبت ما إن كانت ستشعر بما شعرت به؟
أنني لم تعلق شيء، ونطرت إلى باب الشرفة المفتوح، وقالت:

- لقد طلع النهار، سأنقله إلى سريره.

ثم ذهبت إلى الشرفة الأخرى لتحضر منشفة تجفف بها جسده كمنوعة
أو تفعل كل صباح

اطمأستُ إلى معادرتها العرفة، فاقتربتُ سريعًا من الفتى ولامستُ جبهته متعصيًا ما إن كان الأمر سيتكرر معي، لكن شيئًا لم يحدث، فأبعدتُ يدي سريعًا قبل عودة مني، ثم ساعدتها في نقل يامن إلى سريره، وانتقلتُ إلى غرفتي يشتغل عقلي بما رأيته؛ أولئك الجنود الذين رأيتهم أو بمعنى أدق رأيتهم بعيني موسى، والطريق المظلم الذي كان يقطعه بمصباحه، وما إن كان ذلك الشيخ أو جنّه يريدان إبلاغي بأمر ما، هل كان الفتى يحلم وانتقل ذلك الحلم لي بطريقة ما؟ أم أنا من كنت أحلم؟ ولعازا حدث ذلك الأمر في الليلة ذاتها التي نطق فيها يامن بكلمتي الشيخ موسى؟ حاولت تذكر المزيد مما رأيته عند ملاستي جبهة الفتى لعل شيئًا فاتني، لكن ظل مشهدا الطريق المظلم والجنود هما السائدان فحسب، فكرت في قريب الشيخ موسى من جهيد، وعزمت على الذهاب إليه لمعرفة المزيد عن قريبه لرجها لغيره على شيء ما يرشدني وسط الضياع الذي يصيبني ويصيب أسرتي.

في تمام التاسعة صباحًا توجهت مباشرة إلى بيت السيد «رأفت الخولي»، ضحك حين رأيته، وقال:

- لعلك جئت من جديد كي تسألني عن الشيخ موسى.

قلت:

- نعم سيدي، أريد معرفة كل شيء عنه.

قال بابتسامة طيبة دون أن يسألني عن سر استفساراتي المتكررة:

- لقد أخبرتك كل شيء سابقًا، ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟

سكت، ثم قلت:

- كيف جُنَّ الشيخ موسى؟

قال:

- كما أخبرتك، عاد فجأة حاملًا ذئبه وفاقدا عقله.

قلت:

- والشخصان اللذان كان يرندهما؛ خوفًا جانًا، ألا تعرفي حقًا ماذا كن بهما؟

قال:

- والله يا ولدي لو كنت أعرف لأخبرتك.
معدني لم أكن أعرف عما أسأل عنه بالصبط، فقلت:
- هل لديك أي شيء من متعلقاته؟
فكر الرجل ثم قال بعد ثوان:
- شهادة وفاته، كانت بين الأوراق التي تركتها أمي.

قالت:

- هل لي أن أراها؟

قال:

- انتظر نصيب.

ثم تلف ببطء إلى إحدى غرف بيته وغاب فيها لأكثر من عشرين دقيقة.
عاد وفي يده ورقة قديمة مُصفرة، وقال:
- هذه هي، مات سنة 1962 م.

نظرت إلى الشهادة، كان تاريخ الوفاة المُدوّن 7 سبتمبر 1962 م. ونجّ
تاريخ مولده 9 مارس 1903 م، وسبب الوفاة المُدوّن هو هبوط مفاجئ في
دورة دمه. فتكررت ما رأيته عند ملامسة جبين ياعم، كان الصوت الصادر ثم
سمعته يوحى بعقلانية صاحبه وهدوئه، فإن كان ما رأيته قد حدث في لوت
من قبل، فذلك يعني أنني رأيت شيئًا شهده الرجل قبل فقدانه عقله، مثل
السيد، رأيت.

- في أي عام فقد الشيخ موسى عقله؟
فكر الرجل ثم قال:

- في العام الذي تزوجت فيه خالة أمي، وولدت فيه أمي أيضًا، قالت جدتي
إنهم لم يفرحوا بتلك الزيجة ولا بولادة أمي بعد ما حدث لشقيقتي
الوحيد.

سألت:

- في أي عام تحديدًا؟

قال:

- 1921 م.

همست إلى نفسي:

- 1921 م.

بعدها لم أحد في بالي أسئلة أخرى، فشكرته كثيرًا واعتذرت له عن
وما في له، فنفسي على اعتفاري مؤكنا على استقباله لي في أي وقت، ثم
أشرت وأما أردت:

- 1921 م.



في السماء كان القمر بدرًا أيضًا، حاولت إقناع منى عندما صارت الساعة
لحظة صباحًا بالنوم في غرفتنا وتركها مع الفتى في غرفته، دون أن أخبرها
أن رغبتي في استئمان ما قد يحدث تلك الليلة أيضًا، لكنني رفضت شائنة في
بري، اضطرت في النهاية إلى وضع بعض الأقراص الممنوعة التي أحضرتها
من هيلية القرية وأنا عائد من زيارة السيد، رأيت الخولي، في كوب حليها،
لحنا غات في سباتها حملتها مرفق إلى سريرها، ودلعت إلى غرفة الفتى
فتحت باب الخرفة على مصراعيه، ثم حركت حوض المياه بالقرب منه
بعض مواجها للبدر، وهدت يدي ولاست جبين الفتى وأنا أهدق إلى البدر،
أغمضت عيني.

أسيل

كنت أجلس في حديقة القصر الخلفية بين وصيفائي، نستمتع إلى غناء إحدى الفرق الموسيقية عندما افتز ثغري عن انصامة خفيفة وأنا أتذكر يوم ركوسر السفينة الملكية التي تركتها تميم راسية على شاطئ بحر مينحا الشمالي لعام ونصف كاملين في انتظارني، بعدما حسم قلبي وعقلي مقارراري بالعودة إلى أماريتا، والرواح من تميم الذي فعل كل شيء من أجلي، ورغم مرور عشر سنوات تقريباً على تلك الأيام لمأني ما زلت أتذكر كل تفاصيل حدثت فيها، إذ أحييت بنا السفينة نحو الجنوب، وبمجرد أن عرفت حساب التريكاتنا أطلق بخاروها الصهام المصينة نحو السماء، لترافقنا فيما بعد اثنتا عشرة سفينة أخرى طلّت جميعها نطلق سهامها نحو السماء لي تتابع ترحيلنا مي، حتى وصلنا إلى شاطئ أماريتا، فوجدته مكتظاً على امتداده يميناً ويساراً بمحمود الجيش الأماريتي المصحفين مدروسهم اللامعة، يتقدمهم كبار القادة ورجال المجلس الأماريتي، ومن أمامهم تميم الذي ابتسم حين تقدمت بحره واحتصنته دون قول كلمة واحدة.



كنت قد سمعت كثيراً مصطلح «زفاف اضلوري»، لكنني لم أتخيل يوماً أن يمتدح ذلك المصطلح حرمياً على عمل رماسي واحتفالاته التي سبقته بأربعين ليلة كاملة، إذ تفرقت سفن الأسطول الأماريتي على امتداد بحر مينحا مواصلة إطلاق سهامها المصينة وألعابها الدارية نحو السماء كل ليلة، وزينت

البيوت بالرايات الملونة، وفُرشت الطرقات والأزقة بالورد الطبيعية، واستقر
الساحات بموائد الطعام المتشمة بأشهى الولائم التي أعدها أمير الطبلي
في بلاده، وجاءت الفرق الموسيقية بحازقيها وراقصيتها إلى أماريتا مزمز
حذب وصوب لتنتشر في مدنها، حتى قيل إنه لم يكن هنالك موطن تقسم واحدة
في البلاد لا يسمع فيه الموسيقى خلال تلك الأيام، وقبل أسبوع كامل من
الرفاق مُنح كل العاملين في البلاد عشرين قحلة نحاسية منحة زفاف الحرة
وأعزوا من عملهم سبعة أيام كاملة مدفوعة الأجر.

أما القصر الملكي فضليت جدران ساحته الكبرى بهاء الذهب، وشيدت في
أوسطه -بجوار تمثال تعيم- فؤارة كبرى كان ماؤها يرتفع مترافعا لشرارة
الاعتار، ثم جاء اليوم الموعود فاجتمعت الحشود بساحة القصر مهلهل
ومتراقبين مع موسيقى الفرقة الملكية الموسيقية التي تنثر أنوارها في
شرفات القصر وحول الفؤارة، وبين حين وآخر كانت مجانيق الشاطئ تُنقل
نحو الحاضرين كرات قماشية تُفتَح في الهواء قبل سقرصها إلى الأرض
فتساقط منها هدايا كثيرة مختلفة من الورد والأقمشة والقطع النحاسية
والذهبية والأحجار الكريمة، بينما علقت في داخل القصر مئات الحبال
لظلال الصمغ في شكل طيور ونجوم، وفي وسط قاعته الحلوية وُضع جبر
عظمي لذئب ضخم في صندوق زجاجي كبير، رُصفت جمجمة وعظم
جميعها باللون، وُسدت في محجري عينيه حجران من الياقوت الأحمر، عرفا
نوعا بعد أنه جاء بين الهدايا قبل أيام من الزفاف.

كنت أنتظر في غرفتي عندما كانت الوصيفات يتحدثن عن السحر
الأسطوري في الساحة وفي قاعة القصر السفلية، وتطرق حديث بعضهن إلى
مستاء خزانة القصر يهدايا الضيوف وتراكم الهدايا الزائدة في طرقات القصر
حتى أغلقتها من كثرتها، قبل أن يفتحن أفواههن انبهارا عندما أحضرت
«حبال» وصيفتي العقمة مسنان زفافني القضي المرصع بثلاث آلاف قطعة
من الألماس، والذي صممه «تيمور الداني» أفضل مصممي الثياب في السنة
بعدما أوصاه تعيم بصممه في انبؤم الذي عدت فيه إلى أماريتا، مثلما أوصاه

مصنعا آخر من إقليم «إكتاراه» بأن يصنع لي تاج زفافني من الذهب الإكتاري
 الأبيض شعرت بحسدي يرتدع اضطراباً بمض الشيء وأنا أرتدي الفستان
 لكن اضطرابي بلغ سروته حين دلف إليّ تميم مزيه العسكري، وفكّل رأسي،
 فل أن يكسني التاج نفسه، ويعمسك بيدي ويتعمه بي إلى شرفة القصر العظلة
 عن ساحته المكتنفة بالحدود لتعبيتهم، هتفوا باسمه واسمي بهتافات لا
 أكسب إن قلت إنني شعرت بأن الأرض ترتج أسفل قدمي من قوتها، لأدرك في
 تلك اللحظات وأنا أنظر إليهم بينما يمسك تميم بيدي في رفق أنني صرت
 ملكة أماريتا.



مع شروق شمس كل يوم حديد كانت نظرة الحب التي أراها في عيني
 تميم تحمرر أنني لو عشت ألف عام فوق عمري فلن أحد شخصاً يحبني
 مثلاً يحبني ذلك الملك العاشق، ورغم أنني كنت أومن بأن قلب المرأة لن
 يحب أبداً زحليين بنفس القدر، وبعد كل ما كان في داخلي تجاه خالد، صرت
 الآن أومن بكل حوارحي أنني لا أحب ولن أحب شخصاً في حياتي بقدر هذا
 الحب الذي أكنّه لزوحي العزيز

كان مكاننا المفصل في وقت فراغنا بالقصر هي مكتبة الكبرى، تدلف
 إليها مغاكي يناقش كتاباً ما، وكعاسته كان يحب كثيراً الاستماع إلى وجهة
 نظري، ويناقشني بعقلانية كبرى فيها، وإن اقتنع بها ووجد ما يحالفها في
 كتاب ما أنقى تلك الكتاب في بدران المدفأة مثلاً كان يفعل حين دلفت إلى
 القصر للمرة الأولى، وعندما شعر بأنني لا أعرف كثيراً عن تاريخ البلدان
 عيّن لي معلمين: أحدهما اسمه «جُنَيْد» من أماريتا، وآخر أكبر سناً من إقليم
 «مستق» اسمه «خلدون»، كانت مهمة السيد «جُنَيْد» الرئيسية هي تدريسي
 تاريخ أماريتا والبلدان الأخرى جنوب بحر مينجا، فيما اختص السيد «خلدون»
 تدريسي تاريخ بلاد شمال مينجا ومن بينها زيكولا في دروس أسبوعية.



خلال الثلاث سنوات الأولى بعد الزواج واصل تميم حملاته الخارجية لم
بلدان شعاب مينجا للقضاء على ما تبقى من اتفاقيات البشر مقابل السوم.
كان يقود بعضها بنفسه أحياناً، وفي أحيان أخرى كان يوكل قائد جيوش
السيد «جبرو» لقيادة تلك الحملات. بينما اهتمت في تلك الأوقات بشؤون
القصر الداخلية دون أن تدخل من قريب أو من بعيد في شؤون الحكم
لاقتناعي الزام بأنها أمور تحتاج إلى من هو أكثر مني خبرة وتخصصاً.
في السنوات السبع الأخيرة فأعاد تميم جيشه بالكامل إلى البلاد بعدما
من انتهاء العمل بتلك الاتفاقيات، لتمضي حياتنا وحياة شعبنا خلال
السنوات في رخاء وازدهار وحب شعبي لي وصل إلى درجة العشق، حتى
جاءت تلك الليلة وما حدث فيها من أمر غريب، حيث كنت أجلس في قاعة
القصر الرئيسية مع بعض السيدات والسادة من الضيوف الرسميين نصيب
إلى عزف إحدى الفرق الموسيقية التي حضرت إلينا من بيحانا، ولم يكن
نعم معنا في ذلك الحين، إذ كان في طريق عودته من زيارة مناجم الرصاص.
وبمجرد أن انتهى الحفل وغادر الضيوف وصعدت السلالم الداخلية للنصر
مع وصيفاتي حتى فوجئت بهيكل الذئب العظمي المُرصع باللؤلؤ والموضوع
في صندوقه الزجاجي وسط القاعة العلوية منذ يوم زفاني يقفز فجأة من
صندوقه محطاً زجاجه، ويهاجمني على حين غرة. وكاد يفترسني لولا
حارسي الشخصي الذي ضرب جمجمته بسيفه في اللحظة الأخيرة لمنشط
متحرجة بعيداً عن باقي عظامه، تتناثر منها حبات اللؤلؤ متناثرة في أرجاء
القاعة، لتعجباً بباقي هيكله العظمي يزحف مقترباً من الجمجمة ويعبدها إلى
موضعها في مقدمته، وسرعان ما نفخ بفيه اللؤلؤ عن عظامه، ثم ركض
سحوا النائذة المفتوحة على مصراعها، وتفر منها إلى خارج القصر مخلفاً
حبات اللؤلؤ في طريقه، ركعت إلى النائذة ورائه، ونظرت عبرها في نغول
وأنا أبصر ذلك الهيكل العظمي وهو يفر بعيداً، بينما يركض الناس أمامه في
رعب شديد وصدمة لا تقبلها عقولهم، لأعجباً بعدها بخمسة هياكل عظمية
لذئاب أخرى تظهر في الأفق. وتركض هي الأخرى في نفس الاتجاه الذي نزل
إليه ذئبنا، تجاه بوابة المدينة الشمالية.

في رعب شديد وقفت مكاني مجعدة الجسد أحرق نحو الذئب وهي تواصل ركضها كأنها من لحم ودم، قبل أن أسأل الوصيفات المشدوهات من الأخريات بجوارتي إن كان ما أراه حقيقياً أم هلاوس لا يراها غيري، لتجيبني «جبلان» في صدعة:

- إنه حقيقي تماماً.

عندما اختفت الذئب من محيط رؤيتنا، وعاد الحراس ليؤكدوا خلو القصر من أي هياكل أخرى، وخروج الستة هياكل من النوبة الشمالية نحو بحر مينحا ليعبروا إلى داخله دون أن يستطيع الحراس الإمساك بها من المفاجأة التي أصابتهم، عدت إلى غرفتي بقلب يدق فزعاً وأنفاس تلهت رعباً مما حدث. عاد تميم عند منتصف الليل وعلم بما جرى، لم يصدق ما سمعه من حراسه لولا أنني أكدت له صحة قولهم، حينذاك أمر حراسه سريعاً بالانتشار في المدينة والبحث عن أي هياكل أخرى في البيوت وإحراقها من دون الانتظار لمعرفة سر صحوه تلك العظام من الموت وحركتها، وبعد ساعة واحدة اجتمع مستشاريه من رجال المجلس الأماريتي، دعائي هي تلك الليلة لحضور ذلك الاجتماع رغم حالة الاضطراب التي لم تعادرنى، كان جميعهم لا يحذون تفسيراً لعودة تلك الهياكل إلى الحياة، ثم أتى بالرجال الذين كانوا يملكون الهياكل الخمسة التي ركضت هي الأخرى، فقال جميعهم الحديث نفسه: كانت عظام الذئب في بيوتهم منذ سنوات طويلة كنوع من التزيين المنزلي، وفجأة دُفِنَ فيها الحياة وركضت خارجاً.

انتهى ذلك الاجتماع دون أن يصل تميم إلى شيء مفهوم أو تفسير واضح بما حدث، حتى فوجئنا ببعض الوصيفات التي كانت تقف بالشراب جانباً تصرخ فجأة وهي تنظر عبر النافذة، وعندما اقتربت منها أنا وميم توقفتنا متكاتفين تعجب ودهشة لم نشعر بهما في حياتنا من قبل، إذ وجئنا بدراً إضافياً في السماء يسطع بشدة على مقربة من القمر الاعتمادي الذي كان بدرًا أيضاً في تلك الليلة، نظر تميم نحوي بعلامح هلق لم أشهدها على وجهه سابقاً، أما أنا فشعرت بأنني سأسقط إلى الأرض من الرعب الذي احتاحني.

تساءل تميم إلى مستشاريه الذين لم يكونوا قد غادروا بعد إن كان أحدهم يعرف شيئاً عن ظهور تمرين في السماء في الآن نفسه، وقفوا جميعاً وكان على رؤوسهم الضير، حينذاك دلف إليفا السيد «خلدون» مهزولاً يتساقط منه اعرق بفرارة، وأحس للملك تميم، أدركت في داخلي أن هرولقه إليفا في ذلك التوقيت ترتبط بظهور ذلك البدر الإضافي، وكنت محقة، حيث قال لي شغف بمجرد وقوفه أمامنا:

- هل تطرت إلى السماء من النفذة سيدي؟
- قال تميم محذولاً إخفاء قلعه:
- نعم، بدر إضافي في السماء لا نعرف عنه شيئاً.
- قال الرجل في رعب حقيقي:
- إنه شاهد وادي الدناب لقد عاد للظهور من جديد.

خالد

دسمة قماشية محشوة بالقطن في صورة أرنب يمسكها مراهق قصير
الشعر يرتدي حلياً فلاحياً مهترئاً ويقول ضاحكاً:

- اسطر يا موسى، لقد وحدها هذه في سيارة صديقك.

انطلق يعمي إلى السيارة السوداء ذات الحالة الحيدة للغاية رغم طرازها
القديم، وأمد رأسي إلى داخل نافذتها لأتفحص مقاعها الأمامية والخلفية
فل أن أرى عسر زجاجها الخلفي جملاً يركض وحيداً، صاراً جميلين، ثلاثة،
أربعة، والرجال والصبية يلاحقونها محاولين الإمساك بها.
ظلامٌ معاصي.

الطريق المظلم مرة أخرى، وفي يدي العصاح خافت الإضاءة، لا، إنها
شعلة صغيرة، لا، لا، إنها لمة حاز بهتز لهب فتيلها داخل قمعها الزجاجي
بفعل الريح المشتدة، ما رأت أتنم بأبـة الكرسي وآيات أخرى من القرآن،
إضاءة الطريق تزداد أمامي فجأة، أنظر إلى السماء، هناك بدر ساطع، أتقدم
أكثر في طريقي، عاد الظلام مرة أخرى، تباً لتلك الغيوم التي أخفت البدر
وراءها، دقائق قلبي تتسارع مع ظهور بـاءٍ مظلم في الأفق، ليس بيتاً، مجرد
غرفة لا يزيد عرض جدارها عن خمسة أمتار.

- اهدأ يا موسى، سنلقي نظرة واحدة ونعود.

ترددت تلك الكلمات في أذني.

تتسارع أنفاسي أكثر، وأشعر بتشنج في ساني وأنا أواصل التقدم نحو
تلك النذرة، أحبط على ركنتي أمام جداره وأحاول تفحص شيء ما، هل
أكثر.

- هيا يا موسى، عد إلى بيتك.

- لا، انتظر، إن الظلام ينقشع، عاد البدر للزوج من جديد.

أنظر أمامي عبر نافذة صغيرة، هناك آلة قديمة لا أعرفها، صوت أنفاسي
موسى بالخائفة تتزايد في أنفي، ويتمتم إلى نفسه مرتعبا:
- ساعد إلى أهل القرية لأخبرهم في صلاة الفجر عما يحدث في
الطاحونة.

صدي صوت كلمته برن في مسامعي بقوة؛ الطاحونة!

ولا إراديا فتحت عيني وأنا أهرس إلى نفسي:

- طاحونة؟ حونا، نعم هذا ما كان يقصده تماما!

تسارعت أنفاسي وابتلعت ربيقي اضطرابا، وسرت رعشة عظيمة في
جسدي وأنا أحدث نفسي:

- إنه يقوطني لشيء ما.

تلفت حولي في تشوش ونظرت حائرا إلى العدر عبر باب الشرفة، ثم
وضعت يدي على رأس يامن لأكمل تلك الرؤى، ألا أنفي وجدت رأس الفتى
يغلي من الحس على عكس ما عهدناه منذ بنانا وضعه في حوض المياه، لا
أعلم إن كان ما أبصرته من خلاله هو ما تسبب في ارتفاع حرارته إلى تلك
الحد غير المسبوق أم أنها مجرد صدفة، بحثت عن ميزان الحرارة في أرجاء
الغرفة فلم أجده، فبهضت راكضا إلى المجمع الكهربائي في غرفة أخرى
وأحضرت أكياسا من الثلج كنا نعدّها تحسبا لحدوث مثل هذا الظرف، وألقيت
بها في حوض المياه، وعدت لآتي بأخرى، وعلى الرغم من ذلك ظلت الحرارة
مرتفعة، فكرت في إيقاظ مني لعلها تعرف شيئا يفيد، لكنني تراجعت في
آخر لحظة، فإن استيقظت وأيقظت الفتى ولم يعاود نومهما حتى وقت بزوغ

النهار ودحبل البدر فذلك يعني أنني ربما لن أرى بقية ما حدث لموسى حتى يأتي بدر الشهر القادم، وفي ارتباك شديد وقلت مكانى لا أعرف ماذا أفعل. بعد دقائق ركضت إلى غرفة النوم الأخرى، كانت منى مُنكبّة على وجهها غائبة في سُبتها، بحثت سريعاً عن أدوية خفض الحرارة، وجدت زجاجة شراب شه معتلة، أخذتها وعدت بها سريعاً إلى غرفة الفتى حيث فكرت في فتح فمه وسكب الدواء في حلقه إلا أنني خشيت أن يتسرب الدواء إلى نصيبته الهوائية ويختنق، ثم فكرت أن أوقظه ليتناوله ثم يكمل نومه، لكنني لم أفعلها أيضاً إذ وحدثها مجازفة إن استيقظ ولم يعد للنوم، فتركت زجاجة الدواء جانباً ووضعت يدي على معصمه أتحمس حرارته، كانت لا تزال مرتفعة للغاية، ونبضات قلبه متسارعة قوية، نظرت إلى البدر من جديد، ثم نهضت دون تفكير وأغلقت مصراعي باب الشرفة، وأسندت ظهري إليه مُحكِماً إغلاقه وأنا أنظر إلى يامن.

بعد دقائق اقتربت منه، كانت درجة الحرارة لا تزال مرتفعة كما هي. بعد دقائق أخرى شعرت أنها بدأت تنخفض بعض الشيء، أحضرت مزيداً من أكياس الثلج وسكبتها في اعميائه، وانتظرت، نظرت إلى ساعة يدي كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً. هذأت نفسي وقلت:

- لا تزال هناك ثلاث ساعات حتى طلوع النهار، سيصبح كل شيء على ما يرام يا خالد، اهدأ فحسب.

واصلت الحرارة انخفاضها تدريجياً، وفي خلال نصف ساعة تقريباً كانت احمى قد تلاشت تماماً، وعاد حسد يامن إلى حرارته الطبيعية، حائزاً جلست على الأرض ألقت أنفاسي، ثم أسندت ظهري إلى حوض الميائه مواجهاً لباب الشرفة المُلق وعقلي يتساءل: هل أحازف بفتحه من جديد وأواصل تلقي الرؤى مرة أخرى؟ أم ستعاود الحرارة ارتفاعها غير المسبوق وحينها قد لا يستطيع الفتى النجاة؟ هل أكتفي بما رأيته وأنتظر حلول بدر الشهر القادم؟ أم أخطر لعلي أستطيع إنقاذ ابني من غير انتظار كل هذه المدة؟ هل أوقظ منى وأخبرها لعلها تعطيني النصيحة وتحمل معي مسؤولية ما قد يحدث؟

لم أها أن تصدق ما سأخبرها به ولن توافق وستضيع ما تبقى من وقتي
جناب لا جدوى منه؟ ثم تلفت ونظرت إلى يامن مواصلاً تفكيري، حتى استقر
داخلي إلى قرار، فهمست إليه:
- من أجلك يا فتى.

ثم نهضت وفتحت مصراعى باب الشرفة مرة أخرى، ونظرت إلى اليس
ثم عدت إلى يامن ووضعت راحتي على جبهة رأسه وأغمضت عيني من جديد.



صوت صرير مزعج للغاية كان تروس ضخمة صديئة تحتك ببعضها
بعضاً لتدور للمرة الأولى منذ سنوات، يقاطع ضجيجها صوت دقات قلبي
المضطربة بقوة، إنها دقات قلب موسى، أنظر بعيني إلى داخل ذلك البناء،
ذراع الطاحونة الخشبية الطويلة تدور أفقياً كعقرب ساعة، وأشلاء بشرية
تُحط تماثلاً من نادوس الطاحونة لتسقط إلى الأرض بجوارها، «الجود؟»،
أنفاس موسى تكاد تنقطع من سرعتها، وجسده خائر لا يقوى على التحرك
من الصدمة. اندفع الأشلاء من انقادوس يتواصل، والذراع تواصل دوراتها،
وحيطان ما يزحف في أحد أركان البناء، لماذا لا تهرب يا موسى؟

لا يزال ذلك الحيوان يتحرك في خلعة، اهرب يا موسى، موسى لا
يراه، عيناه بافلتان مصدومتان تركزان نحسب على أشلاء الجنود تحرك
يا رجلاً يدور ذلك الحيوان متوارياً في ظل الذراع، لقد توقف عن حركته
مخافة ويضطر إلى بعينين حادثين، لا، إنه ينظر إليك يا موسى، التفت إليه يا
رجل، دعك من تلك الأشلاء الآن، هيا تحرر من صدمتك وانظر إلى ذلك الجاني
ليس قرات الأول، أين اختفى؟ لقد كنت أراه للتو، صرير باب يُفتح لكني لا
أعرف مصدره، تبعه صوت زمجرة قوية بينما لا ترى عيناى الآن إلا الأشلاء،
والرؤوس المقطوعة، صارت زمجرته قريبة للغاية، ألا تسمع تلك الزمجرة يا
رجل؟ أخيراً أنت الآن تسمعها، اهرب إنه بجوارك، أنياب بارزة، وفاه مفتوح
من نخره يستند لانتراسي، ضربة فأس قوية، تلاها عواء مكتوم من نشب

رافد أرضاً تسيل الدماء من رأسه فيما يتعالى صدره ويهبط ببطء إلى أن
سكن تماثلاً، ومعه سكوت صوت الصرير داخل الطاحونة، أطر بعينه عبر
الفتحة الضيقة مجدداً، انطفأ الضياء في الداخل، ولا شيء يُرى وسط الظلام،
لا طاحونة، ولا أشلاء، وخارج غرفة الطاحونة عادت العتمة من جديد، أنظر
إلى السماء بينما تقبض يدي على فراء الذئب الساكن، غيوم كثيفة لم أر مثلها
من قبل، ووراءها اختفى البدر تماثلاً ومعه النجوم، ظلامٌ طويل وكأن ستار
النهاية قد أسدل.

بعدئذٍ غنحت عيني تلقائياً لأوقظ معاً أراه، وعاد ذهني مجدداً إلى غرفة
يامن في صلوة، لأهمس إلى نفسي لاهثاً:

- كانت تلك هي اللحظات الأخيرة قبل جنون الشيخ موسى، خرج الذئب
من تلك الطاحونة وقُتل عام 1921م.



حمداً لله عادت حرارة يامن إلى طبيعتها من حديد مع إغلاق باب الشرفة
وسكبي مزيداً من مكعبات الثلج في حوض مياهه بعدما كانت قد ارتفعت
مرة أخرى مع إستكمال تلقي الرؤى عبره، ومع شروق الشمس حملته إلى
سرير أمه التي استيقظت بعد قرابة ساعتين مندهشة من ذلك النعاس الذي
باهمها على غير العادة، فأخبرتها أنني لم أشأ إيقاظها كي تنال قسطاً وافراً
من الراحة، فشكرتني كثيراً على ذلك. حينذاك حدثتها كاذباً بأنني سأذهب
إلى علي، وخرجت متجهاً إلى شيخ القرية السيد «عبد العزيز حسن»، رجل
سنيي لم يكن يعرفني، عرّفته بنفسه، فرحب بي، سألته مباشرة عما إن
كانت هناك طاحونة في القرية قبل مائة عام، ضمّ شفتيه مفكراً، ثم قال
باسماً إنه لم يعاصر شيئاً كهذا، ولا يتذكر أن أباه حكى له شيئاً عن طاحونة
بالمواصفاب التي ذكرتها له، سألته عن كبار السن في القرية من الرجال
والنساء، عدّ لي ستة أسماء لأناس تتجاوز أعمارهم الثمانين عاماً، دونّتها في
ورقة معي؛ أربعة رجال وسيدتين، مررت عليهم واحداً واحداً، كان جميعهم لا

يعرب شيئاً عن تلك الطاحونة، في أمر جعلني أشك فيما رأيته، وبدأت أفكر
في أن عقلي ترك اوانع ليتشبث بحيات لن نفيد ابني بشيء.
في بيت لسيدة الأخيرة وعند استعدادي للرحيل، غالت ايقنتوا الكبرى نار
السنين علماً عنهما وحدثني أسأل في اهتمام بالغ عن تلك الطاحونة:
- معاذ لا تسأل في نار العمودية القديمة، حيث يعيش أحفاد عائلة
الشوتكي الذين توارثوا العمودية في القرية خلال العقود الخمسة
الأولى من القرن الماضي؟

لم يأت تلك الاقتراح الرائع في بالي مطلقاً، ربعا لأن العمودية انتهت لم
بلنا نبل سنوات صويلة بوجود نقطة شرطة يرأسها ضابط شاب، شكرنا
كثيراً على اقتراحها، ثم توجهت مباشرة إلى بيت يُعرف في قريتنا ببيت
العمودية، وهو بيت كبير ذو طراز معماري قديم قيل إنه بُني في أوائل القرن
عشرين، وعاشت فيه عائلة الشوتكي الذين توارثوا العمودية في قريتنا جيلاً
بعد جيل، وحالياً تعيش فيه أسرتان لأخين من نسل تلك العائلة، كنت أعرف
أحدهم معرفة سطحية، اسمه «لكري» كان يصغرني بعام أثناء الدراسة،
استقبلني بترحاب يختلط بالدهشة من زيارتي المفاجئة، أخبرته صراحة عن
حالة ابني العريضة منذ شهور، وعن احتمالية وجود مَسِّ أصابه، ولم أت بذكر
الشيخ موسى ولا الذئب، قلت فقط: نفي أحضرت روحاني قال إن جنأ عائل
سنوات طويلة في طاحونة علال هنا في القرية قد مَسَّه، نظر لي صامتاً دون
أن أعرف إن كان قد صدقني أم ظنني الجنون، ثم أخبرني أنه لا يعرف شيئاً
إلا عن طواحين الغلال الحديثة في القرية، ثم هاتف أخاه الأكبر ستاً فحضر
إلينا، تحدث بما أخبرته به، فصمت مفكراً هو الآخر، هنالك أصفت شيئاً خطر
في بالي:

- قال الروحاني إن ذلك ابن أحضره جنود سمر أتوا إلى القرية قبل
مائة عام

وقتها قال الأخ الأكبر:
- الهائلة ركبو الجمال!

لمعت عيني على الفور، وتلث:

- نعم، راكبو الجمال.

قال في جدية:

- لقد حكى لي جدي قديمًا شيئًا عن ذلك.

أما أنا فتلثت في رأسي فجأة كلمة جانا، نعم إن كانت كلمة حونا تعني
طاحونة، فلن يُقصد بجانا إلا الهجانة، تابع الرجل:

- انتظر.

ثم غادرنا صاعدًا إلى الطابق الأعلى، وعاد بعد ثلاثين دقيقة تقريبًا وفي
يده تسعة دفاتر قديمة ذات أغلفة كرتونية سمكية، وقال وهو يضعها على
الطاولة أمامي:

- احتنلت عائلتنا بتلك الدفاتر لسنوات طويلة، إنها دفاتر عشرينيات
القرن الماضي باستثناء دفتر عام 1922م لم أعثر عليه، ربما سجل
أحد جدودي شيئًا قد يفيدك.

نظفت سريعًا:

- قال الروحاني إن تلك حدث في عام 1921م تحديدًا.

اندھش الأخان معاً قلته، وشعرت أنهما شكًا قليلًا في أمري، وخاصة الأخ
الأكبر، لكنه طأوعني وأحضر الدفتر المكتوب على غلافه بخط يدوي 1921،
وفتحه وبدأ يقلب أوراقه ورقة ورقة بينما يدق قلبي بقوة، إلى أن توقف الرجل
عند صفحة ما، ونظر في عيني بارتياح أكبر، نظرت إلى الورقة في ترقب.
فقال:

- نذكر هنا بلاغ مُسجل من جدي بأن فرقة من الهجامة أنت إلى القرية في

تاريخ 20 أغسطس 1921م واختفت في اليوم التالي

فكرت في الجمال التي كانت تركز بدون أصحابها، والأشلاء التي رأيتها
في الطاحونة، فقلبت الرجل ورقة واحدة وقال:

- وهذا بلاغ آخر في اليوم نفسه بالعنود على سيارة الخواجة «الفلز جرجس» وريث حوض الأراضي الشرقية. سيارة سوداء اللون أمريكية الصنع، عُثر عليها خرابية ولم يُعثر على صاحبها.

احمر وجهي واستلعت ريتي اضطرانا، كان ذلك ما رأيته تمامًا في الرؤى حينذاك قال الأخ الأصغر:

- دُعت أراضي تلك الخواجة مع قانون الإصلاح الزراعي.

هزنت رأسي بارتباك كبير، فيما واصل الأخ الأكبر تصفحه بالأوراق الأخرى.

لم يُذكر شيء آخر في دفتر ذلك العام عن الجنود أو الخواجة أو الطاحونة. فاستأدت مني أن أبحث بنفسي في أوراق الدفاتر الأخرى لعلني أعثر على شيء يخص تلك الطاحونة، ووفقا، فبدأت أقلب أوراق الدفاتر تباعًا، كانت جميعها بلاغات عن أشياء تخص المزارعين وأراضيهم ومواشيهم فحسب ولم يذكر شيء واحد عن طاحونة غلال، استوقفتني فقط ورقة في نهاية عام 1928م دُون فيها بلاغ عن غرق طفل في التربة الشرقية بالقرب من بين «الدسوقية» الذي بُني حديثًا قبل عام في حوض الأراضي الشرقية، وعندما أطلت النظرة إليه قال «مكري» في غير اكتراث وهو يقرأ المسطور بحينه:

- إنه البيت الذي لا يزال مهجورًا هناك.

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أغمس في داخلي:

- بيت مخز السور!

سألت الأخ الأكبر مجددًا عندما انتهيت من الدفاتر كلها إن كان بإمكان العنود على دفتر عام 1922م فأقسم لي أنه لم يجده، حينذاك هاتفتي الروحاني فتذكرت أنني هاتفته أكثر من مرة صباحًا ولم يُجيبني، فأجبه راحيًا بأن يحضر في أسرع وقت إلى قريتنا، فأخبرني بأنه سيأتي إلينا في خلال ثلاث ساعات، فأعلقت الحط ثم شكرت الأخين وعدت سريعًا إلى بيني

وعقلي يفكر في العلاقة بين الخواجة الذي اختفى في اليوم الذي اختفت فيه
غرفة الهجانة، وحوض الأراضي الشرقية، والطاحونة، والبيت الذي يقع أسفله
مدخل السرداب.



عندما جاء الروحاني حدثته عن الرؤى التي رأيته، وعن استخراجي للذئب
من قبر الشيخ موسى، وعن ثبوت حضور الهجانة إلى القرية فعلاً قبل مائة
عام، لكنني لم أت بذكر بيت السرداب بشيء، استقربت مني التي كانت تستمع
إلى حديثي مع الرجل، وامتقع وجهها غضباً مع اعترافي للرجل أمامها أنني
وضعت لها منوماً في شرابها كي أكمل تلك الرؤى، لكنني لم تتحدث مؤجلة
كل شيء إلى بعد رحيله، دلف الرجل إلى غرفة الفتى وحيداً مثل المرة الأولى،
وخرج إلينا بعد ساعتين ليقول:

- ما زلت عند قلبي، إنه مس قوي للغاية، هذا الجن يحتاج إلى إراقة دماء
غالية أو إعادة الشيء لأصله.

وقتنذ حدثني قلبي بشيء فطنه للمرة الأولى لكنني لم أنطق بكلمة. ثم
تركنا الروحاني وغادر بعدما نال مقابله المادي هذه المرة، فجلست مني
إلى جواربي كي تفتح النقاش بخصوص ما قلته للرجل، فقلت لها بعد شروء
طويل:

- ربما أخطأنا في فهم إعادة الشيء إلى أصله عندما أعدنا الذئب إلى قبر
الشيخ موسى.

ثم بدأت أعد على أصابعي، وأنا أقول:

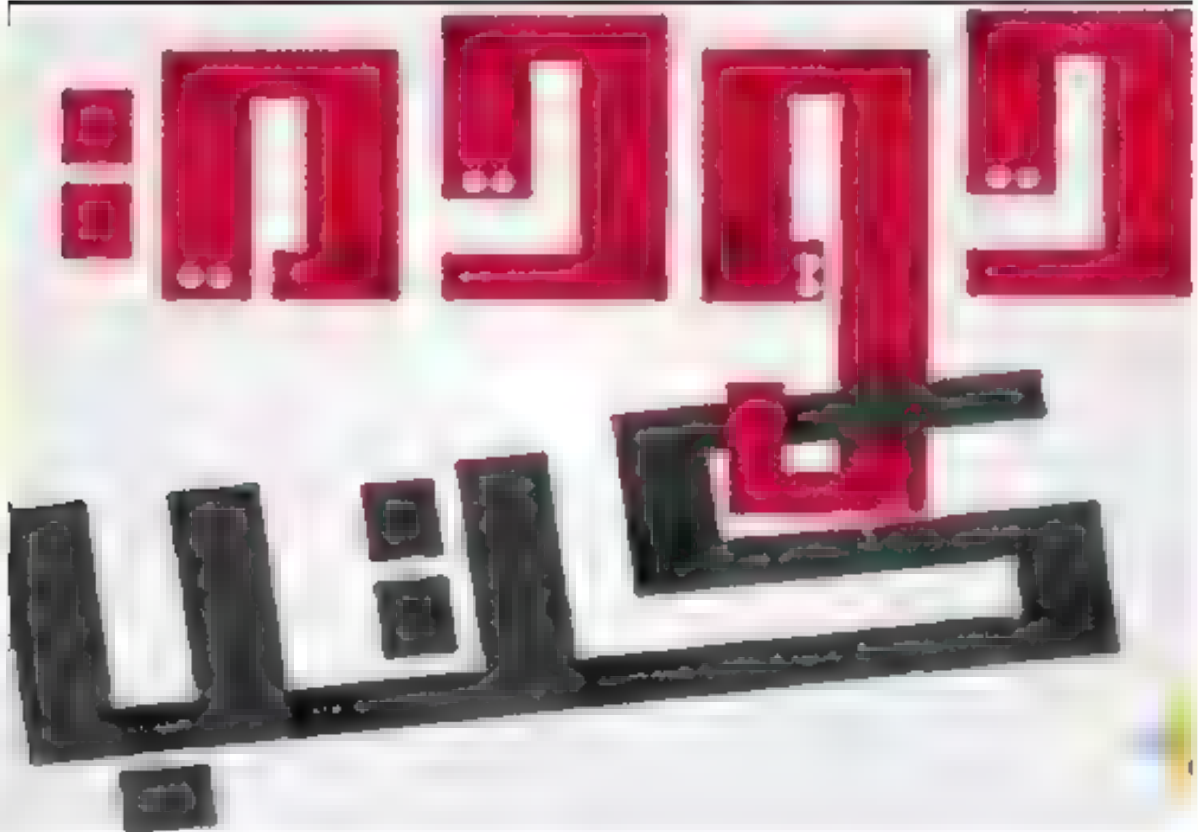
- إذا كان ذلك الذئب قد خرج إلينا من الطاحونة، وإذا كانت الطاحونة
التي اختفت من عالمنا دون أن يعرف عنها أحد شيئاً ترتبط ارتباطاً
وثيقاً بالبدن، وإذا كان سرداب فوريك بُعَاء فقط ليلة الددر من غير
أن نعرف سبباً لذلك، وإذا كان البيت المعجور الذي بدأ في داخله

انسرداب منى، في أرض الخواجة الذي اختفى يوم اختفاء الهبة،
والسحق يقول، إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين انسرداب وبين الظاهرات

وسقطت في عينها وأردعت:
- وإن كانت إعادة الشيء لأصله هي السبيل لتحرير أبتنا من هذه المنة،
فإن يكون ذلك الأصل إلا عالم ما وراء سداب فوديك لا قبر الشعب

موسى

وقتل أن تنشق بكلمة، قلت لها بنبرة حاسمة:
- سأعود بعظام النشء إلى عالم زيكولا لأعيدهما إلى موطنهما.



بوجه قلبي سألتني مني:

- إلى أي مكان ستذهب في عالم زيكولا، إنه عالم كبير به مدن كثيرة.
تهدت ثم قلت:

- لا أعرف، سأستعين بأصدقائي القدامى هناك، وربما بالملك تميم،
سبباعدونني بكل تأكيد للوصول إلى وجهتي المجهولة.
قالت:

- نتحدث وكأنك ستذهب بدوننا.

هزت رأسي إيجاباً، وقلت:

- نعم، إنها مخاطرة كبرى ولا ندري ماذا سيقابلنا هناك هذه المرة، وجود
يا من معي سيثقل من حركتنا، كذلك إن أصابه تدهور مفاجئ في حالته
الصحية قد لا نستطيع إنقاذه هناك، ستبقى معه هنا، على أقل تقدير
قد يستطيع الأطباء الإبقاء على حالته مستقرة في غرف العناية المركزة
إن اضطروا لذلك.

نظرت في عيني حائرة بعينين تلمعان بالدموع، فقلت:

- لا يوجد حل آخر يا مني، علي أن أعيد عظام ذلك الذئب لعل تلك اللعنة
تدل عن ابننا.

لم نقل شيئاً، وجلست على أريكة في جانب العرفة تبكي في صمت،
جلست بجوارها حاضناً كتفيها بذراعي، فمسحت دموعها وقالت:
- مني ستخافون؟

قلت:
- لا أعلم شيئاً عن زيكولا منذ زيارتنا الأخيرة لها، لا أعرف إن بقيت
المدينة كما هي مُغلقة بفتح بابها مرة واحدة في العام أم غُيّرت القواعد
بعد رحيلنا.

ونهضت من جلستي وقلت:
- نزلت السرداب للمرة الأولى قبل اثني عشر عاماً في يوم الثالث من
بيسمبر، كان ذلك التاريخ يوافق عيد زيكولا السنوي، من حسن الحظ
أن توقيت ذلك البلد يُماثل توقيتنا، وأن احتفالاتهم الطارئة بأولاد
الحكام المذكور لا تغيّر من المواعيد الثابتة للعيد السنوي.

ونظرت إلى مُفكرة التقويم الورقية المعلقة على الحائط، وتابعت:
- يتبقى شهران وأحد عشر يوماً على ذلك التاريخ الذي سيوافق أيضاً
اليوم السابع والعشرين من الشهر القمري، ولأن سرداب فوريك لا
يُضاء إلا في منتصف الشهر القمري سأضطر للمغادرة قبل ذلك اليوم
ماثني عشر يوماً وإلا سيفوتني يوم فتح باب زيكولا.

ثم أردفت مطمئناً لها:
- سأخذ كفايتي من الطعام المُجفف والسوائل التي تكفيني تلك الأيام،
كما أن التجار عادة ما يتجمعون أمام باب زيكولا قبلها بأيام، لن أكون
وحيثاً هناك.

قالت وهي ترتشف دموعها دون أن تنظر إلي:
- هذا إن كان توقيتك صحيحاً، كما قلت. لا تدري إن ظلت القواعد هناك
خلال السنوات الماضية كما هي أم تغيرت.
وأضافت:

- لكن إن كان توقيتك خاطئاً..
وسكنت وهي تعض على شفتيها لسفلى كأنها لا تريد أن تنطقها، فقلت:
- ستكون رحلة بلا عودة.

وسطرتُ إلى يامن وتامعت:

- لكن غابتي تستحق المغامرة.

هرُتُ رأسها نافية والدموع تتصاقط على وجنتيها:

- لا أوافق على ذلك، إنه تهور غير محسوب، ونحن في أمس الحاجة إليك هنا.

افترتُ منها ونزلت على ركبتي وأمسكت بيدها في رقة، وقلت:

- ما زال هناك شهران تقريبًا على كل حال، لا تدري ما قد يحدث خلالهما، أريت إخبارك الآن فحسب بما أفكر فيه كي نستعد نفسيًا لما هو قادم. صممتُ لبعض الدقائق، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- لماذا لا نضع تلك العظام يوم البدر القادم في السرداب دون أن نعبر النقطة التي تنهار فيها جدرانها، وترى ما إن كانت ستشكل نفسها من جديد في صورة هيكل عظمي أم لا، فإن فعلتيها فتركها هناك وعد، وأردفت:

- إذا كان السرداب جسر بيننا وبين عالم زيكولا فإنه بذلك ينتمي إلى العالمين، وأعتقد أن وضع الذئب هناك سيكون بمثابة إعادته إلى موطنه دون أن تضطر للذهاب إلى زيكولا.

نظرت إليها مفكرًا ومعجبًا في الوقت نفسه، كانت تلك الفكرة تستحق المحاولة معلنًا، وشعرت بالغباء بعدما لم تخطر في بالي، وقلت متحمسًا:

- فكرة رائعة، سأفعلها يوم البدر القادم.

وأضفتُ بعدما هرُتُ رأسها إيجابيًا في شروء وهي تنظر إلى يامن:

- لكن إن لم تعد العظام ترتيب نفسها فلن أتركها هناك، وسأذهب بها إلى أرض زيكولا يوم بدر الشهر الذي يليه.

بعد أيام من حديثي مع منى ذهبت إلى قبر الشيخ موسى للمرة الثانية
 معزاً كان كما تركته في المرة السابقة مُفلّقا فقط بالطوب المرصوصة
 أسفاً لم ينته إلى عدم وجود كومة من الطين تغطي بابه، أزيلت الطوب
 عنه فسيء، وهبط بمصباحي إلى داخل القبر، وأخذت جوال عظام اللد
 وأعطت رص الطوب من جديد، ثم ذهبت بالجوال إلى المكان الذي دخلته
 من قبل فقلت لك كي أبقى عظام الذئب في حوزتي خشية أن يحدث لي
 مفاجئ يمنني من النصول عليها قبيل نزولي السرداب.



في الأيام التالية لم يحدث أي جديد، وبقي وضع يامن الصحي كما
 عليه نمائاً، حالة جيدة نهاراً وحمى ليلية تجبره على البقاء في حوض البدر
 بدلاً من تلك الأيام ذهبت أكثر من مرة إلى الأراضي الزراعية القريبة من البدر
 للمحور الذي يقبع أسفل مدخل السرداب لعلّي أعثر على أي شيء صلب
 لكني رجعت في كل مرة حاوي الوفاض، كذلك راقبت السماء في كل يوم
 بحثاً عن نجم أسيل لعلّ إشارة ما تصلني، بيد أنه لم يظهر، وعند حارة
 استخراج رؤى أخرى من لغتي نسلت في ذلك تصامماً مع عدم وجود البدر
 السماء.

عندما حل منتصف الشهر القمري وظهر البدر في السماء حركت حرفة
 مياه يامن ليواجهه، كانت منى معي في تلك المرة، اتفقنا على نزع يامن
 عن حبيب الفنى وإغلاق باب الشرفة في حال تجاوز درجة حرارته الثلاثين
 والثلاثين درجة سليزية بميزان الحرارة، وعلى ثلاث مرات تخللتها فترات من
 نداحة وإغلاق باب الشرفة رأيت الرؤى نفسها التي رأيته من قبل بدون أي
 جديد لافتح عيني وأقول لمنى:

- لو انتت موسى إلى الذئب وهو يتسلل داخل بناء الطاحونة، وهزل
 بك ليحدث كل ذلك.

قالت وهي تطلق باب الشرفة:

- لو لم نحضر لنا تلك العظام لما حدث كل ذلك.
مزرت رأسي موانقًا، ثم نهضت من جلستي وقلت:
- سأهبط السرداب غدًا، سأضع هناك العظام تُبيل صورة نوريك
المنقوشة على جداره من دون أن أعبر ذلك الحد، وسأتركها هناك إن
أعادت ترتيب نفسها كما اتفقنا.
أرمات برأسها إيجابًا في صمت.

في الصباح التالي كانت الساعة تشير إلى العاشرة عندما أيقظتني حتى
وقالت:

- إن الطقس غريب للغاية اليوم، تنتشر الغيوم في السماء بكثافة شديدة،
وشاهدت خبيرًا للأرصاد في التلفاز يقول إن ذلك الأمر قد يستمر
لثمانتي وأربعين ساعة.

تحركت نحو النافذة وفتحتها، كانت السماء غائمة للغاية وشبه مظلمة
كأننا تجاوزنا وقت الغروب، فضممت شفتي وقلت:

- إن استمرت الغيوم بتلك الكثافة إلى الين ربما لا يظهر ابدر الليلة.
قالت:

- قد تكون هذه إشارة بعدم نزول السرداب الليلة.

أغلقت النافذة وأنا أقول:

- سأفحص ما عليّ، كنت أنوي نزول السرداب بعد الساعة الواحدة صباحًا
مع شيوخ السكون في القرية، لكن مع تلك الغيوم غالبًا ستمطر بغزارة
اليوم، وسيأوي الناس إلى بيوتهم ليلًا في وقت مبكر، سأذهب إلى
السرداب في وقت مبكر من الليل أيضًا، ليكون لديّ متسع أكثر من
الوقت أنتظر خلاله أي لحظة قد تنقشع فيها السحب عن البدر.
وأخرجت زفيرتي متنهدًا وقلت:

- نسكرتني هذه الغيوم الليلة التي رأيتها في رؤى الشيخ موسى.

ثم طرقت إلى ساعة بنيت وأرنبعت:

- سأتحرك لأخرج جوال العظام في التاسعة مساءً، ثم أتجه بعدها إلى
بيت المهجور مباشرة.

أومأت برأسها في صمت.



في تمام التاسعة مساءً خرجت من بيتي حاملاً حقيبة ظهر سوداء فيها
حاروف معدني وزحاجة ماء صغيرة ومصباح رأس وكمامة كلب بوليسي
كنت قد اشتريتها كي أحمل بها مقدمة جمجمة الذئب كنوع من الاحتراز،
واتجهت نحو رقعة الأرض التي دفنت فيها عظام الذئب، كانت غيوم السماء
لا تزال كثيفة تخفي النور وراءها بينما واصلت الأمطار هطولها، وبما اقتربت
من الرقعة انتى أفصدها دوى صوت الرعد فجأة كقرعة حادة، ولمعت السماء
بالسرق، وحينها لاحظت أن وقع أقدامي بصل في نمطه وقع أقدام الشيخ
موسى الذي سمعته في رؤى الفتى، لمسرت في جسدي رعشة رعب عظيمة
وهكرت في العودة إلى العنزل من جديد، لكنني تعاسكت وواصلت تقديمي
حتى وصلت إلى المكان الذي دفنت فيه جوال العظام وأخرجته، نظرت إلى
ساعتي فوجدتها تشير إلى لتاسعة والنصف، وقتئذ أطلقت السماء رعداً آخر
ولمعت ببرق حديد أظهر البيت المهجور أمام عيني بعيداً، فتقدمت نحوه
حاملة الجوال، وعندما اقتربت من سور القيت بالجوال وحقيبتني إلى الحبة
الأخرى منه، ثم تسلفته في خفة ربما لم تكن لتتواجد لولا فقدانني كثيراً من
ورني مع شهود الإرماق العاصية.

دفت إلى داخل البيت، لم يتغير مطلقاً عن آخر مرة دخلته فيها، ثم هبطت
إلى قبوه، كانت الصحرة الكبرى لا تزال في موضعها، وضعت الجوال جانبا،
وسك قوتي بدأت في زحزحتها، هنالك شعرت بأن وزنها بصاعف عن آخر
مرة حركتها معها، فأسننت ظهري إليها وواصلت بكل طائفتي دفعها راعفاً

محاولاً تحريكها، غير أنها لم تتزحزح بوصة واحدة، حدثت نفسي وأنا أشعر
بخوار قواي؛

- لا، لم أكبر إلى هذا الحد.

ثم زفرت بقوة وزعقت من جديد، وبدأت أدفعها وأنا أصرُّ على أسناني
حتى تزحزحت مسافة صغيرة، دفعت مرة أخرى وأنا أزعل؛
- هيا.

تزحزحت مسافة أخرى، فأمسكت بركبتي لاهناً محاولاً التقط أنفاسي،
ثم جمعت قواي وجمعت بالدفع مرة أخرى، لكنني توقفت حينئذ سمعت صوتاً
من خلفي يقول لي فجأة:

- هل تحتاج إلى مساعدة أيها الكاذب؟

أسيل

في ثلث تصاول تعيم إلى خلدون

. مايا تعمي مشاهد وادي الدئاب؟

إلى خلدون:

. سأروي لك سبدي كل شيء. أعرفه عن ذلك الوادي وشاهده.

دأباز له كي يجلس، فجلس ثم قال:

. لسنوات طويلة ظل الناس يعتقدون أن بحر «تعبير» الرملي هو نهاية

عالمنا شعلاً، لكن الكثيرين لا يعرفون أن هناك مكاناً عُثر عليه قبل

عشرين عاماً تحدث عن وجود منطقة عظيمة اسمها «وادي الدئاب»

عاشت فيونا طويلة شمال تلك الرمال.

حال في نفسي في تلك اللحظة ما أعرفه عن بحر «تعبير» الرملي الذي

بعد عن شاطئ ميسا اشعاني مسافة أربعين يوماً إن ركضت حصان بأقصى

سرعته دون توقف، وما سمعته عن استراحة عور أي كاش هي خطوة واحدة

في رماله المتحركة دون أن يعوض إلى باطنها، قبل أن أسنه إلى ما يكمله

خلدون وهو يسطر بعيداً نحو المدر الأكثر سطوتاً في السماء:

. حتى هذه الليلة كنت أظن ما قرأته في ذلك الكتاب قصة خيالية ألها

صاحبه سسكة فريضة، لكن ما حدث قبل ساعات من نهوض عظام الدئاب

وظهور المدر الثاني في السماء قد دُكرت في تلك القصة كنموذج لنهاية

عالمنا انتقاماً مما حدث في وادي الدئاب قبل سنوات طويلة

سألته على الفور:
- أي نبوءة؟! وماذا حدث في ذلك الوادي؟

أجابني:

- في ذلك الوادي استطاع البشر التعايش مع الذئاب في بسلام لم يشهد
عالم البشر من قبل لدرجة وصلت إلى استئناسها، مستخدمين قوتها
في الزراعة وجر العربات لنقل الركاب والبضائع، وفي أحروب كفرن
محومية رئيسية تنفذ أوامر القادة تنفيذاً مثالياً، فهناك لا تتعجب
سرت في أحد الشوارع ورأيت جماعة من الذئاب تتجول حرة بالقرب
منك دون أن تتعرض لك بأذى، بل ستجد الأطفال يلعبون مع الذئاب
وحرائها دون ذرة خوف واحدة كأنهم يلعبون قطاً منزلياً، سترى
طفلة تركب صهوة نئب يتبحر في مشيته بها كي لا يوقعها، وستشعر
ذئباً تحمي قطعان الأغنام والماشية التي ترعى في المروج هناك،
وتنام بينها ليلاً، ستجد الجزارين في المدن والقرى يطعمون الذئاب
من ذبائحهم في أطباق خاصة دون إهانة بإلقاء الطعام بعيداً، وعلى
امتداد أسوار عاصمة الوادي التي تسمى «براقيا» ستجد تماثيل الذئاب
منحوتة من المرمر الأبيض جنباً إلى جنب مع تماثيل ملوك الوادي
وقائمه

ثم صمت لحظة وتامخ:

- قال مؤلف الكتاب إنه لا يُعرف تحديداً منذ متى بدأ هذا التعايش بين
البشر والذئاب، لكنه أشار إلى وجود نقوش قديمة على حائط صخري
شامق يتوسط براقيا يُسمى «حائط الرؤى» يتحدث عن السلام بين
البشر والذئاب، قال إن عمر تلك النقوش يتجاوز الألف عام، وإن
«المسلمين» من قاموا بنقشها بأقلامهم الفولاذية.

العلميون هم الجسر الثالث الذي عاش في تلك المملكة، أناس يستطيعون
اتصال المخاطر مع الذئاب، حيثهم بشرية مثلاً، بيد أن شعورهم
حزيرية بنية مائلة إلى الصغرة تشبه قراء الذئاب، وحاسني سمعهم

وشمسهم قوينان للغاية، أنيابهم طويلة بعض الشيء، وعيونهم صفراء
 اللون تلمع في الظلام، لكنهم عميان لا يُبصرون، سأخبرك عنهم لاحقاً
 سيدي باستفاضة خاصة أن أولئك القوم الذين لم يتجاوز عددهم الألفي
 ودرقل مائة عام كانت لهم المكنة الكبرى في ذلك الوادي بعدما كانوا
 حقة الوصل بين الشر والذئاب على مدى قرون طويلة، لكن دعني الآن
 أحرك أن القوة التي أضافتها الذئاب لتلك المملكة إثر ذلك التعايش
 جعلتها أعنى بلدان شمال بحر «قُعيرو» الرملي وربما العالم بأسره
 بعدما انصاعت كل البلدان حولها للشروط التي اعتانَ ملوكها فرضها
 بحسب الأموال والحزى مقابل تركهم في سلام، حتى أن كهوف الجبال
 في ذلك الوادي كانت تنضح مقطع الذهب من شدة امتلائها به، وخزائن
 الطعام والشراب كانت تفسد من فيضها تتمتلئ من جديد بأخرى في
 ساعات، والشوارع كانت تُعبد بالعرمر كل ستة أشهر، وأعناق الذئاب
 والخيول كانت تُزين بأطواق من الذهب فيما يُزين الرجال والنساء
 أعناقهم بعقود من الأحجار الكريمة، وعلى ضفاف بحيرة شامعة
 المساحة هناك تسمى بحيرة «جمارة» شُيِّدت بيوت العامة من الأخشاب
 المرصعة بالذهب والفضة، يفصل كل بيت عن البيت الذي يجاوره مرج
 فسيح ترعى فيه الأغنام والذئاب على حد سواء، كل ذلك على مرأى من
 شاهد الوادي، ذلك البدر الساطع الذي كان يُزين سماء ذلك البلد دوناً
 عن غيره من البلدان الأخرى، والذي سُمي بذلك الاسم لكونه شاهداً على
 السلام بين البشر والذئاب، وعلى مدى الزمان اعتبره أهل ذلك البلد
 الضمانة الرئيسية لاستمرار خضوع الذئاب لهم معتقدين منذ القدم
 بوجود تواصل بينه وبين الذئاب، وأكد اعتقادهم فيما بعد الملديون
 الذين دونوا على حائط الرؤى بعض الرؤى التي بثها الشاهد في أنهان
 الذئاب، واستطاعوا رؤيتها هم الآخرون عبر التخاطر الذي يحدث بينهم
 وبين الذئاب أو بينهم وبين الشاهد مباشرة، لكن ما أعطى ذلك الشاهد
 نفوذه الحقيقي هو كونه المتحكم في فتح العابرات الست التي توجد
 في ذلك الوادي.

ثم رشت رشفة من كوب ماء أمامه، فسألته:
- أي عابرات؟

فقال:

- وفق مؤلف ذلك الكتاب، توجد في وادي الذئاب ست بوابات تصل عالمنا
بأزمنة وعوالم أخرى، أربعة منها توجد في اتفاق متشعبة بأعماق
جبال انغرب هناك، يتبدل مكانها كل دورة قمرية مثل ممرات مضارب
الريكتا، كانت الذئاب وبعض الملبدين فقط من يستطيعون الوصول
إليها عبر حاسة شمهم وسمعهم القوية، وبوابة توجد في غابة كبرى
هناك تسمى «غابة الزافور»، وبوابة توجد في أعماق بحيرة «جمارة»،
ولم يذكر صاحب الكتاب ما إن كانت هناك بوابات أخرى غير تلك
البوابات في عالمنا.

حينذاك فكرت في سرداب فوريك، وأعتقد أن تميم فكر في الأمر نفسه.
لكننا لم نقاطع الرجل الذي تابع:

- كانت بوابة واحدة من تلك البوابات تُفتح مرة شهرياً حين يلتقي البدر
في السماء فقط؛ بدر ذلك لوادي أو شاهده الساطع على الدوام وبدر
قمرنا الاعتيادي الذي يضيء عالمنا بأكمله، وتُخلق بعد ليلتين حين
يتناقص بدرنا ويصبح أحذب متناقصاً مكملًا دورة القمر الشهرية،
وفي الشهر الذي يليه تُفتح بوابة أخرى، وهكذا تُفتح أبوابنا تباعاً
على مدى ستة أشهر متتابعة في دورة لا نهائية.
ثم تنهد وأردف:

- وفي الليلتين اللتين تُفتح خلالهما إحدى عابرات الجبال كانت حمايتنا
من غزاة الأرمنة والعوالم الأخرى مُوَكَّلة إلى فرقة من الذئاب تسمى
«ذئاب العابرات»، تظل تعوي طوال الليل في خوف الجبال أمام
العابرة مانعة ومهاجمة أي دخيل يأتي عبرها، أما عابرة الخانة فلم
تحتج إلى حماية، حيث كانت تؤتي كل ستة أشهر بقطعان من آف
الحموس البري ولما عز والأيائل التي تكفي لإطعام ذئاب الوادي حتى
realme

موعد فتحها مرة أخرى كركن أساسي في العهد الذي تم قديمًا بين
الذئاب والبشر والشاهد من أجل ألا يتعدى أحدهم على الآخر، أما عابرة
البحيرة فاختصت بالحفاظ على منسوب مائها العذب دون نقصان
آنية بأجود المياه من العوالم الأخرى، ليعيش هكذا الوادي في سنوات
طويلة من الرخاء والترف والازدهار، حتى حدثت الكارثة الكبرى قبل
ثمانين عامًا من تأليف ذلك الكتاب، أي قبل مائة عام من اليوم، عندما
فُتحت إحدى عابرات الجبال مع التقاء البدرين وتسلل عبرها بعض
المصوص من عالم آخر قبيل زوال الليل، ثلاثون رجلًا تقريبًا يحملون
أسلحة غريبة تُطلق ذويًا شديدًا، كما رآهم بعض المصلين في رؤياهم،
هاجمتهم الذئاب ومزقت أجسادهم عدا لص واحد حاول الفرار والعودة
إلى حيثما أتى، فلاحقه أحد الذئاب متجاوزًا العابرة إلى نصفها الآخر
ومستغرقًا وقتًا أطول لعودة إلى الوادي، فأغلقت العابرة مع زوال
الليل وهو في داخلها، لم تكن الحالة الأولى التي تحدث من هذا النوع،
ولطالما اعتاد الذئاب عطاردة المتسللين عبر تلك العابرات والعقاء فيها
إن أغلقت متغذية على لحوم طرائدها حتى تُفتح مرة أخرى، فتعود
إلى الوادي من جديد، لكن ذلك الذئب لم يكن ذئبًا عاديًا، إذ كان آخر
نسل ذئاب «صامون» ذات المكانة الأسمى بين ذئاب ذلك الوادي، والتي
تدين لها الذئاب ببقيائها حية قبل آلاف السنين بعدما قادتها بأمان عبر
العبارة إلى عامنا مع تدرة الخداء في موطنها القديم، ويُقال إنها من
أنعت عيد السلام مع البشر أسفل ضياء شاهد الوادي، بذلك فُتحت
العبارة ذاتها مرة أخرى بعد شهر واحد في غير ترتيبها من أجل إعادة
ذلك الذئب إلى موطنه، إلا أنه لم يعد، بل حدث أن أطلقت الذئاب عواء
جماعيًا فجأة استمر الليل بأكمله، تبعه هياح وتمرد غريب منها دون أن
يفهم الناس سببًا لذلك، قبل أن يُفاجئوا بمهاجمة الذئاب لهم، حتى قُتل
في اليوم الأول أكثر من ثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل من أهل الوادي،
قبل أن يتخذ البقية ملاجئ ويحتموا منها.

وأخرج زفيوره متنهذا ثم أوقف:

- لأيام كثيرة استمر عواء الذئاب وتمردها وهجومها الوحشي على
شخص يظهر أمامها، حتى أعلن أحد الملدين عن رؤية شهابية
تخاطره مع ذئبه، وقتئذ عُرف أن بدرًا في عالم آخر شهد قتل بشر
لنفس «صامون» بوحشية، ليراه شاهد الوادي فيما بعد، إذ تنضم
الآثار في العوالم جميعها معًا، وكما روى مؤلف الكتاب، يشهد
الوادي ما حدث في أنهان الذئاب لتراه، فأعلنت الذئاب تمردًا على
البشر.

حاول أهل الوادي تقديم فدية للشاهد عما حدث، لكن الذئاب لم تنس
بها، وأصررت على الانتقام لسبيل عائلتها السامية، فما كان من أولئك
القوم إلا العزم على قتل تلك الضواري حماية لأرواحهم، فانتظروا
فنج عابرة الغابة التي تتدفق عبرها قطعان الفرائس وتجتمع الفئران
هناك من أجل اصطليادها، وبينما كانت الذئاب تطارد فرائسها،
حنود ذلك الوادي بإطلاق كرات اللهب نحو الغابة من جميع الاتجاهات
لتلقيمها النيران بما فيها من ذئاب وحيوانات برية، لتقوم فيما بعد
الحرب الكبرى التي استمرت في كُرٍّ وفرٍّ بين البشر والذئاب هناك قرابة
ثلاث سنوات، والتي قُتل فيها ستة عشر ألف جندي، وقُتل الذئاب
جميعها! قرابة مائتي ألف ذئب، وسُبق فيها جميع الملدين باعتبارهم
من فصيلة الذئاب.

مع موت آخر الذئاب الموجودة في الوادي اختفى الشاهد من السوء
لم يهتم الناس هناك بذلك لاعتين السنوات التي عاشوها أسفل ضبته
لكنهم نهضوا ذات صباح ليجدوا نبوءة محفورة على حائط الرُّبْدِ
تقول إن الشاهد قد وعد الذئاب بنهوضها من جديد ولو بعد ألف عام
استطاع أي بدر رؤية عظمة واحدة من عظام ذئب «صامون» المقتول
حيثما سيعاود الظهور مرة أخرى وسينهض من الموت كل ذئب يصطاد
ضياؤه، لينتقم أشد انتقام من كل بني الإنسان.

بحث الحنود هناك عن الملدي الذي نقش تلك الرؤية، لكنهم لم يعثروا عليه، ومع الخوف الذي انتاب الناس هناك مما ذُكر في تلك النبوة أمر منهم بتحميم عظام الذئاب والملديين الموتى من كافة بقاع تلك المملكة ودفنها في وادي رملي يوجد بين جبلين عظيمين بأقصى الشرق، وتمضية رماله بطنية سمكة من القار الأسود المخلوط بالرمال حتى لا يستطيع ضوء الشاهد الوصول إلى العظام إن صدقت النبوة، ليُسمى ذلك المكان منذ ذلك الحين بالوادي الأسود أو وادي الذئاب المنسية.

ثم مضت السنوات تباغًا دون أن يظهر الشاهد في السماء أو تُفتح العبارات، فقل منسوب بحيرة «جمارة» عامًا بعد عام، وعلى إثر ذلك قل الخير في الوادي ونضبت أرضه وثرواته مع جفاف البحيرة تمامًا، كمك صار الوادي صيدًا سهلًا للممالك المجاورة التي تمردت عليه مع فقدان جيشه قوة الذئاب، لتحتله مملكة أخرى اسمها «تبييانا»، وتجعل أهله الذين عاشوا قرونًا طويلة في ترف وبذخ المصدر الأول للعبيد رجالًا ونساء في شمال بحر «قُغير» الرملي، ليزوقوا أقصى أنواع الذل والمهانة.

ثم صمت، وأكمل بعد قليل كأنه تذكر شيئًا:

- تحدث المؤلف أيضًا في نهاية كتابه عن وجود معر ضيق متعرج يوجد بين رمال بحر قُغير المتحركة، ظهر ذلك المعر مع سطوع ضوء الشاهد عليه في نهاية حرب الذئاب كي يفر من يستطيع من الملديين والذئاب عبره، حيث لا يستطيع أحد رؤيته دون ضوء الشاهد، اعتقد أن الذئاب التي ظهرت هياكلها في أماريتا أو في البلدان الأخرى قد سلكت ذلك الطريق فرارًا من الوادي، وقتلها الناس في بلدانها، خاصة أن مؤلف الكتاب تحدث عن تنبعه عظامًا بافئة تناثرت على امتداد ذلك المعر حتى استطاع الوصول إلى جنوب بحر «قُغير» دون أن يفصح عن أي معلومات عنه.

ثم اختتم حديثه قائلاً:

- لا أعرف ماذا سيحدث لاحقًا مع ظهور الشاهد وعودة العابر للحدود من جديد، لكنه لن يكون خيرًا أبدًا لكل من هو بشري.

صمتنا جميعًا، كان ما سمعناه يتجاوز قدرة عقولنا على استيعاب حقيقي، لكن مع معرفتي بوجود ناقل مكاني مثل سرداب فوديك روبرت أمام عيني من صحوة هيكل الذئب ومهاجمته لي وهروبه مع هيكل ليز الأخرى إلى خارج المدينة وذلك البدر الإضافي في السماء، لم يكن هناك شيء في داخلي في صدق تلك القصة، وأعتقد أن تعيم فكر في الأمر عبث وجدته ينهض ويتحرك نحو النافذة ويُطيل نظرتي إلى شاهد وادي النصارى السماء، قبل أن يلتفت إلى قائد جيوشه «جرير» ويقول:

- اعطِ أمرًا بعودة كافة السفن إلى شاطئ أماريتا، وبإدخال كان الحبر والصيادين إلى داخل أسوار المدينة.

ثم جلس مستغرقًا في شروده، حيثذاك سألتُ خلدون:

- هل ذكر الكتاب أي شيء آخر عن كاتب تلك النبوءة أو أي ملأ ياب؟
هز رأسه نافيًا، فقلتُ:

- إن كان هناك نسل ناجٍ منهم فربما يكون لهم الدور الأكبر في العر القادمة.

أومأ برأسه إيجابًا متفقًا معي، فيما واصلتُ تصيم استغراقه في شروده.

وادي الذئاب: قبل واحد وعشرين عامًا:

نوح

كنت في الرابعة من عمري عندما سمعت صرخات الخالة «ريحانة» المتتالية في منتصف الليل لتعود من بعدها حالة من الهرج والمرج في بيتنا، إذ نهضت أمي من نومها وارتدت ثوبها على عجل وهولت خارجة نحو البيت الذي يجاورنا وهي تقول لأبي:

- يبدو أن ريحانة ستفعلها الليلة.

ليجيبها في غير اكتراث:

- أراهنك أنه إنذار كاذب ككل ليلة.

حاولت حينها اللحاق بأمي، لكن أبي أوقفني بزعيقة ونهرني غاضبًا:

- ماذا ستفعل هنال؟ إنه شأن يخص النساء، عد إلى فراشك، ستعود أمك

بعد قليل خاوية الوفاض مثل كل مرة أزحمت فيها تلك المرأة خامنا.

عدت منزويًا إلى غرفتي وقتها، وحلست بجسدي اضئيل وراء الباب أنتظر أمي وأنا أستمع إلى الصرخات التي استمرت لوقت أطول من أي ليلة مضت، حتى سكنت أخيرًا، لكن أمي لم تعد إلى دارنا بعدها كما اعتادت أن تفعل بعد سكون الصراح كل ليلة، حتى أبي بدا وكأنه تعجب من تأخرها فسمعت صوت بابه

يُفتح، ويخرج منجها إلى بيت جيراننا، فتسللت أنا الآخر من وراءه دون أن يراني ودلفت خلفه عبر باب بيت الخالة ريحانة الذي كان مفتوحاً على مصراعيه نفوح من داخله رائحة قلق وريبة كانت تطهران بوضوح على كافة وجوه الحاضرين الذين بدوا وكأنهم لم يلحظوا حتى وجودي مع ارتباكهم الشديد.

كان في الردهة وقتها أربعة رجال غير أبي وامرأتان، جميعهم من حبراسا. وفي غرفة جانبية كانت أمي تقف مشيرة أكامها بجوار سرير تستلقي عليه الخالة ريحانة التي انطبع على وجهها شيء من الحسرة، بينما تقف ثلاث نساء في جانب الغرفة بالقرب من فراش صغير تحملتن نحوه بشيء من الدهشة، واصلت تسلي حينها ووقفت بجوارهن، لأجد على ذلك الفراش لثة قماشية لا يظهر منها إلا رأس وضيق يموه كالقطة، بجانبه سراج ناري، مدت إصبعي والامس وجهه وهبطت به من جبهته إلى أنفه إلى شفتيه فأطبقتها عليه ماضاً له، فضحكت، فصرخت في أمي:

- نوح، ماذا جاء بك إلى هنا؟ أخرج.

حفل جسدي، وركضت إلى الخارج حيث كانت الهمهمات والنفاسات الحادة لا تزال متواصلة بين الحاضرين، ربما كانت أكثرها وضوحاً بالنسبة لي هي جملة أبي حين قال:

- لو علم الجنود بأمر هذه المولودة سيحرقون الضيعة بأكملها.

ليقول رجل آخر اسمه السيد «راشده»:

- قد نكون مخطئين، لم يرَ أحد منا ملدياً من قبل، وكل صفاتهم نرأنا في الكتب وحسب.

فنخر له أبي، وتابع:

- ومنذ متى يُولد البشر بأعين صفراء؟ إنها ملدية لا محالة، ولا بد أن بهلول وريحانة يخفيان شيئاً.

كان العم «بهلول» زوج الخالة ريحانة يقف في جانب الردهة يحمل شاردًا في السماء عبر الشرفة، قبل أن يقطع أبي شروده زاعقاً فيه:

- أهنك تفسير اللون عيني الفتاة الأصفر يا بهلول؟

ليلتفت وينظر إلى الحاضرين بأعين زائفة تلمع بدموعها، ويهز رأسه نافيًا.

لم أعرف ماذا دار بين الرجال بعدها، إذ خرجت أمي وجرتني من يدي لتعود بي إلى بيتنا، بينما ظل أبي طوال الليل مع الرجال يتناقشون مع العم بهلول بشأن مولودته الجديدة.

هكذا وصلت «ناي» إلى الدنيا في العام الخامس والسبعين بعد جفاف بحيرة «جمارة»، أخبرتني أمي ذات مرة أن الخانة ريحانة سمّتها بذلك الاسم لولعها الشديد بالموسيقى، قبل أن يأمرنا أبي حينها بوقف الحديث عنها محذّرًا أمي من عواقب ذلك الفعل.

لم أفهم في طفولتي المبكرة سر عصبية أبي المستمرة مع أي حديث يخص ناي إلا بعدما كبرت بعض الشيء، وأدركت أن عيني ناي الصفراوين لا تعاطفًا عيانًا في قريتنا، وإن لم يمثل ذلك أي فارق لي، حتى عندما حاول أبي مرارًا وتكرارًا إثنائي عن الذهاب مع أمي لزيارة خالتي ريحانة في بيتها الجديد من أجل اللعب مع الفتاة وإطعام الطيور معها، لم يفلح في ذلك قط، وعندما منع أمي من تلك الزيارات كنت أذهب بعفري بعدد حفت الطريق إلى هناك عن ظهر قلب رغم سني الصغيرة، إذ كنت أحب مرافقة ناي مد صارت تستطيع الركض، حتى السيد «بهلول» الذي لطالما وبختني على الذهاب إلى بيته من أجل ناي رضخ في النهاية مع متابرتي وتصميمي على مصادقتي حلفتة بشرط ألا نتجاوز سياج بيته الخشي، لتمر سنواتنا معًا صديقين لا ثالث لهما، أو تستطيع القول حبيبين لا يستطيع منلوق تفريقهما؛ نوح وناي.

ن أن يراني
رأعيه تفوح
الحاضرين

ن جيراننا
تلقني عليه
قف ثلاث
شيء من
واش لغة
مددت
أطبقيها

نقاشات
بالنسبة

رأناها

د أن

ملق

سنة بعد أخرى هبمت سر للقلق الذي انتاب جيراننا ليلة ولادة ناي، ولكن
هنا يعرف ما حدث في وادينا قبل قرابة ثمانين عامًا من تلك الليلة، تلك المرّة
التي دارت بين حدودنا والذئاب، والتي على إثرها قُتل كل الذئب وشق كل
الملايين، وحلّ الحفاف في الوادي. ليلًا زمننا الفقر والجوع من وقتها ونرضى
بالعناات الذي نحصل عليه من التبينانيين الذين احتلوا بلدنا وجعلوا منها
مقاطعة حيوية لبلادهم موهدين لنا حصصًا ضئيلة من الحبوب كانت تنقلها
إليها حيودهم بعد كل موسم حمراء مقابل أعمال شاقة للغاية تكفل بها رجال
واديها، أعطىها ينطق منقطع الصخور والمرمر من الحبال وشر الأشجار من
غابة الراقور ونقل أخشابها إلى هيتاء، عاصمة بلادهم، وهذا شيء قد نتحدث
عنه مستقلة، لكن دعني أرجع الآن إلى ليلة ولادة ناي والتي عرفت بما يار
فيها بعد سنوات على مرورها عندما تطرق حديثنا أنا وأمي وأمي إلى ناي
وقال أبي:

- لم أظن أبدًا تلك الليلة أن تلك الشيطانة ستصل إلى عامها التاسع.
ولما غضبت من وصفه لها بذلك الوصف، ربت أُمي على مخذي، وقالت
لأبي:

- إنها بشرية مثلنا، وكنتم ستقتلوننا بسبب غبايتكم الحادة.
فقال بغرور:

- ما زلت عند رأيي، إنها ملدية ولو أنكر أبوها ألف عام.
سألت أبي حينذاك مستنكرًا:

- هل كنتم تريدون قتل ناي حقًا؟!

هز رأسه إيجابًا، وقال:

- نعم، فكرنا في ذلك ليلتها بعدما رأينا عينيها خوفًا من بطش الحنود
والناس بتاء، لن ينسى هذا البلد ما حدث قبل جفاف البحيرة، ولن
يتحاشوا شخص واحد هنا نبوءة حائط الرؤى.

كنت أعرف كل شيء بقصده أبي ملكي مثل كل الأطفال في عمري وقتها
وان لم أقتنع بكثير من تفاصيل الحكايات التي نشأت على سماعها، فقلت:
- حتى إن كانت حكايات ما قبل الحفاف صحيحة، فيبقى الملديون بشر
مثلنا ولا أجد سبباً لقتلهم في تلك الحرب.

خبرني أبي بصبايته قائلاً:

- الملدي نصف بشر ونصف ذئب.

ثم زفر وتابع متذكراً:

- لولا أننا كنا في حاجة ماسة إلى عمل بهلول لما تركنا تلك الطفلة.

دار في بالي عمل العم بهلول ومميزته الغريبة التي أنقذت ابنته، إذ كان
مُرِيلاً للفصلات، يحمل بعربته الخراء من آبار البيوت الخلفية في قريتنا
والقرى المجاورة وينقلها إلى وراء جبل يبعد عنا عشرين ميلاً، فيما تقوم
زوجته الخالة ربحانة عربة أخرى تحمل المياه النقية من جدول صغير يقع
داخل الغابة إلى قريتنا، ربما كان هناك من يعوض عمل خالتي ربحانة، لكن
الوصمة التي كان يحملها عمل العم بهلول جعلت من الصعوبة وجود بديل
له في القرية، لذا عندما أقسم للرجال أنه لا يعرف سبباً للون عيني طفلة
العرب وأسر عى حمايتها مهما قرروا أن يفعلوا، حمس أحدهم للباقيين إنهم
إن قاموا بإبلاغ الحنود عن الخطة سيؤدي ذلك إلى اعتقال الأسرة بأكملها،
وحينها سيتوجب على أحدهم القيام بعمل بهلول العقيب وإلا غرقت القرية
في الدونية والأمراض والرائحة الكريهة مع تراكم فضلاتهم في آبار بيوتهم
الخلفية، وقتها أصر أبي على فحص الرجال لجسد عمي بهلول لرؤية ما إن
كانت به أي صفة من صفات الملديين، وسأل النساء أن تعمل الأمر نفسه مع
الخالة ربحانة، وعندما لم يجدوا صفة واحدة في أحدهما زعموا فيما بينهم
أن سبب تفاضيتهم عن الإبلاغ عن الفتاة هو عيش الرجل وزوجته بينهم لأكثر
من عشرة أعوام دون أن يمدو عليهما شيء مريب، واستفروا في النهاية على
صح الطعنة ستة شهور أخرى للتأكد من الأمر بفحص جسدها من جديد.
منغيبين على شيتين الأول: إخفاء الأمر عن باقي سكان القرية، وأقسموا على

ذلك، يطمئنتهم بوقاً ما وجود بيت العم مهلول على أطراف القرية الغربية من
ماحية القامة مما يفلل كثيراً من المتحولين هناك، والثاني؛ قتل الفتاة إن طهر
على جسدها صفة أخرى تؤيد استعاضها للعديدين أو إسلخ الحنود عنها، حتى
وإن تكفهم ذلك فعدان مُزمل فصلاتهم، إلا أنهم لم يتجاوزوا الشهر الأول حتى
ظهرت البيمة المعطى التي أكدت أن ماي بشر مثلاً، إن الطفلة ترى بعينيها
والمطويون كانوا عبياتاً، وشهر وراء آخر ست شعرها الناعم الأسود الشوي لم
يشبه فراء الذئب، وقتئذ صرخت أمي إلى أبي:

- انتحاروني إلى مريد من الأسرة على كونها بشرية صاة حفظها بلور
عينها؟

ليلوذ أمي بصمته في غضب شديد، حتى عندما شكك في كون أنياب الفتاة
طويلة بوقاً ما، أخذته أمي من يده، ومرت به على بيوت القرية لتربية مغفر
الرجال والنساء الذين تطول أنيامهم قليلاً ومن بينهم زوجة أخيه، مؤكدة
أن الفتاة صاء، فابتلع لسانه هو وكل المشككين الآخرين، لكن عسي بهني
أصر على الانتقال بأسرته إلى بيت خشبي جديد بناه على بعد ثلاثة أميال
داخل غابة الرافور، لتكمل ماي حياتها هناك وإن خُرمت من عبور سباح إلى
البيت بعدما لم يضمن أبواها وشي ضعاف النفوس من أهل القرية السير
استغلوا حاجتهما إلى كتمان سرهما، وأعلنوا أنهم لن يدفعوا مقابلًا لبعثهما
بإزالة الفضلات وإحضار المياه النقية ما دامت ابنتهما على قيد الحياة، أيضاً
أصرّت الخالة ربحانة على تسريحة شعر واحدة لناي تسقط فيها مقدة
شعرها الأسود إلى منتصف وجهها ليخفي عينيها، وكذلك لم تسمح لأي امرأة
من أسر القرية مزيارتهم في بيتها الجديد باستثنائي أنا وأمي، ربما لأن لي
كانت أكثر الداعيات للطفلة، ولا ينسى الناس داعميهم وقت البحن أبناء، لنا
لم أتوقف عن زيارتهم كل يوم قاطعاً تلك الأميال من أجل مرافقة الطفلة التي
كانت بالنسبة لي أجمل ما في ذلك الكون، عيناها صفراوان؟ وماذا بهم في
ذلك، صار الأصفر لوني المفضل، بل صار كل شيء تحبه في مقدة الأشياء
التي أحبها. قالت لي ذات مرة عندما بلغت الثامنة:

- نوح إنك جميل-

وقتها شعرت بقلبي يدق لرحا كأنني امتلئت الكون بأكمله، لا أعرف متى يدق العشق قلوب الأطفال، لكنني أقسم أنني عشت ناي منذ اللحظة الأولى التي رأيتها رضية في مهدها، وها أنا أعيش حياتي فقط من أجل تلك الجميلة لأخرجها من القمقم الذي وضعها أهلنا فيه دون نغف منها، ولأواجه الجميع بأعلى صوت بأنها مثلنا جميعاً لا بعبئها شيء، وإن اعترض شخص واحد فلن أتوانى عن ضرب رأسه بالفأس التي أقطع بها أشجار غابة الزالهور.

في عاصي الرابع عشر عرفت أن ناي تنتمي للمطبيين دون أن يخبرني أحد بعدما لاحظت أنها تحمل صفتين إضافيتين اكتسبتهما على ما اعتقد في عامها العاشر: الأولى: حاسة شمها القوية للغاية، والتي كانت تمكنها من الانتباه إلى قدوم أحد والديها قبل وصوله إلى البيت بمسافة كبيرة، حيث كانت تستطبع شم رائحة عربة أبيها عند دخولها إلى الفناء، وعربة أمها على بعد نصف ميل على الأقل، وهذا ما ساعدها كثيراً على التحوال بحرية في جوار بيتها داخل الغابة والعودة قبيل رجوع أمها وأبيها حينما كنت أفر من العمل وأذهب للقائها، والثانية: أنها كانت تستطيع سماع الهمسات التي لا تستطيع أذنائي سماعها داخل الفناء رغم قوة سمعي، تلك الميزة ساعدتها كثيراً على التواري بين الفصوص أو الرجوع إلى البيت ركضاً وهي تسدل مقعدة شعرها على وجهها مخفية عينيها إن اقترب شخص غريب منها، بالطبع لم أخبرها ولم أخبر أحداً عن ملاحظتي هاتين الصفتين من أجل سلامتها وسلامة أسرته، بل كنت في داخلي أكثر الأشخاص سعادة بعدما محنتنا هاتان الميزتان حرية عبور سباح بيتها باطمئنان في أي وقت لا يوجد فيه أبواها

في يوم مولدها السادس عشر صفعني العم بملول بقوة على وجهي عندما أركبتها ورائتي صهوة حصاني وانطلقنا إلى أعماق الغابة بعيداً، في خطأ كبير

من . عندما دار إلى المبيت باكراً دون أن يشعر أنها امتعنت أكثر من غيرها
أبدال حبه بأم . وهذا حاسة شعها . لكنها فمكتني على الحد ذاته فهي يومها
المنير . ميسرة . عدا . والله أنوها .

هو الأمر . عند . لم يعد يومين عدا . من . عندما فادني . أمام . من .
فادني . من . المتعار . من . قبل أن أكون . من . من . فقلت له
حييداك دون أي تضطبط . من .

- أريد الروح من ناي . عندما نلغ . عامها الثامن عشر .

وفتها من . حسان . من . وتركني مفادراً دون أن يقول كلمة واحدة .
لأني ليلتها وهي تعد لي الطعام :
- سأزوج ناي .

صمتت . ثم قالت دون أن تنظر إلي .

- أحسها وأحس عانتها . لكن ذلك قد يجعلك طريداً مثلها طوال العمر .
ستلزمكما بطرات الناس التي تخلصها منبوذة حتى وإن صرنا
عجوزين . وقد يأتي جعدي محنون ويقدمها للسجن في أي لحظة .
وإن أشئت لهم ألف مرة أنها بشرية مثلنا .

قلت :

- سأحميها بكل ما أملك . أعتقد أنني خلقت قوياً من أجل حماية تلك
الفتاة الضعيفة . سأبني بيتاً آخر في الغابة . وسأكتفي من الدنيا بها .

قالت :

- لن يرضى أبوك بهذا الأمر مطلقاً .

قلت ساخطاً :

- إنني أقطع الأشجار وأتقاضى أجراً مثلي مثله . لا حاجة لي به ولا حاجة
له بي . إنها حياتي .

جلست أمي أمامي ونظرت في عيني وقالت :

- إنها ملديّة وإن لم تحتج معها كل صفاتهم، لقد أخبرتني أمها بذلك
السرمعد أيام من ولادتها، إنّ ربحانة من نسل أحد الملديين، جد أباها
استطاع الفرار من المذبحة الكبرى رغم كونه أعمى، وتزوج من بشرية
ومثالة تعاطفت معه، وأنجبا ستة أطفال، لحسن حظه جاء جميعهم
مشراً كاملين، استطاعوا بعد بلوغهم التسلل إلى القرى وتزوجوا من
مشرهم الآخرين منجسين أطفالاً عاديين، نقلوا إليهم سرهم بأن أصلهم
يعود إلى الملديين، ليتوارثوا ذلك السر جيلاً بعد جيل خشية أن يأتي
يوم وتنجب إحدى نسايتهم ملدياً سيخبط الحظ بمزق الجنود أو الناس
جسده إرباً، لذا ستجد في بيت كل نسل منهم مسحوقاً أيضاً كان
جدكم الأكبر يحمل مثله: سمّ فتاك يقتل لاعتقه في لحظات، سيتناوله
من يولد ملدياً خوفاً من التمثيل بجثته، كانت ربحانة تستعد لتسميم
نابي به إن أوشك رجالنا على قتلها لولا أن الفتاة نجت بقدرتها على
الإبصار، ورغم كل السنوات التي مرّت فإنّني متيقنة أن نابي تحمل ذلك
المسحوق لقتل نفسها إن قرر الجنود اعتقالها يوماً ما، لا بد أن أمها
زرعت في ذهنها ما زرعه فيها أبواها من قبل.

ثم زفرت وأبجملت وهي تنهض:

- إنّ ربحانة وبهلول يعرفان أنك تحب ابنتهما، لكنهما رغم كل هذا الحب
الذي يظهر في عينيك لهما لن يقبلا بزواجك منها، لا هما ولا نابي التي
تعرف عاقبة بعد عام حقيقة أمرها، وتذكر جيئاً أن مصيرها في هذا
البلد مرمون بوشاية شخص خسيس عنها، إن كانت تحبك فلن تقبل أن
تصير أرملاً في أي لحظة.

قلت:

- إنني أكثر من أعرف نابي في هذه الدنيا، أكثر من أويها نفسيهما،
وأعرف منذ سنوات أنها تحمل صفات الملديين، لكنني لا أعيا بذلك،
حديثك بشأن ذلك المسحوق غير صحيح، لن تقتل الفتاة نفسها أبناً،
إنها تحبني وتثق بي، وتعرف أنني سأدافع عنها حتى آخر نفس لي،

لحدا أكثر من عشرة
لحد ذاته في يومنا
في أمام بيتنا، لكنّه
ب موتها، فقلت له
لحظة واحدة، نلت
طوال العمر،
وإن صرنا
له طعة، حتى
حماية تلك
دنيا بها.
لا حاجة

منهين من أحلي حتى يموت مقاً بعد عمر طويل، وقتما يكتمل عمر
من بهما من هذه الحياة
وتامعت متحدثاً وأنا أبصر:

- سأخرج ناي عسماً تلح عامها الثامن عشر متلماً عهدنا من لغير
سأخرجها مهماً كانت عواقب ذلك الأمر.

وخرجت غاضباً أكثر فيما قالت أمي، وألمن في داخلي الناس والناس
والحمود، ثم وجدت نفسي أكمل مسيرتي إلى داخل الغابة رغم تأخر البرق
وأتمه نحو بيت العم بهلول في مرارة لم أشعر بها من قبل، حتى وصلت
إلى سياحه الأمامي، وعمرته متسللاً، فخرجت لي ناي بسراجها قبل أن أطفئ
مافنة غرفتها، وقالت صاحبة إنها صارت تعرف واتحتي أنا الآخر، لم أستطع
الضحك، وسألتها في اقتضاب:

- هل أمي صادقة بشأن ذلك السم الأبيض؟

صمتت متفاحنة، قبل أن تخرج قلادة عنقها وتقول وهي تشير إلى نبتة
صغيرة مُعلقة بها وهي داخلها ذلك المسحوق:

- نعم يا نوح، لن أتركهم يفعلون بي ما فعلوه في أجدادي.

مسدوداً ونعت أمام ناي أحرق إلى قنبلة السم الأبيض المعلقة على
صداء من أن أطلق مثمة، فتأملت باسمة عندما وجدني في تلك الحالة:
- لا، بلق يا فتى، لن أناوله إلا إن صرتُ على يقين تام أنه لا مفر من
الاعتقال، وهذا لن يحدث ما دمت بحواري، أليس كذلك؟ ألي تحميني
فأسك مثما تعدني يوماً؟

واصل صمتي، مضمت شفتيها وصمتت الأخرى، ثم أخرجت زفيرها
وفأنت بعدما طال صمتنا:

- لقد سمعت أبي يتحدث إلى أمي عن ظلمك الرواح مني بعد إتمامي
اثامة خسة، ورغم السعادة التي لم أشعر بعملها في حياتي عند
سماعي بك الكلمات وإبيا المرة الأولى التي يتمكن فيها الخوف مني
إلى ذلك الحد.

وتأملت وهي تنظر في عيني:

- بعد عشر حياتي ظلها أحاف من كل لحظة فائمة، كالخرد الذي
يستشعر مرتحفاً أي خطر وشيك فيركضي متوارياً في أقرب خحر
مشبة الموت سحقاً بالأقدام. لطالما فكرت في أن الموت أهون كثيراً
من العيش بهذه الطريقة، لكن بقي شيء واحد جعلني أتمسك بالحياة،
هو وجودي معي، إنني أحبك يا بوح وأحب بقاءك معي، لكن إلى متى
ستحمل هذا العبء؟

إن ترى أبي وأمي وما عاشاه من دل ونعب وإهدار لحقوقهما مطير
صعت أهل القرية عن أمري، لكنهما يتقيان أبي وأمي في النجاية، أما

أنت ما ذنبك في إكمال حياتك بتعلقك بالخوف مثلي، سنسام عجلاً
أجلاً، حتى وإن حاولت إخفاء ذلك الشعور عني بكل طاقته.

تريد أن تتزوجني؟ وماذا بعدها؟ نتجيب أطفالاً قد يحملون صلتك
مني؟ يعيشون حياتهم مثلي في ذعر ورعب مع كل وقع أقدام تسحب
أدانهم؟ يعيشون في سجن أبدي لن ينتهي أبداً ما دام الناس يؤمنون
بالنبوة وباحتمالية ظهور الشاهد من جديد؟ لا يا نوح، أنسم لك أنني
أحبك حباً لا يستطيع أحد بلوغه، لكنني عندما فكرت ملياً في تلك
الزواج مني وجدت أنه أكبر ضرر قد أسببه لك، ولن أرضى بذلك أبداً
ما دمت أحبك. إن فتلي على يد أحدهم آت آت يا صديقي، بعد يوم، بعد
شهر، بعد سنوات، مصير قادم لا محالة، فلا داعي إذن لعيشنا أحياناً
لن يأتي من وراءها إلا الحزن والبأس.

ثم تساقطت دموعها وهي تقول:

- إن أفسى شيء كنت أخشاه هي اللحظة التي أطلبك فيها بالابتعاد عني
لا أعرف من سيحميني بعد ذلك، لكن بقاءك معي سيظل مهدداً لحياتك
مثلي، وأنا لن أقبل بذلك، لن أكون سبباً في يذالك يا نوح.

مددت يدي ومسحت دموعها، وقلت:

- سأبقى معك يا ناي، سأبقى وسنعيش معاً ما تبقى من عمرنا، سبأتي يوم
ويستأ الناس أمر النبوة، سيدركون خطأ معتقداتهم وسيدركون أنها
أساطير لا أكثر، وحتى يأتي ذلك اليوم سأبني لنا بيتاً في أعماق الغابة نعيش
فيه أنا وأنت وأطفالك، إن غابتنا كبيرة للغاية ولن يستطيع أحد الوصول إلينا.
وأمسكت يدها برفق، وقلت:

- إنني أطلب الزواج منك الآن يا ناي، لن أنتظر بلوغك الثامنة عشرة، نأ
لتلك التقاليد، أقبلني الزواج مني وسأدلف حالاً إلى أيبك لأرقطه وأخبره
بأنني سأبداً في بناء بيتنا البعيد في الصباح، إن قلبي لم يبق عشفاً
إلا لك يا ناي، وما دام يواصل دقه فسأعيش كل لحظة من أجل إبقائك
سعيدة مطمئنة فحسب.

جاءت نرد، لكننا سمعنا صوت أمها ينادي باسمها نجاة، فتحركنا سريعاً نحو فناء البيت الخلفي، ثم تكررت نداء أمها، فهمسست لي بأن أغادر ونتقابل في اليوم التالي مع ذهاب أبيها وأمها إلى عملهما كي نكمل حديثنا، فأومأت لي إيجاباً ثم اقتربت منها موحياً لها بأنني سأقول شيئاً، فمالّت لي بجسدها، معاجلتها وانتزعت قنينة السم من قفلاتها وابتعدت، صرخت متفاحنة مما فعلته، ومعها نادت أمها باسمها في قلبي خشية أن تكون في خطر ما، فقلت باسمًا وأنا أبتعد نحو السياج المنخفض:

- لست في حاجة إلى هذه القنينة، سأقابلك غداً، وفكري في طلبي الزواج منك كي أحضر أمي وأتي إلى أبيك، سأنتظر ردك غداً.

نالت:

- أرجوك يا نوح أعطني هذه القنينة، لا أعرف إن كان لدى أمي قنينة أخرى أم لا.

فذهبت في الهواء والتقطتها من جديد، وقلت باسمًا:

- ربما أتناوله إن لم تقبلي طلبي.

نادت أمها من جديد، فأشرت لها كي تجيبها وأن تنسى أمر القنينة، حاولت الاقتراب مني، لكنني عبرت السياج واثبًا إلى جانبه الآخر، ثم اقترب صوت أمها أسرع، وظهر صوت أبيها في الأرجاء ينادي هو الآخر باسمها واسم أمها، فاصمرت إلى العودة إلى الفناء الأمامي لتجيب نداءهما وهي تنظر إلي، فغادرت عائدًا في اتجاه القرية معسكًا قنينة السم في يدي ومتعنيًا في باحلي ألا نكون لدى أمها قنينة أخرى، ومفكرًا في التخلص منها في مكان لا يصل إليه كاش حي قد يتناولها عن طريق الخطأ، لذا أكملت سبري بعيدًا عن قريتي حتى وصلت إلى جرف بحيرة جمارة الجافة وهناك جلست.

كانت أرض البحيرة الصخرية تلمع بشدة أسفل ضوء القمر الذي كان أخذب في ذلك التوقيت، فكرت في هيئة سماننا قبل أكثر من تسعة عقود وكيف كان بها بدر إضافي ساطع على الدوام يصيء بشدة ليالي وادبنا، حتى أن أسقف الحانات الهرمية وقتها كانت تحمل نوافذ مربعة كبرى يعبرها

الضياء فلا تحتاج إلى مشاعل لإنارتها، لتنتعش الحياة لبلاً خلال تلك الآونة
وتدوّن الكتب أن أحد أسباب ازدهارنا قديماً هو ضوء الشاهد الذي جعل العمل
يستمر اليوم بأكمله لا نهائياً فقط مثل البلدان الأخرى، ثم جال في عالمه
تعلّمه عن أصل العليدين وعن النظرية الأكثر انتشاراً عن نبتهم الأولى في
هذه الأرض قبل مئات السنين، والتي تقول إنه قبل قرون طويلة كان هناك
ملك مغرم بالنساء تروج أكثر من سبعين امرأة ثم ظهرت في المدينة فتة
جميلة اسمها «ملدة»، فهاجم بها عشفاً وأراد أن يتزوجها هي الأخرى، فرفضت
فأشعل ذلك غضبه، وأمر جنوده بأن يكبلوها ويأتوا بأحد ذئاب ليكسها أمام
ضيوئه عقاباً بها، لكن أحداً لم يتوقع أن تحمل تلك الفتاة بعد ذلك بسنة
أطفال بي بطر واحدة، وُلد منهم أربعة أحياء: طفلان وطفلتان كانت يبيهم
صفراء لا ترى وشعرهم كالقراء، نبذهم الناس لسنوات طويلة فعاشوا في
لقابة مع أمهم، حتى اكتشف أحدهم في سن العاشرة قدرته على التحاظر
مع أحد الذئاب ومقدرته على الرؤية من خلال عينيه لدرجة أنه استطاع عبور
غابة الزافور من شرقها إلى غربها دون تعثر، ومن بعده استطاع إخوته فعل
لأمر نفسه، ثم عُرف عنهم ذلك الأمر فكانت طامة كبرى عليهم وعلى أمهم، إذ
أحضروا للملك فوجدها فرصة عظيمة لتقوية حكمه بفهم عقول الذئاب، وكرر
أمر اغتصاب الذئب لأمهم «ملدة»، فأنجبت ملدين آخرين، ثم حاول فعل الأمر
نفسه مع نساء أخريات لكنه لم يفلح، لتبقى تلك المرأة حبيسة لديه تتحب
أطفالاً من الذئاب، حتى ماتت.

تكاثر العليدون فيما بينهم بعد ذلك ولم يتزوجوا من غير جنسهم، وقبل أن
الحبلى منهم كان باستطاعتها إنجاب ستة أو سبعة أطفال في الحمل الواحد
مثل الذئاب، وبمجرد وصول كل ملدي سن العاشرة كان يستطيع التحاظر مع
ذئب ما يختاره ويستطيع أحياناً رؤية الأشياء من خلاله رؤية مشوشة بالونين
الأبيض والأسود فقط، ثم أعلن أحدهم بعد سنوات عن قدرته على استقبال
الروى التي ينشأ الشاهد إلى الذئب، فسُجلت لأول مرة العلاقة الوثيقة
بين شاهد السعاء والذئاب، لتزداد مكانة العليدين أكثر وأكثر لدى العلوك.

خاصة من استطاع منهم التخاطر مع ذئاب «صامون» القادة الحقيقيين
لشعبة الذئاب، لكن في الآن نفسه لم يسمح الحكام بتزايد أعدادهم خوفاً من
تربسهم، وبعث بـ ١٠٠٠ عديم أربعة آلاف ملدي أثروا تحديد نسلهم، فسمعوا
لنسايتهم بالاحتفاظ بطفلين فقط من كل مرة حمل، وأمر الجند باقتياد
بنية الأطفال إلى البحيرة لإغراقهم فيها، حاول الملديون التمرد حينذاك، لكن
اعتقالهم جميعاً واحتجازهم في قفص كبير يتوسط المدينة وإشعال النار
من حولهم تمهيداً لإحراقهم جعلهم يتراجعون ويخضعون لأوامر قادة البلاد.

ذكرت كتب التاريخ أن الناس تجمعوا حول تلك القفص في خوف كبير
من تمرد الذئاب على إثر العلاقة القوية بينها وبين الملديين، لكن ذلك لم
يحدث وانتهى الأمر بلامتنال للأوامر بالاحتفاء بطفلين فقط، وإن تركت تلك
الحادثة شرحاً عظيمًا بين الملديين والذئاب، أما الأمر العجيب الذي نؤمن عنهم
أيضاً أن أجساد الأنبياء منهم: أي الذين يمتلكون كل صفاتهم، كانت مثل
أجساد الذئاب تحتفظ بهيئتها سليمة عشر سنوات بعد الموت، ثم تبدأ في
التحلل بعد ذلك لم تضع الكتب القديمة تفسيراً منطقياً لذلك، لكن طبيياً
قديماً في أحد كتبه أن أنسجة أجسادهم تختلف بعض الشيء عن أنسجة
أجسادنا نحن البشر، وتحتوي غددًا إضافية وإن بدوا أمامنا بهيئة تماثلنا،
مُرجحاً خطأ نظرية الأم المغتصبة من دشب الملك، ومفترضاً نظرية أخرى بأن
أسلاف الملديين أتوا إلى عالمنا بصفاتهم عبر إحدى العابرات وتناسلوا فيها
بينهم هنا، بدعم تلك الفرضية الأساطير التي أكدت مقدرتهم على الوصول إلى
عابرات أعماق الجبال مثل الذئاب، وإن ظلت النظرية الأولى المتعلقة بالفتنة
«بلدة» هي الأكثر شيوعاً في تراثنا القديم.

أما كان بعد انتهى عهدهم مع انتهاء عهد الذئاب، ومن فر من منحتهم
الكبرى واستطاع الاندماج مع البشر لم يبقَ منه إلا نسل يجعل صفات قليلة
لا قبيحة لها مثل ناي، بل يحمل عينا لا ذنب له فيه، فكرت أثناء جلستي تلك
أن ناي إن كانت ملدية كاملة قد يحتفظ حسداً بهيئته لعشرة أعوام بعد
موتها مثل أسلافها الملديين الأنبياء، لكن مع عينيها التي ترى وشعرها الأسود

الناعم البشري كان ذلك الاحتمال ضعيفاً، ضربت رأسي لأبعد تلك الفكرة
برمتها عنه، وهمست لنفسني:
- لا لن تموت الفتاة، لن يمسيها أحد بسوء.

وأخرجت قنينة السم من جيبتي وألقيتها بعيداً بكل طاقتي نحو أرضية
البحيرة، ونهضت عائداً إلى البيت لأدلف إلى غرفتي وأخلع قميصي واراد
مطمئناً مع تخلصي من ذلك السم، لم أستيقظ إلا عندما صاحبت في أمي وهي
تتحرك حسدي بقوة على غير عادتها، لأفتح عيني مذهشاً من سلوكها الغريب
قبل أن أقفز من سريرتي مفزوعاً عندما وجدت الدماء تسيل من رأسها إلى
أذنيها، وأسألتها في قلق:

- ماذا حدث؟

قالت في ارتباك شديد:

- إنه أبوك، ما إن تحدثت معه بشأن رغبتك في الزواج من ناي حتى
استشاط غضباً وخرج يلعنك ويلعنها ويلعن أبويها.

قلت في ريب وأنا أفكر في تهور أبي:

- خرج إلى بيت العم بهلول؟

قالت:

- لا، قال إنه حذر بهلول أكثر من مرة كي يبعد ابنته عنك، لقد خرج وهو
يقسم أنه سيخبر الجنود عن ناي، وحين حاولت إيقافه ضربني بعضاً
فأسه على رأسي، لم أشعر بشيء بعد ذلك، ولا أدري المدة التي غبت
فيها عن الوعي.

لم أنتظر أن تكمل أمي حديثها وركضت إلى الخارج عاري الصدر، كانت
الشمس تتوسط السماء بينما ينشغل الناس في أعمالهم على جانب الطريق،
سألت أحد المارة عن أبي، فقال إنه رآه في الصباح يركب حصانه متجهتاً
دون أن يلقي التحية على أحد، قلت:

- هل ذهب تجاه الغابة؟

قال:

- لا أنذكر

سأنته:

- هل رأيت العم بهلول هذا الصباح؟

هز رأسه إيجاباً وقال:

- نعم، كان بجوب القرية بعربته منذ قليل، ورأيت ريحانة كذلك.

فكرت في أن ناي بمفردها في بيتها، وسألت آخر عن أبي في تونر كبير، قال إنه رآه يقطع الطريق نحو «بليجة» وهي قرية كبيرة تقع على بعد ثلاثة أميال شمال قريتنا، ويوجد فيها معسكر كبير للجند تتحرك منه كل صباح جماعات منهم إلى أماكن تقطيع وتجفيف الأخشاب ليشرفوا على سير العمل بانتظام، بينما يبقى الجزء الأكبر منهم داخل أسواره استعداداً لأي طارئ، همت إلى نفسي مرتعباً:

- لا، لن تفعلها يا أبي.

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أخطف قأساً من شاب كان يقف على جانب الطريق يتناول طعامه، قبل أن أركض وأمتطي حصاناً كان صاحبه يغازل امرأة تمر دون أن ينتبه له، وقلت معتزلاً وأنا أنكر مؤخرة لحصان يقسمي:

- عذراً سيدي، سأعود في الحال.

ثم ركضت بالحصان وأنا أصبح فيه بكل طاقتي كي يسرع لينطلق به، إلى داخل الغابة.



لم أشعر في حياتي بسرعة مرور الوقت مثلما شعرت في تلك اللحظات، كان الحصان يركض بأقصى سرعته ورغم ذلك كنت أشعر أنه أبطأ حيوان على وجه الأرض، كالمجنون كنت أغغم إلى نفسي:

- لماذا يا أبي، ما ذنب الفتاة؟

وأصرخ إلى السماء بأعلى صوت كي تسمعني:

- ناااي، اهربي، إن الجنود قادمون.

تتساقط دموعي وأنا أفكر في كلاب الصيد التي ترافق الجنود وأنفيل ابن
تصاد ناي من كل جانب لتنهش لحمها دون رحمة، لا تضاهي سرعة نفل
في بلدنا سرعة تلك الكلاب،

الحصان يواصل ركضه بين الأشجار، تتكسر أسفل حوافره الأغصان
والفصون الجافة، وأنا أواصل ندائي:

- ناااي، إن الجنود قادمون،

وأهمس إلى نفسي مضطربًا:

- ستسمعني وستهرب، لا يهم إلى أين، اهربي فحسب، سأبحث عنك بعد
بعد في كل مكان.

وأصرخ إلى الحصان راجيًا:

- أسرع، علينا أن نصل إليها قبل الجنود.

تردد صوت نباح الكلاب فجأة في الأرجاء، فسزت في جسدي رعدة
قوية ومعها توقف الحصان بفتة رافعا قائمته الأماميتين، ليسقط من
فوقه إلى الأرض، ويركض عائدًا تجاه القرية وهو يصيح مرتعبا، أمسك
بمأسى وزكضت نحو الاتجاه الذي يأتي منه النباح، والذي كان بعيدا عني
العم بهلول، أضرب غصون الأشجار المتشابكة أمامي لأزيحها عن طريقي
وأواصل صراخي بصوت أعلى:

- نااااي، اهربي.

صوت النباح يتواصل، وسمعت ناي تصرخ!

تجمد جسدي قبل أن أركض في الاتجاه الآخر الذي أتى منه صراخ ناي
وأنادي:

- ناي، إنتي قادم.

يتجاوز الأشجار والحشائش والغصون الأفقية، واسقط وأنهض، فيما
تواصل ناي صراحها والكلاب نباحها، حتى اقتربت من مصدر تلك الأصوات،
ومعبرت حربة الجنود أمامي بحصانيتها، كانت خاوية لا يقف بجوارها أحد،
تقدمت أكثر وأكثر نحو رقعة جرداء لا توجد فيها أشجار ولا غصون، تقف
بأي في منتصفها يحاصرها ستة جنود بمسك ثلاثة منهم بكلاب ينبحون
نجاهها، تنظر نحوهم مرتعبة وهي تتحرك خطوات قليلة عشوائية في كل
اتجاه بستان من الكتان الأبيض معسكة بحاروف حديدي كبير في يدها،
وتواصل صراخها إلى السماء، تقدمت بفأسي وصحت إليها:
- لا تخافي يا ناي، إنني هنا.

انتبه أحد الجنود إليّ، فصربت بالفأس ضربة أسقطته، هجم كلب عليّ
بأسقطته هو الآخر بضربة جعلته يعوي متألماً، التفت ثلاثة من الجنود حولي،
بركعت ناي في تلك اللحظة من فجرة بين البقية نحو أشجار الغابة، حاول
جندي مهاجمتي، أفلت ذراعي من ضربة سيفه الحاسمة في اللحظة الأخيرة
ركبت أضرب رأسه بفأسي لولا أن جندياً آخر غرس سيفه في فخذي اليسرى
نصرخت متألماً، وسقطت لا أقوى على الاستناد إليها، هناك هوى جندي
نحر بدرعه على مؤخرة رأسي، فسقطت على الأرض تسيل الدماء من رأسي
مفرقة وجهي، حاولت النهوض لكن أحدهم داس بقدمه على رأسي بينما
ظهر آخران وصما يجران ناي إلى الرقعة مرة أخرى، كانت تنظر إليّ باكياً
وتواصل صراحها، حاولت النهوض مرة أخرى فضغط الجندي بحدائه على
سلسلي بقوة في حين تقدم برمحه جندي آخر بدا من درعه وخوذته أنه قائد
تلك المهمة نحو ناي المقيمة من الجنديين، صرخت باكياً:
- أرجوكم، إنها بشرية مثلنا، إنه بلاغ كاذب.

كان القائد يتحرك نحوها بخطوات ثابتة محطماً الحصى أسفل حذائه
السكري بينما تنظر الفتاة نحوه ونحو رمحه في رعب شديد، وهي تحاول
التخلص من مكبليها، ثم تحررت من أحدهما فقبض الآخر بذراعه على عنقها
مفيداً حركتها، تواصلت مقاومتها حتى أفلتت ذراعها اليمنى وتحسست بينها

قلادة صدرها باحثة عن شيء ما، لكنها ما لبثت أن أسقطت يدما بانسة
بكيت بحرقه وأنا أتذكر قنينة السم التي أخذتها منها، وصرخت من جبر
عندما وقف قائد الجنود على بعد قدمين في مواجهتها:
- إنها بشرية مثلنا.

قبل أن تتحجر الدموع في عيني ويتوقف الزمان بي وتسكن كل الأصوات
من حولي عندما رفع رمح وبضربة واحدة غرسه بقوة في منتصف صدرها.
لتسقط غارقة في دماها لا تحرك ساكناً.

كنت لا أزل طريح الأرض مذكوك الرأس والوجه أسفل حذاء الحندي عندما
 اخذت كتاب السيد تتشتم جسد ناي الفارق في دماحه قبل أن تطلق نفاخا
 قصيرا وتستعد عنها في اتجاه عربة الجنود وكأنه إشعار منها أنها فارقت
 الحياة، حينذاك تقدم قائد الجنود نحو جثتها، فأغمضت عيني كي لا أرى
 ما سيفعله به، لكنه اكتفى بنزع رمح من صدرها واستدار سريعا ليأمر
 جنوده بأن يسحبوا إلى عربتهم، توقعت أن يهوي سيف في تلك اللحظة على
 عني ليفصل رأسي عن جسدي إلا أنهم لسبب لا أعرفه تركوني ومضوا في
 طريقهم، فزحفت بصحوبة على يدي وركبتي اليمنى نحو ناي، كانت راقدة
 مغمضة العينين شاحبة كالقثح، احتضنتها وأنا أناجيها:

- أرجوك يا ناي انهضي، أرجو لا تتركيني وحيدا، انهضي وسفادر هذا
 البند بأكمه، أرجوك.

قل أن أصرخ إلى عنان السماء صرخة جعلت طيور الأشجار تحلق من
 أعشاشها.



بعدما استعدت بأسني بعض الشيء مزقت بنطالي، ولغفت قعاشة مه
 شرة حول فخذي النازفة، ثم حملت ناي عائذا إلى بيتها، بدا على أبيها وأمها
 أنهم كانا عائدين لبيتها منذ قليل وقد بحثا عنها بعضا من الوقت دون أن
 يعرفا شيئا عن مطاردة الجنود لها، جريا نحوي في جنون، ولما رأيا وجهها
 الساكن الشاحب وثوبها الفارق في دماحها توقفا مذهولين وكأن صاعقة

أصابتهما، قبل أن تصرخ خالتي ريحانة وهي تهز جسدها وتنادي بأصبي
قلت باكياً:

- لقد قتلها الجنود، ولم أستطع إنقاذها.

هوى العم بهلول إلى الأرض يلطم وجهه، فيما واصلت خالتي ريحانة
عويلها ونداءها جثة ناي راجية لها بأن تنهض، وضعت ناي إلى الأرض برزخ
وابتعدت خطوات باكياً، فاحتضناها وهما ينتحبان غير مصدقين.

بعد دقائق تحسست خالتي ريحانة صدر ناي أسفل فستانها، ثم مزق
عنق الفستان كاشفة صدرها وكأنها تبحث عن شيء ما، فأبعدت عيني، لن
أن تقعم إلى زوجها وهي تنشج:

- لقد طعنت في قلبها، مانت ابنتا بلا رجعة.

وصرخت وهي تضم ناي إليها، بكيت بحرقة أنا الآخر، ثم نهضت فلتفت
متجهاً إلى حافة البحيرة التي جلست عندها في الليلة السابقة، وعندما وصلت
إليها هبطت إلى أرضيتها، كانت القنينة لا تزال هناك سليمة كما القنينة
النقطتها، وعدت إلى قريتي، كان الجميع ينظرون نحوي في تعجب ولا
أسير أعرج عاري الصدر معزق البنتال، تتحلط الدماء على وجهي ورفشي
وطهري، وتتساقط من فخذي المضمدة قطرات من الدماء، حاول النفي
إيقافي لسؤالي عما حدث، لم أتوقف، سمعت البعض يتهايمسون عن حر
مقتل ناي وكأن الجنود نشروه في القرية، فامتلات عيناى بالدموع ولم
أواصل تقديمي، كانت أمي تقف عند باب البيت، وحصان أبي معقولا في ردة
على جانبه يأكل التبن، تقدمت، قالت أمي والدموع في عينيها:

- إنني أسفة يا نوح، إنني أسفة يا بني.

لم أجبها، وواصلت تقديمي أنظر إلى أبي الذي كان يجلس في الرضا
يحدق إلي دون أن يقول شيئاً، لم أرح عيني عن عينه، فوجدته يحرك يده
فأسه التي كانت تقبح بحواره، واصلت اقترابي منه، ثم صرخت فيه:

- لماذا؟

قال في مرقا

بن بطوط مسلك بهم، لقد فعلت ما في مصلحتك.

زعمت فيه.

إني أحقر من رأيت في حياتي.

ثم أمسكت رأسه بقوة، حاول أن يضربني بفأسه، فأمسكت بمعصمه
ومررت به في مسد لأريكة التي كان يجلس عليها، فسقطت الفأس منها،
مرغت أمي:

إنه أبوك يا نوح.

قلت:

لا، إنه نائل حبيبتي.

ثم قبضت على فكّه السفلي بأفصى قوتي لأفتحه، وبإبهام يدي الأخرى
أزلت سدادة قنينة السم، وأفرغت ما فيها بالكامل في حلقه، ثم أغلقت فيه
من جديد بإحكام، وعندما سقط أمامي ينازع اختناقه محنق الوجه جاحظ
العينين غادرت راكبا حصانه عائدا إلى الغابة مرة أخرى.



في فناء بيت العم بهلول كان الجمود لا يزال مسيطرا على كل شيء، جثة
بي في الموضع نفسه الذي تركتها فيه، يجلس بجوارها أبوها وأمي هانمين
ساكنين بحدقان نحوها بأعين رائنة ولا يدريان شيئا من حولهما، نزلت من
فوق حصاني وتقدمت إليهما، وحاولت الطق لكنني لم أستطع، فحلست
بجوارهما صامتا. لم يأت أي من أهل القرية لعواستهما في مصيبتهما،
كان جميعهم جبنا خشوا أن يتورطوا في إخفائهم أمر وجود ناي كل تلك
المسوات فيعاقبهم الجنود، أنذال، مثلهم مثل أي يستحقون جرعة كبرى من
السم الأبيض.

بعد اقتراب الشمس من المغيب نطقتُ إلى العم يهلول أخيراً بأصغر شيء قد أتولاه:

- أين تريدني أن أحفر قبرًا سيدي؟

لم يحبني وظلُّ صامتًا غارقًا في شروبه، لكنَّ خالتي ربحانة قالت ردم ترتشف دموعها:

- فريد برميلاً من انقار الأسود أولاً يا نوح.

تعجبت من طلبها، وتساءلت:

- لماذا؟!

قالت بصوت تخنقه الدموع:

- حتى لا يصلها ضوء الشاهد عندما يظهر في السماء من جديد فريد أن ترقد في سلام إلى نهاية الزمان.

أطلقت زفيرتي في سأم، وهمست إلى نفسي:

- النبوءة مجددًا!!

ثم حدثتها مفكرًا في أنَّ الصدمة أثقلت عقلها:

إنَّ الشاهد إن ظهر سيُنهبُ النُقاب فحسب، خالتي.

قالت دون أن تقطر إلي:

- والمليدين كذلك

توقفت عند كلمتها مستغربًا، ورغم أنني كنت أشك في سلامة عقلها، تلك اللحظة فبأنني قست مؤكدًا ومستهمًا في الآن نفسه:

- لم تذكر النبوءة شيئًا عن المليدين الموتى.

قالت.

- نعم هذا صحيح.

قبل أن تتابع:

أبكر ما بعده الناس أن ما نُؤنّ على حائط الرؤى هو نصف النبوة

وأملت حين طرأت لها متعجبا من نمرتها الوثيقة:

لقد كان حذّي الأشد هو من استطاع تلقي رؤية الشاهد الأخيرة، ودون
على حائط الرؤى الحرة المتعلق بالذئاب فحسب، أما الجزء المتعلق
بمهرى ملديبي مع الذئاب فاكتمى به لنفسه ولذريته من بعده خوفا
من إحقاق الناس لكل من يشكون في كونه ملديا

أطلقت إيماءة مستنكرة، وفلت:

وما العارق بين الموت حرقا والموت بأي وسيلة أخرى؟

فالت:

اعتقد حذّي أن الشاهد سيستطيع رؤية ذئب «صامون» ويعاود الظهور
خلال العشرة أعوام الأولى بعد اختفائه على لأكثر، قلما تتحلل
الأجساد وتصير عظاما، لكن السنوات مئت تباغا ولم يظهر الشاهد،
وعندما شعر بقرب انتهاء أجله مرر لنسله من البشر قنائن السم كي
يتناوله من يأت ملديا من ذريته ليموت بأعضاء سليمة ينهض بها إن
جاء يوم وطهر الشاهد من جديد.

يبدو أن ماي لم تستطع استخدام قنيتها رغم أنني أفنيت عمري أحدثها
كذبا عن تعثيل الجنود بحثها إن أمسكوا بها، كنت أريدها أن تحتفظ
بقلبي سليما لحل الشاهد يظهر قبل تحلل جسدها وتعود للحياة مرة
أخرى، أما الآن فإن نهضت مع ذلك القلب المعزق داخل صدرها فلن
تكون إلا شبحا لا دماء فيه، ميتا يتحرك، لذا لا بد وأن نطفي قبرها
بطقة من القار مثل الوادي الأسود، لن يرحمها الناس إن نهضت،
سيمزقونها وسيطعمونها للكلاب، حتى وإن لم يفعلوا فلا جدوى من
عيشها.

قلت مندحشا معا تقوله:

- لا أصدق شيئاً من ذلك.

قالت مصمعة:

- إنها الحقيقة، أليس كذلك يا بهلول؟

كان العم بهلول لا يزال صامتاً محدقاً إلى جثة ابنته، لكنه هز رأسه إيماءً
فكرت في أن ناي ليست ملدية مكتملة الصفات يجعلها صفات بشرية
سائبة مثل إبصارها وطبيعة شعرها، لذا احتمالية بقاء جسدها سليماً خلال
العشرة أعوام التالية كان أمراً مستبعداً من الأساس، لكن ماذا لو كان
تحدث بشأنه خالتي ريحانة حقيقياً؟ ماذا لو وعد الشاهد حقاً في نبوءة
بعودة العليين مع الذئاب؟ ماذا إن عادت ناي لحياة مرة أخرى؟ بعد عام
بعد عامين بعد عشرة؟! حتى لو بعد أعوام أكثر من ذلك؟! حينذاك لنجد
سؤالي إليها:

- هل أنت صادقة بشأن ذلك الجزء من النبوءة يا خالتي أم أن مرت ناي
أثر على عقلك؟

قالت في هدوء:

- اذهب إلى حائط الرؤى ستجد النبوءة محفورة عليه وبجوارها حروف
مقوشة على مسافات، إنها الحروف الأولى من النصف الباقي من
النبوءة: «سينهض العليون وستشع عيونهم بالأصفر من جديد ليقيم
الذئاب أخوة متعاهدين ضد البشر».

س ا و س ع ب م ج ل ا م ض ا

ظنَّ الناس أن ذلك نوع من السحر، لكنَّها رموز وضعها جدي كي يشد
رؤيته فيما بعد.

قلت وأنا أفكر في أنني لم أر حائط الرؤى من قبل خاصة أنه نقل إلى
«تبيباته» قبل عقود، ويُقال إنه مُلغى هناك في مكان قديم، وقد تهشم جزء
كبير منه:

- أريد دليلاً آخر.

صرخت هي:
- شيء أحرك بالحقيقة، إن كنت تحبها حقًا أحضر لها ذلك لقار العين.

صرخت فينا:
- أريد دليلًا آخر على أن ناي قد تنهض إن عاد الشاهد للظهور.
نطق العم بهلول للمرة الأولى:

- انظر إلى لون عينيها، إن تجده أصفر مثلما تعودت أن تراه.

نظرت إليه مستغربًا، كانت عينا ناي مغلقتين منذ اللحظة التي سقطت فيها غارقة في دماثها ولم أحاول فتحهما، ودون أن أقول شيئًا تحركت نحوها، وبرفق رفعت جفن عينيها وحينها انتفض جسدي إذ وجدت زرقاء كالسما الصافية.

فأردف:

- ستعود للوتها إن نهضت قبل تحللها، لكن بلا قلب، سبليم ستكون شيئًا مثلما قالت ربحانة، إن تعود ناي التي نعرفها أبدًا.

واصلت تحديقي في ناي، ومددت يدي وفتحت العين الأخرى كانت زرقاء أيضًا، هنالك أغلقت عينيها في رفق، وقلت لأبويها:

- لن أعطيها بالقار مثلما تريدان، ولن أدع جسدها يتحلل، إنني أستطيع الحفاظ على سلامة جسدها حتى يظهر اشاهد من جديد أو أموت، أيهما أولًا.

مرورة طارق

في تلك يومًا أنمي قد أفعل ما فعلته في تلك الليلة، أن أذهب بمفردي
إلى مكان نفسي مُظلم في قرية لم أرها في حياتي إلا موتين، وأن أسمع
نفسًا ما أعرفه عنه هو حسانه الإلكتروني على موقع «فيسبوك»، وأن
أمروداه، سوربيت مهجود في ليلة مطيرة كان ملقهاها الأغرب على الإطلاق
من سنوت.

فقد أيام من تلك الليلة تلقيت اتصالًا من «فاروق» زميل دراستي الذي
يعرف أمانًا في قرية «العبر» فربكه بخبرني فيه عن اكتشاف أحدهم إزالة
كومة طين قبر الشيخ موسى وإغلاقه بالطوب المرصوص بحسب، وتأكد
أنه كان السبوت المحيطة بالعقابر له رؤيته لخالد وهو يغادر العقابر
بحوالٍ مسجٍ قبلها ببومين في وقت متأخر من الليل، ورغم أنني فكرت وأما
لهم المكالمة أن أنسى أمر ذلك اندث وأركز على باقي رسالتي العلمية فإن
عضائي باخلي من ذلك المدعو «خالد» جعلني أرغب في العربة إلى تلك
القرية مرة أخرى لأعرف سبب إصراره على حرمانني من تلك الاكتشاف،
«سبعًا» أما سرما يمتلك شاهدًا على فتحه قبر الشيخ موسى، بيد أن الأسباب
تعمت ثمانًا لتؤخرني أيامًا عن الذهاب إلى تلك القرية، تارةً تُصاب أمي
بفيروس «كورونا» وتُحجز في المستشفى، وتارةً تضع أختي مولودها الأول،
وناراب أخرى تعملوا سيارتي وتتعلل كالعادة، إلى أن جاء الفرج أخيرًا
واستطعت تودير يوم للسفر إلى تلك القرية، ورغم سوء الجو منذ صبيحة
تلك اليوم وتددت أداء شبكة الاتصالات الهاتفية وتعلل سيارتي مرتين في

الطريق فإني أصورت على إكمال الطريق إلى هناك، حتى وصلت القرية
قرابة التاسعة مساء لأجد شوارعها خاوية في ذلك التوقيت وكأنها صلي
قرية من الموتى مع سوء الطقس.

حاولت مهانفة فاروق أكثر من مرة، لكنني لم أستطع بسبب تلامس
الإرسال مع اشتداد الهواء، كنا قد اتفقنا صباحاً في آخر مكالمة هاتفية
أننا سلتقي في القرية في تمام الخامسة مساءً ومن بعدها ساءت شدة
الاتصالات تماماً، أرسلت له رسالة إلكترونية عبر تطبيق «واتس آب» لـ
بيها أني وصلت القرية، لعل بصيصاً من الإرسال يصل الهاتف فيعلم ثم
أمكث في انتظاره، ثم ركنت سيارتي على جانب طريق قريب من بيتي
وبقيت في داخلها أنظر إلى هاتفي كل دقيقة أمله أن ترسل رسالتي، به
يوصل العطر هطوله في الخارج.

فكرت في النزول إلى خالد ومواجهته بعفدي لكنني كنت أعرف
سكون مواجهة بلا قيمة، إذ كان من المفترض أن يأتي فاروق ويص
بالشاب الذي رآه يتحرك بجوار من منطقة المقابر كي لا ندع له مد
للإنكار، إلا أن كل شيء صار في مهب الريح مع عدم قدرتي على الوصول
فاروق، حتى فوجئت بما لم أتوقعه قط، خالد يخرج من بيته حاملاً
ظهر سوداء، ويتحرك في الشارع أمامي دون أن يتتبعه إلى سيارتي، وير
جسدي سريعاً خشية أن يلتفت إلى السيارة فجأة، قبل أن أنزل منها وأت
من بعيد، كن الأمر برمته غريباً، أن يخرج من بيته في ذلك التوقيت ر
الطقس، ثم يتخذ طريقاً يمتد من المنطقة السكنية نحو لأراضي الز
وينير مصباح رأسه ليضيء الظلام أمامه كأنه أعد العدة لتلك المسيرة العري
واصلت ملاحقتي به عن بعد رغم تعثري في حفر المياه الضحلة
سببتها الأمطار وتلطخ بنطالي وحذائي بالطين عن آخرهما، يساعني
تعقبه نور المصباح الذي يحمله فوق رأسه، وبين حين وآخر كنت أظ
شاشة هاتفي لعله التقط إرسالاً لكنني لم يحدث.

لا أحمَد الخوف الذي أصابني مع ابتعادي كثيرًا عن المنطقة السكنية
وتنزل البرق دارة أكثر من مرة، وتفكيرني في الرجوع إلى سيارتي
والعودة إلى الإسكندرية، وشحنًا للذنب والحفريات جميعها، لكنني عدلت عن
ذلك الشكيب عندما رأيت يتوقف فجأة في مكان ما وبدأ حفر الأرض أسفل
نفسه بحاروف صغير ليخرج منها جوالًا، كان الأمر في تلك اللحظة غريبًا جدًا
بأنسة لي، إن كان ذلك جوال الذنب، ما الذي يدفعه ليدفنه في الوحل بدينا،
وما الذي يجبره على استخراجها في تلك الليلة بالذات، فكرت في الإطباق عليه
في تلك اللحظة، لكنني تريت موقنة أن الوقت سيكشف لي إجابات أسئلتني.

تحرك بعد ذلك نحو بيت كان يوجد أيضًا في المنطقة الزراعية بعيدًا
عن بيت القرية، وكلص محترف ألقى الجوال والحقيبة نحو الجهة الأخرى
من سور ذلك البيت قبل أن يتسلقه، لم يكن لدي حل سوى أن أفعل مثلما
فعل، وفي سلوك غريب مني تسلفت السور أنا الأخرى إلى حائنه الآخر، كان
يأكل مصلًا بدا غير مأهول بالسكان، أنرت مصباح هاتفي وتقدمت إليه وأن
أرتخف من الخوف الذي يعصف بي، ثم دلفت عبر بابه، فخشخش عقد
الصف الموصول بحلقات نحاسية الذي كنت أرتديه حول عنقي مع السكون
الشار في الداخل، فحررت مشبك سريًا وكؤمته ووضعته في جيب بنطالي،
ثم برلت على أطراف قدمي سلما يؤدي إلى قبو يصدر منه ضجيج وبعض
الهمهمة، وهناك وجدته يضع حقيبته وجواله ومصباحه المضاء حائنا،
ويقف لامنا بجوار صخرة كبرى بدا أنه كان يحاول تحريكها عن موضعها
في ذلك الأوان، لأقول له:

- هل نحتاج إلى مساعدة أيها الكاذب؟

التفت إلي مضطربًا، وقال في صدمة كبرى:

- أنت؟! ماذا جاء بك إلى هنا؟!

قلت:

- لا بد أن القدر أرسلني لأعرف الجريمة التي تخطط لها

ودعت هامسي لأعلى وقلت بثقة كاذبة وأأ أعرب أنه لا يحمل إرسالًا:

- والآن لنبلغ الشرطة لتحقق في أمر رجل يذهب ليلاً إلى بيتهم
على أطراف قريته، ويعبر سوره، ومعه رفات لثب قديمة استخدم
دون تصريح من أحد قبور القرية.

نظر إلي مترقبًا، فضغطت رقمًا على شاشة الهاتف موحية له أنني أم
بالنجبة، وفي داخلي أخشى أن يهاجمني ويكتشف أمر زيف مكائفي
قال:

- أرجوك، لست لصًا ولا مجرمًا، أنني أحاول إنقاذ ابني فحسب.
أدركت أن اللعبة خالت عليه، فأطلقت إيماءة ساخرة مما يقوله. لتأتي
- لقد أخرجت عظام الذئب من القبر حقًا، لكنّها أصابت ابني بلعنة جد
مريضًا طوال الشهور الماضية، وعندما أحضرت روحانيًا إليه الم
معسوس بجن ما، وسبيل شفاكه من ذلك المس هو إعانة تلك الف
إلى موطنها، لقد كنت محقة عندما فكرت في احتمالية مجي
الذئب قديمًا إلى بلدتنا من عالم آخر.

وصمت ثم أكمل:

- نعم، هناك عوالم أخرى تعيش أسفل هذه الصخرة، أو بمعنى أنور
ما يوجد أسفل هذه الصخرة.

ضحكت ساخرة، كنت أظنه محتالًا قبل تلك الدقائق، صار محتالًا وبس
وضغطت رقمًا آخر، فأردف مضطربًا:

- تظنين أنني أكذب، لكنّها الحقيقة، إنه سر لا يعرف عنه الكثيرون.
وجود تلك العوالم هو ما جعلني أخفي عليك عثوري على عظام ال
رغم أنني لن أستفيد شيئًا من وراء ذلك، لقد خشيت أن يُكتشف أمر
البلاد فيُضر أهلها.

مجيء الشرطة واعتقالي لن يفيدك في شيء، أرجوك دعني
بالعظام إلى السرداب الذي يوجد أسفل هذه الصخرة، وأضع
فيه، وأعدك بأن...

وقبل أن تمكن عدلته اسلمات شاشة هاتفه وهو يطلق صانه المشبهة
إلى مقام سماريته، برزعت أن بها حمص حبيها ويؤذي، لكنه لم يفعل شيئاً
من ذلك، وأكمل حديثه هادئاً.
- وأعدك بأن أترك لك علام الذئب بعدما يُشفى ابني.

قلت:

- هل لي أن أراها الآن؟

قال:

- لا، لن تمسيها إلا بعدما أتيقن من زوال لغبتها عن ابني، وقتها تستطيعين
أن تفعلي بها ما شئت، اتفقنا؟

صمتُ شفتي مفكرة، ثم أومأت له موافقة، بعدها تساءلت وأنا أنظر إلى
الجو الظاهر من الباب الحديدي المُغلق أسفل الصخرة:
- هل يوجد شيء خطير أسفل هذا الباب؟

قال:

- إنها قصة يطول شرحها، ونحن مُلزمون بالساعات المتبقية على زوال
البرد، لكن على كل حال هناك نفق صغير سأعبره ثم سرّاب سأضع
فيه العظام وأعود.

قلت:

- سنعمره، وسنضع، لن تتركني وحدي هذا.
نظر في جنيّ مفكراً، ثم هزّ رأسه إيجاباً وقال:
- حسناً

ثم تابع بعد برهة:

- لتساعديني إذن في تحريك هذه الصخرة.



رحل حمار الصخرة معاً لنمعتها تماماً عن الباب الحديدي الذي فتحه خالد
وأصدر صريراً صاخباً، بعدئذٍ وحه ضوء مصباحه إلى داخله، مدق قلبه
عندما أصحرت سُلماً حديدياً يهبط عمودياً من ذلك الباب الصغير، فقال:

- إنه نفق ضيق، الهواء فيه قليل، عليك أن تتبعيني بلا تلكؤ للخروج منه
سريعاً إلى السرداب، وإلا سيصيبك الاختناق.

ترددت للحظة وأما أنظر مجدداً إلى الأسفل، لكنني هزئت رأسي في النهاية
مرفقة، فأعطاني حقيبة ظهره، وقال:

- دعي هذه معك.

حملتها على ظهري، نهبط قلبي ماسكاً جوال العظام، وهبطت من وراءه،
كما قال تماماً كان حيز النفق ضيقاً للغاية تملؤه شبك العناكب، وقبل أن
تمر دقيقة واحدة شعرت أن جسدي يضيق من قلة الهواء، فكرت في العودة
مجدداً إلى أعلى، لكنه أمسك بمعصم يدي، وتقدم بي سريعاً نحو باب خشبي
صغير يقع على جانب النفق، ما إن عبرناه حتى ارتوت رقتاي بالهواء، لكنه
نطق مستاء وهو يلهث:

- الغيوم!

تساءلت وأما أنظر إلى الفراغ المظلم أمامنا:

- ماذا؟

قال:

- إن الغيوم الكثيفة تمنع البدر من إضاءة السرداب، إنها المرة الأولى التي
أراه بهذا الظلام.

صحكت ساخرة:

- وكيف سيصل ضوء البدر إلى الأسفل هنا أيها العتذلقي؟

قال:

- لن تصدقي إلا إن رأيت الأمر بنفسك.

ثم تحرك من لهبط على مهلي سُلماً طويلاً كان حده نوحانه وعمقه
مع جنس حماري - سأكه وأنا أهبط بحذر:
ألمه مفردة مرغوبة؟

قال:
- يا، إنه سرداب موربك الذي بناه وفوريكه، أثرى العماليك الذين عاشوا
في قريتنا قبل قرون.
صممت شعني مسنغرية، كان ما يحدث مذهلاً بالنسبة لي خاصة عندما
ومنا إلى قاع السلم، فحرك ضوء مصباحه في الظلام أمامنا لأحد معزاً طويلاً
نرميم حدرانه على الجانبين إلى عشرة أمتار تقريباً، فتابع ونحن نتقدم في
الظلام مسترشدين بمصباحه:

- عند خط معين في هذا العمر سيدفعك السرداب إلى طريق إجباري
ينتهي بأرض أخرى يعيش فيها أناس تختلف عيشتهم عن عيشتنا.
تت مارحة وأنا مذنبة بين التصديق وعدمه:
- ربما علينا خوض المغامرة الآن.

قال:

- يا، إن تلك المدينة مُخلقة في هذا الوقت من العام، إن دفغنا السرداب
إلى هناك سنموت جوعاً أمام موابتها الكبرى التي تُفتح مرة واحدة في
العام. وتلك المرة ستكون في اليوم الثاني عشر الذي يلي بدر السبر
القادم، هذا إن كانت حساباتي دقيقة ولم تُغيّر قواعدها منذ زيارتي
الأخيرة لها.

ثم بدأ يحرك ضوء مصباحه على الجدران يميناً ويساراً كي يريني النفوش
المرسومة عليها، لأفتح فاهي من الاسهار، قبل أن يتحول ذلك الاسهار إلى قلبي
ورعب عندما تعثرت قدمي بشيء مُكثور أجوف تدحرج على إثر تعثري به،
وحس رغبته إليه حالد مصباحه وجدناه جعجعة بشرية، مصرحت، فقال في
هدوء.

- لا تخافي، سيقابلنا الكثير منها.

فتقدمت ورائه رغم الفزع الذي أصابني كلياً، حتى توقفت بنا بعد عشرين دقيقة من السير، وقال وهو بهم بالجلوس:

- اعتقد أننا قطعنا مسافة كافية داخل السرداب، أخشى ألا تنزاح الفيوم عن البدر فيضيع كل تعب هذه الليلة هباءً وانتظر شهراً آخر حائزاً في مرض ابني.

سألته وأنا أجلس بجواره عما أصاب طفله، فحكى لي ما حدث له منذ الليلة التي أخرج فيها عظام الذئب، وما رآه من رؤى عبر ملامسة جبينه، واختتم حديثه وهو يخرج العظام من الجوال ليضعها بجوارنا:

- إنها محاولة إن لم تنجح سأضطر للذهاب إلى بلاد ما وراء هذا السرداب منتصف الشهر القادم.

ثم وجدته يخرج من حقيبته كمائة كلب جلدية تتصل بحبل طويل، ويثبتها بإحكام على مقدمة جمجمة الذئب التي أدركت من رؤيتي الأولى لها أنها لذئب رهيب، ويقول:

- علينا أن نتوقع أي شيء.

مددت يدي منهبرة كي أمسك بالجمجمة، فأزاحها بعيداً عن يدي، وقال:

- كما اتفقنا، بعد شفاء ابني.

فأومأت برأسي إيجاباً، فأسند رأسه إلى الحائط، وتابع:

- سيبقى حتى طلوع النهار لعل البدر يظهر في لحظة ما.

ثم بدأ يحكي لي ما حدث له في زيارته الأولى والثانية إلى أرض زيكرلا، وكلما تعجبت من شيء في غير تصديق قال نفس الجملة:

- عندما ينير البدر السرداب سيبدأ عقلك في تصديق ما أقوله.

أسرعت تلك القصص من مرور الوقت، حتى أن الساعة وصلت النوبة صباحاً دون أن نشعر، وقتئذٍ وضع خالد عظام الذئب في الحوال مرة أخرى، ونهضنا لنتحرك أعماق في السرداب، أمسكت أماً بالمصباح تلك المرة وحركته

في بل حاسه، ليتواصل انهاري اشديد مثل تفصيله من تفاصيل سانه، وإن
على عقله غير مصدق لجزء كبير مما رواه لي خالد قبل قليل، توقف لسرة
التيبة قبل صورة رجل منقوشة على حدار السرداب، قل حاله إنها الحد
التي لا يجب أن نعدده، بل اعز على الرجوع أمانا إلى الحلف، حدثت إس
تفاصيل الصورة من بعيد وهو يقول:

- إنها صورة فو، بك، الرجل الذي شيد هذا السرداب، من بعدها تهتز
الأرض وتتهوار اسدران من حلفك لتدثك إلى عالم زيكونا.

كان قد حكى لي ذلك الجزء تفصيلًا بين حكاياته، فوافقته رغم عدم
التسامي الكامل، وعدت لأحس بجواره بينما كان يخرج عظام الذئب إلى أرض
السرداب مرة أخرى. ثم سألته:

- متى يطلع النهار؟

قال بعدما نظر إلى ساعة هاتفه:

- بعد ساعة وأربعين دقيقة.

أخرجت ربيري وقلت:

- إن مرأت لسلة دون ظهور الضر، سأستعير منك جميعة الذهب وعظمة
من راحدة، وأترك لك باقي الطعام، وأعدك بأنني سأعيدها لك قبل بدر
الشهر القادم.

وثابعت عندما لم يعطني جوابًا:

- نسم لك أن يبقى هذا الأمر سرًا بيننا، سأحري بعض الحصى من عليها
بمعدني دون أن أريها لأحد، وسأعدهم لك في أسرع وقت، وليلة البدر
نقام سأتر لنزول السرداب معك أبعدا، لقد أحبه.

قال بصوت هادي:

- ربحا بصيكت المكروه الذي أصاب ابني.

قلت:

- طامنا لم يصيبك شيء أنت وزوجك مهال، صة ألا يصيبني أنا الأخرى.

ثم نظرت إليه، بدا أنه وافق مبنيًا على طلبي، وإن بقي حزنه بعدم ظهور
السر واضحًا جدًا عليه، إذ واصل صمته وشروده وهو يسند رأسه إلى الحمار.
فسكت أنا الأخرى، وأخذت أفكر في توابع إثباتي انتعاه ذلك الذئب إلى الذئب
الرهيب، لأغض عيني وأرى نفسي في قاعة كبرى بأعرق جامعات العلم
أحدث عن اكتشاف العظم، بينما ينظر الحاضرون إلى عارض شاشني
بانبهار كبير، قبل أن يصفقوا لي تصفيقًا شديدًا، هز معه أرجاء تلك القاعة.
بيد أن ما هزني حقًا هو خالد الذي كان يمسك بدراعي، ويصيح لي فرحًا:

- إن الضوء يتسلل إلى السرداب.

فتحت عيني لأجد ما لم أتوقعه قط، إذ بدأت إضاءة السرداب تزداد رويدًا
رويدًا لتتضح معها الرؤية تمامًا وكأن أحدهم أتى بعصا يضيء عملاقة وأنزلها
لتكشف السرداب وتفاصيله بالكامل، دق قلبي خوفًا، كنا على وشك الخروج،
والآن أضياء السرداب بنور البدر، ما كان يعني صدق حكايات خالد التي
رواها لي قبل قليل نظرت بطرف عيني إلى عظم الذئب المبعثرة على
الأرض، وإلى خالد الذي وقف ليمسك في ترقب طرف الحبل المرتخي الوامل
بكمامة الجمجمة، وإلى صورة فوريك التي ظهرت بوضوح مع اشتداد الضوء
في السرداب، وإلى امتداد السرداب بعدها، ثم وقفت بجوار خالد وحققنا إلى
العظام في ترقب أنا الأخرى.

خلال الدقائق الأولى لم يحدث أي شيء، نظرت إلى خالد مجسمًا، كما لا
يزال محملًا في العظام دون أن يحرك عينيه عنها، أدركت في تلك اللحظة أنه
لن يسمح لي بالمغادرة بالجمجمة أو أي عظمة أخرى تحت أي ظرف، تلك
بعد دقائق أخرى وأنا أنظر إلى العظام:

- لم يحدث لها شيء.

قال:

- ربما علي أن أزيل هذه الكمامة.

ونزل على ركبتيه كي يزيلها، لكنه سحب يده سريعًا وعاد مستعًا وهو
يشير بسبابته إلى عظمة لوح الكتف، ويقول:

- لقد تحركت هذه العنقمة.

قلت:

- إنها ثابتة، لا ندع النحيوات تفلّ منك.

لكنني ابتلعت لساني من المفاجأة عندما لاحظت أنا الأخرى عظمة الفخذ
تتحرك من مكانها في اتجاه معين كأنّ سرباً من النمل يحركها، فصرخ إليّ:
- أرايت؟

انقضت دقائق قلبي، وتسارعت أنفاسي في حين بدأت باقي العظام
تتحرك لتتقارب من بعضها وتتأصّل متتابعة في هيئة هيكل عظمي للذئب،
فيل أن تنشق بعضهما وكأنّ مغناطيساً ما يتموضع عند نهاية كل عظمة،
نهمست إلى خالد في رعب:

- إن هذا الذئب مسكون، علينا أن نغادر.

قال بنبرة لا تخلو من الخوف:

- نعم، حان الوقت لنغادر.

وهبط بحذر ليلتقط حقيبته، لكنّه ما إن أمسكها بيده حتى صرخت رعباً
في نوح هيكل الذئب على قوائمه الأربعة فجأة، فقل أن يلتفت بجمجمته في
جميع الاتجاهات كأنّه يتفقد المكان من حوله، حتى شدّ محجّري عينيه نحو
صورة موربك وكأنّه وحد ضالته فيها، همست إلى خالد وأنا أموت رعباً:

- علينا أن نخرج.

لكنّ الأوامر قد فاتت، إذ اهتزت الأرض أسفل أقدامنا بقوة، ووجدنا حدران
السرايا التي عسرناها قبل قليل تبدأ في انهيارها مدعّة نحويًا، ليركض
مبكلاً لئلا، ومن ورائه خالد يمسك بحبل كمامته في يده اليمنى ويستقيبه
في يده اليسرى، وأنا من خلفهما بأقصى سرعة لي، يدفعنا الحطام نحو
طريق مستقيم طويل لا طريقيين متفرعين مثلما ادّعى خالد في قصصه،
صرخت إليه وأنا أركض:

- ألم تقل إن الطريق يتفرع إلى فرعين؟

قال وهو يحاول اللحاق بهيئس اسف ما محس سرعته:
- إنه ينودنا إلى طريق حديد لم أخضه من قبل.

ولم يستكمل جملة حتى ظهرت في الأفق أمامنا دائرة كبرى من الضوء
الأسنى الشديد حولنا بمحس أجبنا من شدة الضوء والحرارة العنيفة فيها.
كما نتقدم نحوها بينما نواصل الحذر انهبأرنا خلفنا مباشرة، صرحت إلى
حالد مرتعة.

- ماذا نعمل؟

قال وهو يركض نحو تلك الدائرة:

- اتبعيني.

لأسف وراءه ووراء هيكل الذئب، وأقفز إلى داخلها.

نوح

كنت أروي

• إن أعطيها بالفقر معلما نورا، ولن أدرج حسنها ينحل، إنني أستطيع
تحت طي حسنها حتى يظهر الشاهد من حديد أو أموت، أبعث أرواح.

كنت حائلي ويسانة

• حتى وإن استطعت، لن بعد ذلك في شيء يا سي.

كنت مسمما

• لا أعرف ما سيحدث مستقبلا، ولا أعرف متى قد يظهر الشاهد،
بكر حتى تخلص تلك اللحظة - أحاطت طي حسنها من النحل إن لم
يكن قد حلت بمرية - فاحفظ به عشرة أعوام من المطرير الأقباء،
وماعدل طي إبداء - طريقة لإصلاح سيج قلبها قبل نيو عنها

• لم يهول متدبرا

• نعمت مع ما قس، اتركها وشأنها

•

• شيء أحب في حياتي - أحببت ابتكها، وإن كانت هناك ذرة أمل
معوذة الر الحياة لمن تحلى عبدا أبدا، أرحوكها دعا لي هذه الفرصة
مررت وحته رأسي بعبا، وقالت.

• ما يوح بعد قسري الأثر، ع إلى بيت

قلت بنبرة أمل:

- لن أرح هذا المكان إلا ومعني ناي.

صرخ في العم مهلول.

- ارحل من هنا، لقد مانت ناي، وليس لدينا طاقة نخسيعها في تروحات.

وغضهم ماكبًا مؤتمًا نفسه.

- كان لا بد أن نمتد أكثر في الغاية يوم قردنا ترك القرية، وكان علي

أن اسمع زيارتك وزيارات أمك إلينا كي نقطع كل صلة بمن يعرفون

بأمرها.

لدت بصمتي لبعض الوقت مُعكزا، ثم قلت متراجعا مع الإصرار الذي

وحدته في أعينهما من رمض ما عزمْتُ عليه:

- حسنا، أستطيع مساعدتكما في حفر القدر، لكنني لا أستطيع العودة إلى

القرية من أجل إحضار القار، لقد قتلت أحد الجنود الذين تسبوا في

قتل ناي، وسأعتقل إن عدتُ إلى هناك.

حينذاك قالت خالتي ريحانة:

- انحب يا مهلول وأحضر أنت برميل القار من القرية، أما أنت يا نوح

فاحفر قبرا في القناء الخلفي للبيت واجعله عميقا على قدر المستطاع

هزرتُ رأسي إبتابا، وأوما زوجها إيجابا كذلك.



كان الليل قد أسدل ظلامه عندما أحضرتُ جارونا وفأسا ومصباحا

ريتا وأخذت أحفر الأرض الرطبة على بُعد خمسة عشر قدما من باب البيت

الخلفي. بينما جهز العم بهلول عربته ذات الحصان، وثبت مصباحا قضا في

مقدمتها وتحرك بها في ناحية القرية واحدا مطأطأ الرأس منتفخ الأذان

من كثرة الكاء، في حين بقيت النالة ريحانة بجوار حثة ناي في القناء

الهامي للبيت تنظف حسمها بالماء وتلسمها فستانا سماويا نظيفا، وتصنف

شعرها وتزيينها بخلي نهيي أظن أنها اشترته قديماً عندما باعت بيت القرية
وحلقتها من أجل هذا اليوم، إذ اعتاد قومنا دفن موتاهم مع أئمن ما لديهم.
بين حين وآخر كنت أوقف عن الحفر وأتطلع إلى القمر في السماء، أنا
الذي لم أئمن يوماً صدق نبوءة حائط الرؤى صرت في لحظة أئمن طهر
الشاهد في الحال حتى وإن أعاد كل الذناب القديمة وطاردوا أناس بلدا،
مكرت في أن مشر هذا الرمان لم يقتربوا جرماً بقتل الذناب، إذ فات على
لك الناريح أكثر من تسعة عقود، ولم يعد أحد ممن شاركوا في تلك الحرب
على قيد الحياة، كما أن الحكايات القديمة كانت تدوي أن أجدادنا لم يفعلوا
بك إلا دعاغوا عن أنفسهم بعد تمرر الذناب وقتلها الآلاف منهم، ثم فكرت في
حديث خالتي ريحانة المتعلق بنصف النبوءة غير المعلن وخوفها من نهوض
من تنصيح حنة متحركة، وسألت نفسي: ماذا إن فعلنا ما أرادته وعطينا
القمر القار، وجاء يوم وطهر الشاهد ولسبب ما أزيى لك القار عن القمر،
نفسه أو دون قصد، نعرف أن ضوء الشاهد يخترق التربة الطينية والرمال
إذا استخضمت طبقات انقاره فعاداً لو حدث ذلك الافتراض، أليس أمراً وارداً؟
- بل، لا يوجد شيء مؤكد في هذه الحياة.

كنت نفسي، وأنا أصرب العأس بقوة وأتحمس على رفض السيد بهول
وروحته طلبي متذكراً أحد العمال الذين عملوا معي منذ عامين وهو يخبرني
أنه كان يعمل بحرب العابة في صناعة الثلج الذي تعتمد عليه حانات القرى
هناك، وكف كانوا يعصرونه كغلاً من قمم جبال الغرب لمخزنونه في مياكل
مشرطية حوائطها مصيعة من الطين والرمال وشعر العاقر ينسج معية،
نفس الواحد معها «ياخشال»، تستطيع تلك اياخشالات حفظ الثلوج في
عاطيا لأسابيع حتى في أشد المناطق حرارة، أستطيع فعل الأمر نفسه مع
نابي، أستطيع أن أنسي ياخشالاً يحفظ برودة الهواء من حولها، وأستطيع
أن أنسي إليها كل يوم ثلج من قمم الجبال لحفظ حسنها إن اقتضى الأمر.
وسمعت ناسي في التربة أماسي وأنا أحدث نفسي غاضباً:
- إن هذا الطين مياكل حسنها.

وضربت مرة أخرى وقلت أسفا:

- إن أمها وأما يحبانها حقاً، لكنهما يقتلانها إلى غير رجعة بوضعها في هذا القبر.

ثم غرست الجاروف بقوة أكبر، وقلت:

- لو كانت على قيد الحياة وخيرت فيما يصير لها بعد موتها، لاختارت أن أحفظ جسدها حتى يتسنى لها النقاء مرة أخرى.

ثم زعمت بقوة ونظرت إلى الحفرة المستطيلة التي كنت أقف على عمل قدمي في منتصفها، وألقيت الفأس والجاروف جانباً، ثم نظرت إلى حصاني الذي كان يرعى في حشائش الغناء على بعد خطوات مني، وهمست لنفسي: - لن أدعها تترقد في هذا التراب وهناك ذرة أمل بعودتها إلى الحياة من جديد، لن أخذلها مرة أخرى.

ثم خرجت من القبر المحفور وحملت مصباحي متجهاً إلى حصاني، وقفزت إلى صهوته ونكرته، ليركض ملتقاً حول البيت، كانت خالتي رباحة حالسة واضعة رأسها بين كفيها بجوار ناي، صحت في حصاني، فالتفتت لي خائفة ومندمسة وأنا أنطلق كاسهم نحوها، وقبل أن تطلق صرختها كنت قد انصبت بجذعي والتقطت جثة اسنثها من الأرض ووضعتها أمامي، لأهرب بها إلى أعماق الغابة بأقصى سرعة لحصاني.



كانت القرى جنوب غرب الغابة تُعرف بزحامها وتحضرها يوماً عن غيرها من القرى، لكنني خشيت أن يعثر عليّ العم بهلول هناك، لذا أثرت المضي قدماً نحو الشمال الغربي البعيد، وبعد فترتي استراحة واتخاذ أكثر من طريق مهجور داخل الغابة وضلال طريقي لثلاث مرات وصلت وجهتي أخيراً مع طلوع النهار، وهناك تحاشت القرى الفُطلة على الغابة، واتخذت الطريق الصخري الملتف حولها والمؤدي إلى جبال الغرب وهي أكبر سلسلة جبلية في وادينا، ويُقال إنها تحتوي بين تشعباتها وأنفاقها أربعة من عابرات بلادنا

السن، والتي لم يرها أي من جيلنا، لأواصل تقديمي بالحصان بسرعة أخذ بعض الشيء مع أرض الطريق الوعرة الصاعدة إلى أعلى والهواء البارد الشديد الذي كان يقاوم تقدمنا.

قابلني أكثر من رجل مترجلين، فأوحيت لبعضهم بأن ناي نائمة، وآخرين بأنها نائمة، فلم يعبؤوا بأمرنا، لم أكن أعرف إلى أين أذهب تحديداً، كل ما كنت أبحث عنه هو مكان آمن أضع فيه ناي حتى أتدبر أمر ذلك الياخشال، ثم ظهرت في الأفق أمامي بعيداً قمة جبلية بيضاء يقطبها الثلج، فصحتُ ناي الحصان كي يسرع من خطاه، لنمضي قدماً، حتى توقفتنا رغماً عنا عندما انتهى الطريق أمامنا فجأة بأخدودٍ واسع عميق عمود الجرفين كان يستحيل على الحصان عبوره، حينذاك نزلت عن صهوة باحثاً عن أي فرع آخر للطريق، فلم أجد، لكنني انتهت إلى وجود سلم عمودي من الأحبال السمبكة على بعد أقدام مني، وسلم آخر في الناحية الأخرى، كان ذلك يعني أنها النقطة الأخيرة التي يتوقف عندها الحصان عن مساعدتنا إن أردت إكمال طريقنا.

مقلت الحصان جانباً في فتوة صخري، وجعلت ناي على كتفي وبحذر شديد وألم أشد صدر من فخذي العصابة هبطت سلم الأحبال إلى أرضية لأحرد، وعبرتها نحو الجرف الآخر حيث بدأت أصعد درجات سلمه بشق النفس حتى أنني كدتُ أسقط على ظهري وأسقط ناي محي لولا أن أطراف أصابعي تشبثت بالحبل في اللحظة الأخيرة. لا يمكن من الوصول إلى الصفة الأخرى، وقتئذٍ وضعتُ ناي على الأرض، وارتحيت بجوارها محسناً بفخذي العصابة وأنا أصرُّ بأساسي من شدة الألم، ثم نهضتُ أستكشف الطريق الذي أتته من بين ثلاثة طرقٍ ظهرت أمامي بين الحبل، وبعد حيرة اتخذت الطريق الأيمن منها، إذ كانت أرضه القريبة الأكثر استواءً.



عند تقطعي قرابة فرسخٍ حاملاً ناي أبصرتُ في سفح جبل جانبي كهفاً صغيراً يرمع خمسة عشر قدماً عن مستوى بحري، ويهبط منه منحدر رملي ضيق إلى جانب الطريق، فاندحرتُ إليه وصعدتُ منحدره، ثم أمرت ناي برفق

عند بابها لأتفحصه أولاً، كان كهفاً صغيراً لا تتجاوز مساحته دائرة قطرها ستة أقدام، يصرب الهواء البارد جدرانته الداخلية بقوة فمطبخ مروجته عليها وعلى أرضيته، تأكدت من خلوه من أي خطر، ثم أدخلت ناي إلبه برفق، واستكملت بطهري بجوارها كي أستريح لبعض الوقت، لأغضض عيني لا إرادياً مع إرهفتي الشديد لكنني سرعان ما تذكرت الحصان العالق على حافة الأخدود. فنهضت وعزمت على العودة إليه، وقبل أن أترك ناي أزلت حليها الذي زينتها به أمها أشاء حمري فبرها؛ علفاً ذهبياً وفروطين، ودسستهما في جحر قريب من الكهف خشية مرور أي ضالٍ يكتشف وجودها ويبحث عن أي عينة معها، ثم ساويت بيدي موضع أقدامي المنطبعة على رمال منحدر الكهف. وعدت مهتة بساقي الخارجة إلى الحصان، كان في نفس الموضع الذي تركته فيه، انطبعت وهبطت إلى أقرب قرية للطريق، وهناك هدجني الناس بنظراتهم المستقرية إذ كنت لا أزال عاري الصدر بنطالي ممزق وملطخ بالدماء، وأصليت طويلي مطمئناً نوعاً ما دون أن أحشى اعتقال الجنود لي إنز قسلي لأبي، فبالإضافة إلى عدم معرفة أحد لشخصي كانت تلك القرى تخضع لسيطرة جنود وأبنا القمامى لا جنود «تبييناء» الذين يسيطرون على أمن الجانب الآخر من الملة، ولا يحفى على أحد القطيعة بين هانين الفتتين، ثم سألت أحد العازة:

- أين حانة القرية؟

انزعج من هيتتي، فقلت:

- إنه حانت عارض، أرجوك أريد أقرب حانة هنا.

لنني على حانة قريبة، توجهت إليها مباشرة، كانت امرأة ثلاثينية بك شعر بني طويل مموج وعينين رماديتين تقف خلف طاولة تقديم الشراب شعرت أنها اضطربت هي الأخرى من هيتتي خاصة مع حواء العانة من التزيائن في تلك الوقت، فقلت:

- أرجوك، أريدك أن تدليني على من يبيع لك الثلج.

زالت حمرة الاضطراب سريعاً عن وجهها الأبيض المستدير، وقالت وهي تنظر إلى ساقي:

- هل هي إصاصة شديدة؟
مرت رأسي إيماناً، وكروث سؤالني عن دافع التلح، فقالت
- سيأتي في المساء، إنه يحضر تلح من قرية معبدة في الحنوف.
ثم نابت وهي تملف ذوباً بقطعة قماشية:

- هناك طبيب في القرية الواقعة حنوفاً، عليك أن تذهب إليه في الحال
والا سيمتس الفبح من حركك وقد تُتتر، لقد رأيت ذلك المصير مع
كثير من المهملين في إصاباتهم.

فنت:

- ليس لدي نفود، شكرًا على كل حال.

وعمت بالمفادرة، فقالت:

- لتزل له حصانك إذا استلزم الأمر.

شكرتها محدداً، ثم خرجت دون أن أكنث لحديثها عن الطبيب، لكنني
رعان ما فكرت في صحة حديثها، فإن تلوث جرحي وأدى إلى بتر ساقتي.
سببيل ذلك كل ما حثت ساعياً إليه، لن أستطيع إنقاذ ناي ساق واحدة.
صمت شفتي ثم عدت إليها مرة أخرى وسألتها:

- ما اسم الطبيب سيدتي؟

فأجابتنني:

- اسمه السيد «رسلان»، إنه أشهر شخص في القرية الأولى التي تيم
حنوفاً.

أومات برأسي إيجاباً ثم التفتت كي أغادر، فقالت:

- انتظر.

ثم دلفت إلى غرفة وراءها وعادت بعد قليل وهي يدها قعيص ومسطال
طبعان، وقالت:

- يمكنك أخذها.

قلت بأسفاً:

- ليس لدي نقود كما أخبرتك.

قالت:

- ربما يكون لديك بحلول العشاء عندما تأتي لمقابلة بائع الثلج، حتى وإن لم تمتلك لا يهمك على أي حال، إنهما ليسا جديدين، أتمنى لقطار يكون مقاسهما مناسباً.

ثم أردفت وهي تشير بيدها نحو باب في أحد أركان الحانة:

- وهناك مرحاض خلف ذلك الباب فيه وعاء ممتلئ بماء نظيف، نظف جسدك من آثار الدماء.

سألتها بأسفاً:

- ما اسمك سيدتي؟

قالت:

- سارة.

أومأت ممتناً لها ولكرمها، وبعدما نظفتُ جسدي في المرحاض ولست تلك الثياب شكرتها مرة أخرى ووعدتها بدفع ثمنها في أقرب وقت أمكنني المال، فنهضت رأسها موافقة، ثم شرحت لي الطريق إلى القرية الجنوبية التي يوجد فيها ذلك الطبيب.



عندما وصلت تلك القرية لم آخذ وقتاً لأستدل على بيت الطبيب «رسلان»؛ أشار أحدهم عندما سألته عن مكانه إلى زحامٍ شديد أمام بيت حشي هرب السقف، وقال:

- هناك.

كان الوقت حينها قد تجاوز منتصف النهار بقليل، هبطت عن حصاني ووقفت أمام الحيادة بين المتزاحمين من الرجال والنساء والأطفال دون أن

أعرف ما إن كان ذلك الطبيب هو الوحيد في تلك الأنحاء أم أنه ماهر للدرجة
التي جعلت كل أولئك الناس ينتظرون ساعات اللقاء من دون أن يسو على
وجوههم أي شعور بالتذمر.

قبيل غروب الشمس جاء دوري أخيرًا، دلفت عبر باب العيادة إلى ردهة
واسعة توجد في جانبها مكتبة كبرى صُنِّت على رفوفها كتب سمينة كثيرة،
وعلى الجانب الآخر رُصَّت أوانٍ صغيرة وآلات معدنية مختلفة الأشكال
والأحجام فوق طاولات خشبية قصيرة الأرجل، وفي نهاية الردهة كان مجلس
من حلف طاولة مُثَبَّت فوقها مصباح زيتي مُضاء ويقف بجواره مساعد شاب،
كما توقعت، عمره ستون عامًا أو أكثر، شعره أشيب قصير خفيف عند مقدمة
رأسه، حليق الشارب واللحية، عيناه خضراوان فاتحتان، وجسده ممتلئ
بعض الشيء لكنه ليس سمينًا إلى الدرجة التي تُلثث انتباهك، قلتُ له وأنا
أشعر بارتياح من هيئته الطيبة:

- لقد أصبتُ في فخذي بالأمس، طعنها أحد الجنود بسيفه، وأخاف أن
يتعفن القيح منها، لا أملك مَلا، لكن لدي حصان في الخارج عندما
أبيعه سأعطيك ما تريده من مقابل

نهض من مقعده وهو يشير إلى سرير جانبي ذي خبئية حلدية، مرقت
عليه وخلصت منطالتي، فأخذ يفحص فخذي وأسل قنسي بعناية شديدة دون
أن ينطق بشيء حتى عندما دس إصبعه في جرحي وهو يظنه سائلًا لا
أدركه وصرخت من شدة الألم كمثل عمله وكان شيئًا لم يحدث، ثم انتهى
نصفه فحدي بقماش نظيف، وسألني:

- كم عمرك؟

قلت:

- عشرون عامًا سيدي.

قال:

- إنك محطوط، صربة مثل هذه كان من المفترض أن تقطع أحد شرابين
محدثك الرئيسية، لككك نحوت، تحتاج فقط إلى تغيير هذه الضمادة كل
يومين، وسأعطيك بعض الأعشاب كي تتناولها كل مساء حتى التئام
الحرح تمامًا.

وأسار إلى مساعده، فأعطاني زجاجة من الأعشاب العُساة كان قد جهزها
بالفعل وسيده يحدثني.
فقلت مؤكدًا في هرج:

- بعد أن أبيع الحصان سأدفع لك ثمن هذا سيدي.
هز رأسه إيجابًا من غير أن ينفق، ثم أشار إلى المساعد كي يحضر
مريضًا آخر، فخرجت عائداً إلى القرية الأولى أملًا في اللحاق بمن يبيع الثلج
إلى الحانة.



كانت الحانة صاخبة ومكتظة بالزبائن عندما عدت إليها، قلت للسيدة
سارة التي كانت تنف مكانها وراء طاولة الأكراب مثلما قابلتها في الظهيرة:
- هل جاء الرجل؟

قالت وهي تملأ كؤنا مشراب من زجاجة نصف ممتلئة، وتناولته إلى نادل
يقف منتظرًا بصحفته:
- أعتقد أنه على وشك الوصول.

سألته وأنا أنظر إلى الزبائن الجالسين على الطاولات:
- هل تعرفين أحدًا قد يُبدل حصاني ببخل أو حمارٍ ويدفع لي فارقًا جيبًا
من المال؟

قالت:

- هل ذهبت إلى السيد «رسلان»؟
احتجها.

- نعم.
أردفت:
- ومتى ستعود إليه؟

قلت:
- بعد يومين، سأذهب إليه من أجل تغيير الضعادة.

قالت:
- إنني مُرّ عليّ قبل أن تذهب إليه أكون قد دبرت لك أمر استبدال الحصان.
وتابعَت وهي تشير إلى مقعد شاغر:
- سيقدّم لك سُلّاف النادل عشاءً، سأخصم ثمنه منك عندما تحصل على
مال حصانك، اجلس هناك وعندما يأتي هُمام، بائع الثلج سأناديك.
تمجّبتُ كرمها للمرة الثانية، وجلست على المقعد الذي أشارت إليه أنكر
لي ناي التي تركتها في الكهف.

ندم لي النادل طبقاً كبيراً به ثلاث كمكّات محشوة بالتمر، فأكلت واحدة،
وبسّطُ الباقيتين في جيبِي عندما نادّت لي السيدة سارة وهي تتحدّث مع
رجل كان القش يلتصق بثوبه وشعره المبللين، ونهضت إليهما سريعاً، فقال
رمو بنفحص وجهي:

- قالت السيدة إنك تنتظرنِي منذ الظهيرة.

قلت:

- نعم سيدي.

قال:

- كم لوخاً تريد من الثلج؟

أجبت:

- لا أريد ثلجاً، أريد فقط زيارة المكان الذي تحفظ فيه ثلجك، لقد سمعت
عن الياخشالات وأريد أن أراها.

نظر إلى السيدة سارة كأنها خبيث أمه في بيعة كان يأملها. ونظرت لي
هي الأخرى متعجبة. فقلت:

- أرجوك، إنني أريد بناء ياخشال من أجل حفظ شيء ما، وأستطيع العمل
معك دون مقابل، سأساعدك في توزيع التوزيع على الحانات، الله مشاك
تويًا ومعهود أن يلتزم جريح ساقني متجسني خير مساعد لك
قال.

- لست إلا عاملاً عند صاحب العمل، ولدينا من العمال ما يكفي لكي
إن أريد رؤية الياخشال فإنه ليس سراً، يمكنك المعنى، معي، لقد
أوصتني السيدة سارة بك، وهذه السيدة نحياها، ولا ترمض به
أو لأبها طلباً، فقط عليك الانتظار حتى أنتهي من توزيع أنواع البيع
على باقي الحانات، وسأعود لأحدثك معي، إن الياخشالات تقع على بعد
عشرين ميلاً جنوباً.

هزئت رأسي موافقاً في فرحة، وشكرت السيدة سارة من جديد، حف
في سعيك نحو المجهول يسخر لك القدر أناساً لا تعرفهم يشككون في عفت
الطريق، وسارة واحدة منهم.

ركبت مع همام عربته وعقلت حصاني في مؤخرتها، وتحركنا نحو الجنوب
ترتفع أحقادنا من اسر القارس في ذلك الوقت، بعد قراءة ساعتر وعث
إلى مسطرة طرفية في الجنوب تنتصب فيها سعة أراج محروطة ياه
ارتفاع الواحد منها ثلاثين قدماً على أقل تقدير، ورغم طهرها ألس عرو،
الشر من الصعب علي معاينتها ليد، غارت انتظار حتى تلوغ سحر
كي ألتصها جيداً، وحيداً فارقي همام عائداً إلى بيته

مع شروق الشمس سهل حصاني منواري، فتحت عيني متأسداً
موجدتني مستلق على الأرض بعدما غلبني الفعاس، وشدة عبة يسور
محواري ويحدثون إلي عاضبين، تساءلت وأنا أنهض من رقتي
- ماذا بكم؟!

لأن أسطهم بنوا متدماً.

أنت تهمي بطريق أنت وحصانك

وأشارا إلى عربة ذات حصان تقف على بُعد خطوات مني يوجد في
مسودتها اسداج يعطيه غطاء كبير من حلد العاشية، أدركت أنها عربة الشح
تأدم من قم اسدال، فيما فتح على الجانب الآخر مني باب أمرب لبخشات
امتدث لهم، ثم انتعدت أنا وحصاني عن طريقهم، وسرت وراءهم
سائرة إلى داخل الياحشال هابطاً سلمه الداخلي، كانت أرضيته المستديرة
محصنة من مستوى الأرض في الخارج قرابة خمسة أو ستة أقدام، وواسعة
تحتوي أربعة صناديق خشبية ضخمة يتدلى من كل واحد منها سُم عمودي
من الجدران صعوداً الصبية تناغاً وهم يحملون على أكتافهم مكعبات كبرى
من الشح طعونة بالنفس والحيش وحلود الحبيانات ليضعوها في دخلهم.
مرت إلى هيكَل البحتل الداخلي وحدرائه التي كانت نصيق كلما أرفقت
إلى أعلى تنتهي بفتحة دائرية في بقعة تظهر عبر السماء، وسألت أحد
الصبية وأب منبهر ببرودة الجو من حولي.

إلى متى تستمر صلاة الثلج قبل أن يذوب؟

قال:

أسبوعين على الأكثر.

هزرت رأسي إيحاناً في سعادة، ثم هزرت يدي على صدر الياحشال الدار
مكتفياً بيته، ثم طرقته برفق بقبضة يدي، كما قال صاحبي قديماً، كان
مصنوعاً من الرمال والطين وشعر الماعز، حاولت تبين إن كان هناك مكان
آخر غير تلك العنصر، بيد أن صوتاً أحسن نطق فجأة من خلفي.

ماذا تفعل أيي الشاب؟

التفت، كان رجلاً خمسينياً معتلى الوجه ثيابه نظيفة ورائحة عطرية،
أدركت أنه صاحب تلك الياحشالات، وبجوا ه وقف رجل آخر بدا أنه أقل شأناً.
تست.

- لقد جئت طالبًا للمساعدة سيدي، إنني أريد بناء ياخشال.
ضحك هو والرجل الآخر ساخرين، فقلت باقتضاب:
- إنني جاد في هذا.

سألني:

- من أي بلد جئت؟

قلت:

- من قرية تقع في الشمال، إنني قريب السيدة «سارة» مالكة الحانة التي
تشتري ثلجكم.

لا أعرف لماذا كذبت تلك الكذبة، لكنني أكملت كاذبًا:

- إنني صياد بري، وأريد بناء ياخشال كهذا لأحفظ فيه لحوم صيدي
أطول فترة ممكنة.

فكر ثم تساءل:

- هل لديك مال؟ إن بناء الياخشال مكلف للغاية.

قلت في حماسة شديدة:

- سأعطيك حصاني مقابل المؤن وأجر بناء واحد.

ضحك وقال:

- لست أنا من يبيعه، ثم إن حصانك هذا يكفي لبناء قدمين على الأكثر من
هذه التدران، إن بنائيه نادرون.

قلت

- لا أريد كل هذا الارتفاع، أريد ارتفاعًا يكفي لتبريد صندوق واحد صغير
فقط.

قال بنبرة هادئة:

- سيكلفك الكثير أيضًا، والارتفاع المنخفض الذي نتحدث عنه سيضطررك
لإحصار الثلوج كل يومين على الأكثر.

مَنْ يَنْفَعُ مَسْكِينًا نَمُّ قُلْتِ.
مَنْ يَنْفَعُ أُنَاسًا نَمُّ الْقَاعِ. وَسَأُسَاعِدُ الْبِنَاءَ فِي الْبِنَاءِ وَخَلِّطُ الْمَعُونَ وَحَمَلَهَا

ثم قال: أما ما كان كلامي لم يقنعه، فخطرت في بالي فكرة كرهت والتي
لم أذكر فيها لكشي لم أكن أملك غيرها مع إغلاقه كل الأبواب أمامي، وعدم
بني في بضاعة مزيد من الأيام، وقلت:
مسا، أنشي على بناء منهم، وسأعطيه المقابل الذي يريد.

مدل آبی یقف بحواره ضاحک!

ما المقابل الذي تدفعه؟

من أنسا وأما أنكر في خلي ناي:

يُيْجِزُ ثَمَنُ مِثْقَالٍ مِّنَ الذَّهَبِ سَاعَطِيَهُ لَكَ مُقَابِلَ بِنَاءِ ذَلِكَ الْيَاخُشَالِ، لَكِنْ
بِشَرْطٍ وَرَجَاءٍ، أَمَّا شَرْطِي فَأَنْ تَبْدَأَ فِي بِنَاءِ الْيَاخُشَالِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ،
وَأَنْ تُجِزَ بِنَاءَهُ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَأَمَّا رَجَائِي فَأَلَّا تُبَيِّعَ ذَلِكَ الْعَقْدَ مِ
ثْلِيهِ مِنْكَ لَاحِقًا عِنْدَمَا أَجْمَعَ ثَمَنَهُ.

دأت فکرتي بتاخير بناء الياخشال ليومين عندما تذکرت أنني لم أحدد بهماكل المناسب لمنائه، ووحدت حاجتي ليوم آخر غير اليوم الذي كما فيه لم أبحث عن مقصدي، لكنني في الآن نفسه فکرت في ناي وتلك الساعات لترتيب ماء دون وضع جسدها في الثلج، فتابعْتُ إلى صاحب الياخشال بما أدنى الساء موافقته على كلامي:

• أما أنت سيدي فأريد شراء منك صندوقاً صغيراً يتسع لنبیحة متوسطة الحجم وما حولها من ثلج.
رصدت اللحظة مفكراً وأكملت:

• ولوحار حشيان يتحملان عبور عربة ممتلئة فوقهما، طول الواح
مهما خمسة عشر قدمًا على الأقل، على أن ينقل تلك الأشياء «حمام»
القريني إلى ومعها تسعة ألواح من الثلج، وتسعة أخرى أخذها منه

غداً، وسأرسل لك معه اليوم قرطاً ذهبياً ثمنه أضعاف ثمن الأشياء التي طلبتها، مع الرجاء نفسه بأن تحافظ على ذلك القرط حتى أستعيد منك.

استغرب طلبتي، فقلتُ مبرداً:

- هناك صيد أود الحفاظ عليه حتى اكتمال بناء الياخشال.

فابتسم وقال:

- لك ما طلبت.



كان الحو لا يزال بارداً داخل الكهف عندما عدت إليه قبيل غروب الشمس لأطمئن على ناي وأخذ قرطها إلى مقام الذي أصرُّ على ضمان حقه أولاً قبل أن يسمح لي بإكمال الطريق الجلي بعربته وحدي، ساعدني للوحان الخشبيان على عبور العربة للأخدود، ورغم التعب الشديد الذي أصابني وأنا أحمل الصندوق إلى الكهف إلا أن ملاءمته لجسد ناي أنساني كل شيء، ثم حال في ذهني وأنا أنظر إليها وهي دائمة كالملاك بين ألواح الثلج بيئة سليمة لم تُصب بأي تغيير أنها تمتلك صفة الاحتفاظ بجسدها كالطينين الأتقياء، لكنني واصلت تغطية جسدها بالثلج لتختفي تماماً عن بصري وأنا أتعلم لنفسي:

- ما دمتُ غير متيقن من ذلك الأمر فلا مجال للمجازفة.

أعدت العربة ليغام، وعدتُ لأنام في الكهف بحوار صندوقها تلك الليلة، وما إن طلع النهار حتى خرجت لأبحث عن المكان المناسب لبناء الياخشال، كار، في نالي البحث عن مكان يحمل مواصفات معينة! يكون قريباً من الطريق الصاعد إلى قمة الجبل الثلجية، وفي نفس الوقت متورباً عن الأنظار لا يصل إليه أحد بسهولة، وبما حدا لو لم يكن بعيداً للعبادة عن القرية، فأحنت أنحت بحصاني اليوم بأكسله متفلاً من وادٍ إلى وادٍ، حتى عثرت على مراني في النهاية، سهل رمي ضيق بين بل صغير وجبل شاهق تميل منه نحو

منه انزل لتحبب السماء عن الأرض أسفلها، الطريق إليه ملتوي لا يمكن لأحد الوصول إليه بسهولة، وليس بعيدًا للغاية عن الطريق الصاعد إلى القمم الخمسة أبرجت من اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام حصاني ذلك السهل أنه المكان المناسب، حتى عندما أحضرت البناء إليه تعجب من اختياري ذلك المكان، وأقسم أنه لن يحمل المؤن إليه ما نامت العربى لن نستطيع بلوغه، أحسنه بأنني سأحمل على صهوة حصاني كل ما يحتاج إليه من عربته، التوافقة على جانب الطريق الجبلي إلى أرض السهل: أجولة من شعر الماعز، ودرجات معتلة ببياض البيض، وطعمي من مستنقعات الغابة، ورماد ناعم للغاية، وأوان من الماء، حملتها تباغًا إليه بينما كان يحفر أرضية الياخشال المائية، أما الرمال فلم يكن أكثر منها في أرجاء السهل.



استغرق بناء الياخشال أربعة أيام كاملة رغم ارتفاعه الذي لم يتجاوز عشرين قدمًا، وفي صباح اليوم الخامس كان الصندوق الذي ترفد فيه ناي يتمركز في منتصف أرضيته أسفل فتحة قمته التي تظهر عبرها الصخور الحبل الذي يعطي السهل، تذكرت وأنا أنظر نحو تلك الفتحة حديث البناء وهو يخبرني عن دورها في إخراج الهواء إلى الأعلى كمدخنة في حين يدخل الهواء البارد إلى الياخشال عبر فتحاته الجانبية السفلية، لتحث دورة تبريد كاملة تُصقلها الجدران العازلة للحرارة التي صنع خلطتها بنسب لا يعرفها الكثيرون.

للأسف اضطرت إلى مبادلة القرط الآخر بمزيد من ألواح ثلج همام بعدما استغرق البناء أيامًا أكثر مما توقعت، وإن أخبرني في المرة الأخيرة بأنه لن يحضر لي ثلجًا مجددًا إذ كان ما لديه يكفي بالكاد حانات القرى، كنت على كل حال أنوي الاعتماد على ثلج القمم الجبلية في الأيام التالية مع فقدان كل خلي باي وعدم امتلاك أي قطعة نقود إضافية.

في اليوم السادس عدت مرة أخرى إلى حانة السيدة سارة، قالت بأسعة عدما وأتني أدلف إليها:

- مرحبًا أبها الصبياء، كيف حالك؟

أبركت أنها تذاذت الحديث مني مع همام، فقلت بأسف:

- إني سحر. هل استطعت إبعاد من يستبدل حصاني معمار أو يعز،
فالت:

- نعم، مند يومين والمق رجل على مائدة حصانك بفضله، وسيعطيك غارل
ثلاث عشرة قطعة نحاسية، لقد ضمنت له حصانك على مسئوليتي
فترك لك كيس النفود هنا، وعقل بفضله في إسطبل الحانة الخلفي
انتمت شامرا لها، فأخرجت لي كيس النفود، فصالتها.

- كم أدب لك من المال، الملاص وطعام اليوم الأول؟

فالت بأسفة:

- لا شيء، كانت هدية لك من حائنا، لقد عرفت عنا إكرام الضيوف، سأع
مقابل في المرات القادمة، إن مفك في الإسطبل الخلفي، ولا تترا
تعقل حصانك مكانه

شكرتها كالعادة، ثم اتحت بسفلي إلى الطبيب رسلان الذي كان مر
المنصر أن أروره قبل ستة أيام، كان الزحام كثيفا هناك أكثر من العرة
اسافة، حاسة مع إحصار الأهالي لأربعة شان تنزف أجسامهم معررة بـ
عراكم مع بعض الأشقياء، وأمره بإحاليهم أولا، فانتظرت بين الشفة في
الخارج أتايع حروح أولئك الشان مضعدين واحنا وراء الأخر، حتى جاء يوم
فدلفت إليه، كرر ما فعله في العرة الماضية بيد أن ألم فخذي كان أهد كثيرا،
ثم انتهر من لف صمادته فأعطيت لمساعدته قطعتين نحاسيتين، وهمت
بالمعادرة لكنني وقعت قبل الباب، والتفت إلى الكتب الكثيرة المصنوعة على
رموب مكتته، ودا في رأسي ما فعله مع الشان الحرجي، لأستدير إلى
وأسأله:

- هل تستطيع إصلاح قلب إسان طبع بالزُمج سبدي؟

كان إبصاري مشوش للغاية عندما عبرت دائرة الضوء إلى جانبها الآخر. استغرق ذلك التشوش أكثر من دقيقتين قلما يعود بصري إلى طبيعته وأجد نفسي في نفق جبلي مظلّم، التنفّس فيه صعب للغاية، وشديد البرودة للدرجة الصّغيع، في حين اختفت دائرة الضوء تمامًا وحلّ موضعها جبل صخري مُصمت كنت أُنحسسه بيدي عندما سمعت صوت حاك يُنادي باسمي يا حنّ عني، أجبته بخوف وأنا أرتجف من البرودة:

- إنني هنا، لقد تحولت بوابة الضوء التي عبرناها إلى جناح صخري، هل تستطيع أن تنير شاشة هاتفك كي أستطيع رؤيتك؟
قال:

- لقد تعطلّ، كعادة عبور السرداب، هيا إن هيكّل الذئب يصبر على مواصلة السير، أعتقد أنّه يعرف سبيلًا للخروج من هنا النفق.

تحركت في الظلام بحذر ناحية صوته حتى أسسكت بذراعيه، ثم بدأ الذئب يتحرك بنا شاقًا ذلك النفق المتعرج دون تعثر وكأنّه سار في ظلامه مئات العرات من قبل، سألت خالد وجسدي لا يزال يرتجف:

- أين نحن؟ ساموت من البرودة.

قال:

- لا أعلم، لكنّها ليست البلاد التي زرتها من قبل، لم يكن الطقس بارئًا هكذا.

انعطف ما الذئب نفاة إلى معر جانبي فارتطم جسد خالد ببروقه صعب
ثم بسطه لولا أنني أمسكت به، إبتعالك نفسه وبكمل الطريق خلف الذئب
لأعنا له، انعطفنا بعد ذلك في أكثر من معر. حتى ظهر بجسب من العود
أحيزاً في الأفق أمامنا، كان واضحاً أنه نور القمر، انطلق بنا الذئب معي
لنخرج من النفق لاهئين مقطوعي الأنف، وحينذاك قبض خالد على الحبل
بقوة فلم يستطع الذئب القفز عرج، نظرت حولي كانت قمم الجبال المعطاة
بالتلوج تحيط بنا من كل جانب أسفل ضوء القمر والنجوم، تحسنت حسنة
الثلج أسفل قدمي وهبطت لأمسكها وأفركها في يدي فذابت، وقلت:
- يبدو أننا على ارتفاع عالٍ جداً عن سطح الأرض.

إلا أنه لم يُجيني، نظرت له، كان يحدق نحو السماء مشدوقاً، فنظرت ل
الأخرى إلى السماء وهالك انتبهت إلى وجود بدر آخر فيها، لم أكن قد أشهد
له، فنهضت متسائلة في دهشة كبرى وقلبي يدق قزعا:
- بدران في السماء؟

بينما هبط هيكل الذئب العظمي على قائمتيه الأماميتين مُخَفِّصاً حسنة
وموجهها نحو أحدهما كأنه يخضع له، فقال خالد هامساً وهو ينظر إليه:
- إننا في موطن الذئب الأصلي.
سألته:

- وكيف سعود إلى موطننا بعد اختفاء دائرة الضوء التي عبرناها؟
صمت مفكراً ثم قال:

- علينا أن نعرف أولاً أين نحن، ومن ثم نبحث عن طريق آخر لسعود إلى
وطننا

ثم حذب حبل كمامة الذئب بقوة أكبر إذ كان واضحاً قوة التصاق الحبل
بشفرات الرقبة حتى أنه صرّ بأسنانه وهو يريد من قوة حذبه، حتى استند
برع التمسحة أخيراً عن باقي الهيكل، وحدث باقي الهيكل يتحرك في اتجاه
التمسحة التي نزعها، فصرحت إليه كي يحدس، ففتح حذبه السوياء مرة

والحممة في داخلها، فانهارت عظام الذئب إلى الأرض منفصلة كبناء
من أهار فتاة، بعدئذ النقط تلك العظام ووضعها هي الأخرى في حقيبتها
ساعتان بوجه عينيه نحو البدر الأكثر سطوعاً الذي انحس له الذئب، قبل أن
يتم سحاب حقيبتها ويقول:

مهما جاء بنا هذا الذئب إلى هذه الأرض، فسيكون هو السبيل أيضاً
لعودتنا إلى أرضنا، إنه يعرف الطريق إليها منذ مائة عام.



نبأني موضعنا حتى طلع المهار بعد أقل من ساعة، ومعه انكشفت
رؤية تماماً في الأفق من حولنا، تحركت بعيداً عن خالد بعض الشيء وأخذت
لتند جميع الجهات، ثم ظهرت الشمس بعيداً خلف سحابة كبيرة فوضعتها
من يميني لأحد الاتجاهات الأربعة، ثم أعدت تفقد الأفق مجدداً، وقلت لخالد:
تمت الحبال في جميع الاتجاهات عدا الاتجاه الشرقي، هناك رقعة
شاسعة من الأشجار وكأنها غابة كبرى.

نظر إلى اتجاه يدي الذي كنت أشير إليه، وقال:

- إنهم في وجهتنا القادمة، إن كان هناك بشر يعيشون في هذه الأرض
فيكونون بالقرب من تلك الأرض الخصبة.

وافقته على ذلك، ثم سأله مجدداً:

- ألا تذكر مكاناً كهذا في أي زيارة سابقة لك؟

قال:

- مع وجود تلك الغابة وذلك القمر الإضافي في السماء صرت متيقناً أننا
لسنا في جوار زيكولا حتى، ادعي الله أن نكون محظوظين ونجد أي
بشر نعرف منهم أين نحن.

سعدنا مبطنا الحبل إلى طريق صخري يمتد متعرجاً نحو الشرق، وبين
حين وآخر كنا نلذت تحسبنا لظهور أي خطر مفاجئ، لكن شيئاً لم يحدث

طوال الطريق الذي قطعناه حتى منتصف النهار، أنهيتُ آخر شربة ماء من
انزجاجة لصغيرة التي كانت لديا في الحقيبة، وتساءلت كي أفتح نقاشم
خالد الذي ظل صامتاً أغلب الطريق:

- هل طرأت خطة ما في بالك؟

قال:

- أتأكد أولاً هل نحن في عالم زيكولا وأماريتا أم لا، إن كان الجواب نعم
فهناك أمل بالعودة إلى وطننا، وإن كان الجواب لا فنحن في ورطة.

أومأت براسي إيجاباً ثم أكملت الطريق خلفه يبطئ من حركتي، لينطلق
والجبنز الضيق الذي كنت أرتديه، حتى أن خالد ابتعد عني بعشرة أمتار على
الأقل، ثم امتلأت مثانتي عن آخرها فصحت إليه كي ينتظر، وانعرجت في سر
جبلي جاببي باحثاً عن مكان متوارٍ أقضي فيه حاجتي، ثم انتهب فانتبهت
إلى شيء، يلعب بين الرمال، التقطته، فوجدته عملة نحاسية منقوشاً على
جانب منها رأس ذئب، بحثت في الرمال على بعد أمتار أخرى، كانت هناك
عملة أخرى، كان ذلك يعني أن بشراً ما كانوا هناك من قبل، تحركت باحثاً عن
أي عملات أخرى، عابرة وديان صغيرة وممرات متشعبة دون أن أدري، حتى
توقفت عندما رأيت أمامي بناءً دائرياً طينياً مهدماً يتوسطه صندوق خشبي
قديم، اقتربت منه ودرت حوله وأنا أتحسس حائطه المشيع بشعر العائنة،
ثم عدت ركضاً إلى خالد، وقبل أن ينطق متذمراً من تأخري أريته العملتين
اللتين عثرت عليهما، وقلت:

لقد عثرت على هاتين العملتين، وهناك بناء قديم مهدم في الجوار

ركض ورأني ناحية السهل الرملي الواقع بين تل وجبل مائل إليه، ثم
توقف أمام حطام البناء، وقال وهو يحدق إلى أرضيته الداخلية المنخفضة
نسيباً عن خارجه:

- يشبه مخازن الغلال القديمة في القرى، وجوده مع وجود الصبورة
والعملتين يؤكد وجود بشر قريبين.

المرحى أسارى، ثم بحثنا عن أي شيء في الحوار له صلة بالبشر فلم
نجد. فمما إيس طريقنا لمواصله نحو الشرق، لتقابل العلامة الثالثة الدالة
من قرب البشر وهي سلاسل الأحبال المثبته على حرفي أحدهم عميق عذراءه
والكسب الطريق من بعده، حتى ظهر في الأفق أخيراً مع اقتراب الشمس من
مدينتها تجمع من بيوت منخفضة ذات أسقف هرمية، تتناثر في أرض مستوية
متركة مساحات كبيرة بينها، وحينها قلت:

- يبدو أنها قرية صغيرة، أظن أنه من الأفضل أن ننتظر هنا، ونراقب من
بعيد ظهور سكان تلك البيوت لعلنا نتحاشى خطراً يقع في انتظارنا.
صمت مفكراً وهو يحدق نحو القرية، ثم هز رأسه موافقني في النهاية،
معتباً اتخذنا مكاناً على جانب الطريق يعطل مباشرة على تلك البيوت في
انتظار ظهور أول كائن حي، إلا أن ذلك لم يحدث، إذ بقينا حتى أطلعت
السماء وظهر القمران فيها من جديد، فاتفقنا على أن نعكس الليلة في مكاننا
وأن نهبط القرية مع طلوع الشمس باحثين عن أي أناس فيها، والأهم عن أي
سبل للبقاء على قيد الحياة بعد شعورنا بالجوع والعطش.

كالليلة السابقة كان نور أحد النورين كافياً ليكشف الأرجاء من حولنا
كأنه مصباح شديد الإضاءة علّق فوقنا، فيما تضائل الآخر نوراً وحدث ليصير
أحدهم تركت خالد وتحركت في الجوار باحثاً عن شيء خطر في يائي حتى
عثرت على غصن شجرة طويل وجاف، وعدت به إليه، حيث كسرت به إلى قطع
قصيرة، صنعت منها هرمًا، ثم ضربت حجرتين صغيرين ببعضهما فأطلقنا
شرراً لم يأخذ وقتاً حتى أشعل النيران في تلك القطع، فقلت متباهية عندما
رأيت نظرة إعجاب على وجه خالد:

- لطالما اعتدنا فعل ذلك في رحلاتنا الاستكشافية إلى صحراء الفيوم
بحثاً عن الحفريات.

لبنسم وهو يقرب يده من النار لقدفتتها، ثم سألتني:

- كيف يستطيعون تحديد عمر الحفريات؟

قلت بنمرة التباهي نفسها:

- هناك فارق بين كم عاشت الحفرية؟ ومتى ماتت؟ كم عاشت نعوذ بها من
خصائص معينة في أنسجة العظام، فمثلاً يكشف لنا تتابع الحفلات
في المقاطع المستعرضة التي نحصل عليها من عظام الحفريات عند
السنوات التي عاشتها تلك الحيوانات، أما متى ماتت فهناك طرق معينة
أشهرها النظائر المشعة مثل «كربون 14» و«يورانيوم 235» التي
تحدد كميتها في أنسجة الحفرية عبر جهاز يُسمى «مطياف الكتلة».

ثم أخذتُ أشرح له تفصيلاً عن فترة عمر النصف لكل عنصر مشع من
تلك العناصر، والسنوات التي تستغرقها تلك العناصر لتقل إلى النصف في
الحفريات، ومن ثمّ يستطيع العلماء تحديد الوقت الذي ماتت فيه الحفريات.
أوما برأسه موحياً لي أنّه فهم ما شرحتّه، فلم أثقل عليه بصريد من المعلومات
المرهقة خاصة بعدما تشاءب أكثر من مرة، فتتاءمت أنا الأخرى، ثم رقدت على
طهري بجوار النار أتأمل الندر الساطع في السماء، وأفكر فيما تدّ يحسن
مع طلوع شمس اليوم الجديد، وفعل خالد الأمر نفسه، لينال مني الناس
سريئاً بعد إرهاب النهار وعدم نوم الليلة الماضية، لم يوقظني بعد ساعات إلا
شخير خالد الصاخب الذي طُبر النوم من عيني، فنهضت وتشبّبت حظاري
بعيدة عنه، ثم جلست فوق صخرة تطل على القرية والغابة التي تظهر خلاب.
يتيمس أن تلك القرية مهجورة بعدما لم أبصر فيها مصدر ضوء واحد، وأخذتُ
أؤنب نفسي على تهوري غير المحسوب الذي علقت بسببه بي تلك الورطة،
كن عليّ البقاء في الإسكندرية وإكمال رسالتي العلمية ونسيان أمر بك
الدّب تماماً، كيف حال أُمّي في تلك الساعات وهي لا تعرف عني شيئاً؟ كنت
أنا مرافقها الوحيدة بعد وفاة أبي وزواج أختي الكبرى، أخشى أن تموت تلقاً
عليّ، لا، لا بد أنّها ستهاثف هروق، ولا بد أنّ فاروق سيبحث عني في القربى
وسيجد سيارتي هناك، وحينها سيبليغ الشرطة عن عيابي وسيتهم خالد اتهاماً
مباشراً بتسببه في ذلك الأمر، ستستحوب الشرطة زوجة خالد، ستفبرهم

بنورها عن أمر السرداب كي يبحثوا عن زوجها الغائب هو الآخر، ربما يكون
نديم أحدهم في أثرنا هو أملنا الوحيد.

تقلب خالد على جانبه الأيسر وكاد يلمس النار، فنهضت سريعاً كي
أبعده، لكنه عاد إلى جانبه الآخر مرة أخرى ما إن اقتربت منه، هناك سمرت
إلى حقيقته السوداء التي كانت تتموضع على الأرض بجواره، وفكرت في
وعده لي بإعطائي العظام بعد إنقاذ ابنته، وأخرجت زفيري، إن كما في موطن
الذئب حقاً فلا أظن أننا سنغادر بها أبداً حتى وإن نجحنا في إيجاد طريق
للعودة، لكنني على الأقل أستحق فحصها عن قرب ولو لمرة واحدة لعلي أسجل
ملاحظات لم يسجلها الغرب عنها من قبل، كنت أعرف أنه لن يسمح لي بذلك
ما دمنا لا نعرف شيئاً عن مصيرنا، فجال في بالي أن أنتهز فرصة نومه
العميق التي ربما لا تتكرر لاحقاً وأفحص العظام سريعاً، وبدون تفكير حس
الحقيقية في سكون وأنا أراقب وجهه النائم، ثم تحركت بها بعيناً على أطراف
أقدامي، وفتحت سحائبها ببطء وأخرجت العظام تباعاً، كانت تفاصيلها
ظاهرة للغاية مع ضياء الصدر، العظام أطول حقاً وأكبر حجماً من عظام السن
الرمادي، أما الفارق الأكبر فظهر حلياً في الجمجمة ذات الحجم الكبير، مررت
الكمامة الجلدية عن فكها الكبيرين، ومزرت في انبهار يدي على أوجها
السفلية وضروسها القوية، شعيت في تلك الأثناء لو امتلكت هاتفاً يعمر من
أحل تصوير تلك اللحظة الفارقة في حياتي وربما في علم الحضريات الخفية
بأكمله، وأخذت أقلبها في يدي وأنا أنظر لمحزني عينها وأمد إصمري بها،
وأمسس:

- لم نعد في السرداب اللعين على أي حال، ليس ما صورة لعورت
تحلق إليها.

هبت ريح معاذمة، فمحرحت الحقيقية أفذافاً بعيدة عني، فهضت وأنا
أحل الجمجمة لأمسك بها قبل أن تتطاير بعيداً في أحد السارد ولا أستطيع
الوصول إليها، لكني ما إن أمسكت بالتحفة والتفت حتى وجدت دمار العظام
قد تجمعت لتشكيل هيكل عظمي للذئب يفقد على قوائمه الأربعة نور حمم

وفي لمح البصر وجدت ذلك الهيكل يقفز نحوي، سقطت على ظهري من
المفاجأة، وقبل أن أدرك ما حدث كانت العظام قد التحمت مع الجمجمة التي
فتحت فئتها عن آخرها نحوي، أغضت عيني رعباً وأنا أصرخ، فاستمر
حيث كنت وركض بعيداً نحو الحبال، عدت سريعاً إلى خالد، كل لا يبال
فائثاً، مدت يدي المرتعبة كي أوقفه، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، لقد
اخفى الهيكل العظمي على كل حال ولن تستطيع اللحاق به، فعدت وأمسكت
بالحقيبة الفارغة ثم وضعت فيها بعض الصخور الصغيرة حتى صار وزنها
مماثلاً لوزنها لسابق بالعظم، ثم وضعت الكمامة الجلدية معها، وأغلقت
سحابها، ويحذر شديد أعدتها إلى مكانها بجوار خالد، ورددت لي الموضع
نفسه الذي كنت أنام فيه، أنظر إلى البدر الساطع في السماء بينما تميل
دموعي على جانبي وجهي خوفاً مما سيفعله بي ذلك الرجل عندما يكتشف
أنني أضعت نثبه.

نوح

سألت السيد رسلان:

- هل بإمكانك إصلاح قلب طعن برمح، سيدي؟

اجابني بغير اكتراث وهو يجلس وراء طاولته:

- دائمًا ما يصل العطعون قلوبهم موتى.

عدت إليه وقلت:

- لكن هل جريت من قبل إصلاح قلب بشري ممزق؟

حز رأسه نافيًا وقال:

- لا.

قلت:

- لقد رأيت حرصك على مداواة الجرحى ولو لم يمتلكوا مالًا مشي، مارا

إن كان هناك شخص مات بطعنة في قلبه، وهناك فرصة لإعادته للحياة

يومًا ما، بشرط أن يكون قلبه سليمًا.

أطلق مساعدده ضحكة ساخرة، أما السيد رسلان فقال في حنية:

- علمنا الطب يا بني أن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الشك.

فكرت قليلًا ثم قلت:

- لنفترض سيدي أن هناك شخصًا هكذا، هل تستطيع فعلها؟

قال:

- حتى وإن كنت أستطيع، بقاءه ميتاً يعني فشل العملية برمتها، إن التثام الجروح عملية معقدة تحتاج إلى دورة لمعية نشطة تهاجر من خلالها عناصر الالتئام إلى مكان الجرح كي يكتمل التثام قبل ذوبان الخيوط الجراحية، وهذا لا يتوفر في الموتى.

وابتسم وهو يتابع:

- إن كنا نعرف متى ينهض الموتى لأصلحنا قلوبهم المعززة قبلها بساعات.

قلت حينذاك بعين لامعة في حماس:

- إنني أعرف متى سينهض.

لكنني سرعان ما تابعت متردداً:

- لا أعرف اليوم تحديداً، لكنه سينهض يوماً ما.

ثم جالّ في خاطري شيء لم أفكر فيه قبل تلك اللحظة، فقلت:

- هل تقبل بي خادماً لديك سيدي؟

هنالك تحرك المساعد نحوي كي يخرجني متعللاً بأنني أضعت على سيدي وقت مريض آخر، فقلت وهو يدفعني نحو الباب:

- أرجوك سيدي، لا أريد تقاضي أجر، سأخدمك بلا مقابل، أستطيع أن أنظف الأرضية هنا وأحمل المرضى وأمنع شجارهم في الخارج.

لكنه لم ينطق بشيء، فخرجت خائب الأمل، وركبت بغلي مطاؤون الرأس متجهاً إلى قرية أولاً لشراء بعض احتياجاتي، ثم إلى الياحشال لأبيت ليلي خارجه مدثراً بدثار صوفي قديم كنت قد اشتريته هو ومعطفاً ثقيلاً وأنا وبعض الطعام مقابل أربع قطع نحاسية.



في الصباح التالي كانت رحلتي الأولى نحو قمة الجبل الثلجية ركبت علي شاة الطريق انصاعد إليها وسط الريح الشديدة الباردة حتى وصل إلى منح

حصل المواد بعد منتصف النهار بقليل، وهناك تركت بغلي وبدأت صعوده بصعوبة متكتأ على فأسى، إلا أنني عندما وصلت قارب لعمه وجدت شحاً قد صار هشاً، إذ أذابته الشمس الساطعة، وأدركت خطتي حينها بتأخير كل ذلك. فبوت من النهار، فإن كنت أريد الثلج صلباً فعليّ التحرك ليلاً لبلوغ تلك القمة قبل طلوع الشمس، وهذا ما فعلته في اليوم التالي، إذ تحركت مع منتصف الليل مصطحباً مصباحي الزيتي لأصل قمة الجبل قبيل الفجر، وأكسر ثلاثة قطع كبيرة من الثلج، وألقها جيذاً بجلد المعاز الذي كان قد تركه لي، فقام، في آخر مرة، وأحبط بها تباغاً إلى بغلي، لأحملها على ظهره، وأجره عائداً إلى صندوق ناي مع منتصف النهار.

حافظت جلود المعاز على وصول الثلج إلى الياخشال في حالة جيدة، أما الياخشال نفسه ففارق توقعاتي إذ أبقى الثلج الذي اشتريته من همام، آخر مرة صلنا لأكثر من خمسة أيام، لذا تركت الثلج التي أحضرتها خارج الصندوق وأحضرت غيرها في اليوم التالي، لأصغها مغلقةً بجواره، ومع الأسوع الأول أدركت أن قطعة الثلج التي أحضرها من قمة الجبل تبدأ في نوبانها بعد ستة أيام كاملة، لذا اتخذت قراراً بصعود الجبل ليلتين متتاليتين كل أسبوع أحضر خلالهما الثلج الكافي لقمر جسد ناي، أما بقية الأسوع نكت أعط إلى القرية للبحث عن عمل وإحضار الخبز بعدما اتفقت مع أحد الخازين على شراء رغيف خبز يومي لمدة شهر كامل مقابل قطعتين نحاسيتين نالهما مني مقدماً، لينتبقى معي خمس عملات فقط من ثمن الحصان.

نهبت بعد أيام من البحث عن عمل دون جدوى إلى الطبيب رسلان مرة أخرى، وفي تلك المرة لم أنطق بشيء، فقط انتهت من تصميت حرمي وأعطيت مساعده قطعة نحاسية، وخرجت إلى حانة السيدة مارة. وهناك جلست على إحدى الطاولة أحترسي شراباً ساخناً، وجاءت وجلست على مقعد لسمي، وقالت بأسمة:

- هل عاد صديقك للحياة؟ أم لم يعد بعد؟
تعلمت من معرفتها بالأمر، لكنني هزئت رأسي نفياً وحسب، فقالت:

- لذلك كنتُ تبحث عن بائع الثلج، أليس كذلك؟ لستُ صيادًا كما تدّعي.
فكرتُ فيما قالته، ثم قلت:

- نعم.

قالت:

- أحو غايٍ عندك إلى هذه الدرجة؟

أومأتُ إيجابًا، فتابعت:

- إنَّ الموتى لا ينهضون يا فتى.

قلتُ مقتضيًا:

- ستنهض.

لمعت عينها وهي تقول باسمه بأسنانها الرائعة:

- امرأة 19

قلت:

- نعم، حبيبتي.

قالت:

- اعمم.

ثم أردت:

- لقد أخبرني أبي عن طلبك العمل معه.

نظرتُ في عينيها، كانت المرة الأولى التي أعرف أنها ابنة الطبيب رسلان،
وانتهيت وقتنّذ إلى تشابههما الواضح الذي لم ألاحظه من قبل، فقلتُ بشيء
من الحزن:

- أردتُ أن أتعلم منه ومن كتبه لعلّي أستطيع إصلاح قلب حسرتي يومًا.
ما.

قالت:

- إنه يظن أنك محنون.

قلت:

- وماذا تظنين؟

قلت:

- الأمر نفسه.

قلت وأما أتذكر طبيبتها معي منذ قدمتُ إلى تلك القرية:
- أريدك أن تأتي معي لأريك شيئاً.

تكررت اللحظة ثم صاحت إلى الغادل بأنها ستغيب بعض الوقت، وارتدت
مغطىها وخرجت معي، لأقودها ببغلي إلى السهل الذي يقع فيه ياخشال ناي،
رسانك فتحت الصندوق الخشبي وأزلت قطع الثلج التي تغطي وجه ناي،
نعتت واحتن وجهها خوفاً واضطراباً، قبل أن تتمالك أعصابها وتقول:
- كم من الوقت مرَّ على موتها؟!

قلت:

- ثلاثة أسابيع تقريباً.

نظرت إلى هيئة وجهها السليمة، ثم أزلت مزيداً من قطع الثلج المغطى
لجسمها، وتحسست بيدها جلدتها وهي تقول:
- مستحيل.

قلت:

- لقد ماتت في اليوم الذي سبق زيارتي الأولى لحايتك.

ابتلعت ريقها، وقالت متعجبة:

- لا يحافظ الثلج على الأجساد بهذه الجودة.

قلت:

- إنها مكدية.

تركت قطعة الثلج التي كانت تحملها في يدها، ونظرت لي نظرة مطولة
وقالت:

- لقد مات العليديون منذ زمن بعيد، قبل أن نولد جميعًا.

قلت:

- إنها قصة طويلة، سأحكىها لك في طريق العودة إلى القرية، لكن هذه
الفتاة بحاجة إلى إصلاح قلبها المطعون قبل أن يعود الشاهد إلى
السماء، إنه جزء مخفي من النبوءة لا يعرف عنه الكثيرون.

ابتسمت:

- أنت من المؤمنين بالنبوءة إذن.

قلت:

- صرت مؤمنًا بها بعد موت ناي.

تساءلت:

- ومن يعرف بأمر هذا الياخشال وهذه الفتاة؟

قلت:

- أنت وحسب، كان البناء من قرية بعيدة، ويظن أنني شبيته من آخر
حفظ صيدي.

قالت:

- ربما إن عرف أحد بهذا السر وأفشاه قد تُقاد إلى الشق على أيدي
الجنود.

قلت:

- لن تخبري أحدًا، أليس كذلك؟ لقد جئتُ بك إلى هنا لأنني استعرتُ
فيك مروءة لم أجدها في كثيرين.
ثم صمتت وتابعتُ سريعًا:

- وإن كان هناك أحد قد يستطيع إقناع السيد رسلان بقبوله عملي معه من يكون إن أبت، إنني أنرسل إليك بأن تحدثني أبيت مرة أخرى بشأن عملي معه. إنني سريع التعلم، أريد أن أتلمذ على يديه، وأنعلم من كتبه، لعلني أكون قادرًا على إصلاح قلب ناي الممزق وقتما يعود الشاهد الظهور.

نظرتُ إلى ناي من جديد، ثم أعادت قطع الثلج إلى مكانها فوق جسدها، وأغلقت الصندوق برفق، وقالت:

- احكِ لي قصة الفئاة كاملة وقصة الجزء المخفي من النبوءة وبعدما سأقرر ما علي فعله بشأنك وشأنها.



كانت الشمس قد غربت عندما انتهيت من سرد قصتي وقصة ناي إلى السيدة سارة، أخبرتها كل شيء بداية من يوم ولادة ناي إلى لحظة موتها، مرورًا بما فعلته بأبي، ظلت صامتة تُنصت إلي دون أن تعلق بكلمة. إلى أن أفرغتُ ما في جعبتي كله، فقالت:

- لقد زرتُ حائط الرؤى في «تبييانا» في طفولتي مع أبي، ولم أُنسَ إلى تلك الحروف التي ترمز إلى الجانب المخفي من النبوءة، لكن أيا ما كانت ترمز إليه صارت رؤية الشاهد لذئب «صامور» ضربًا من المستحيل بعد كل هذه السنوات، أينعم احترس الناس لسنوات بعد اختفاء الشاهد، لكن مع مرور الوقت بات الجميع يدركون أن تلك النبوءة كانت مزيجًا من خيال كاتبها، أرى أنك تتعقق بالنوع ليس إلا، ستقضي حياتك بجوار هذه الجنة إلى أن يصيبها التحلل بينما تعقد سنوات عمرك واحدة وراء أخرى دون أن تشعر، إنك ما رثت شيئًا، وهناك جوانب من الحياة عليك أن تنوضها، هذه نصيحة لك من امرأة تكبرك بأكثر من عشر سنوات.

ثم تابعت متنهدة وهي تزيل بعض الغبار عن غطاء الصندوق:

- لكن على كل حال سأقنع أبي بقبولك مساعدًا له، لعلنا نكتسب طيبًا
ماهرًا يساعد أهل القرية مستقبلًا، وكن مطعمًا لن أخيره أو أخبر أختنا
بأمر الفتاة والياخشال، إنتي أعرف كيف أحفظ الأسرار.

أرماثُ لها إيجابًا بأسفًا، ثم أوصلتها ببغلي إلى حائتها، وهناك سألتني
أن أنتظر على إحدى الطاولات وغادرت، لتعود قبيل منتصف الليل، وتقول لي
ووجهها مرهق للغاية:

- لم أعتقد أنني سأأخذ كل هذا الوقت لإقناع أبي بانضمام مساعد جديد
له، لكن على كل حال لقد وافق في النهاية، ستبدأ عملك معه في صباح
الغد، سيختبرك لسبعة أيام، وبعدها يقرر مصيرك، عليك أن تثبت أنك
جدير بهذا العمل.

مرورة

هبطنا القرية مع طلوع الشمس، حمل خالد حقيبته على ظهره دون أن يلاحظ أي اختلاف في وزنها بينما سرّت وراءه أنطلق كل دقيقة إلى تعابير وجهه، وأدعو الله في سري ألا يكتشف أمر هروب الذئب وأن نجد مخرجنا قريباً، قال عندما وصلنا إلى مدخل القرية:

- لا تبتعدني عنّي كثيراً، لا نعرف ما قد نواجهه.

لوملت براسي إيجاباً، وتحركنا في الشارع الترابي الرئيسي نحو أقرب بيت، طرق خالد بابه برفق، وعندما لم يجب أحد فتحه بدفعة قوية بقبضته، كان البيت خاوياً يغطي الغبار أثاثه، تجولنا بحذر في غرفه الثلاث، كانت إحدى الغرف تحتوي جوالاً من الدقيق، قال خالد وهو يمسك حفنة منه في يده:

- لم يُهجر هذا البيت منذ وقت طويل.

خرجنا إلى البيت الذي يليه، وجدنا الشيء نفسه، التراب يغطي كل شيء، ولا يوجد بشر في داخله، وعظيّمات دجاج مطهي تتناثر في أرضيته، خرجنا إلى البوت الأخرى، كانت جميعها خواء، وفي أحدها عثر خالد على خصر منعد فيوضه أسفل قميصه على جانب خصره دون أن يقول شيئاً، ثم تحركنا إلى بناء أوسع كانت الطاولات والمقاعد المقطّاة بالآتربة موزعة في داخله، يكسوس الشراب الزجاجية متراصة في شكل هرمي على طاولة طوبية عالية تقع في الركن المواجه للباب، وفي خزانة خشبية خلف تلك الطاولة كانت هناك ثلاث زجاجات فارغة لمع زجاجها مع ضوء النهار المنسلل عبر فتحة

واثرية في السقف عندما فتحنا باب الخزانة، أمسك حالك إحداها من فاصلي
معرض ورفعها معر فتحة السقف وأخذ ينقصها وهو يقول:

- هناك بصمات بشرية على سقفها

ثم وضعها على الطاولة وقال:

- كان المشر يسكنون هذه القرية حتى وقت قريب.

واكمل وهو ينظر إلى الحانة.

- ووفقا لهذا العدد من الطاولات كان عددهم كبيرا، أين نعيمنا؟

احتموا؟

لم أكن أملك إحاية، فسكت.

جلسا بعد ذلك على مقعدين مجاور أقرب الطاولات الخشبية، ووضع حرد
حقيبته على سطحها، خشيت حينذاك أن يفكر في فتحها، فسمعت حرد
اتظاهر بأنني أبحث عن أي أنار للنشر في أرواء الحانة، وبدأت أبيع العفد
عن مواضعها فحدثت حلة شديدة كي أشت انتباهه عن الحقيقة، فاعلمت
ينظر إلى ما أعله مستغربا، قبل أن يصيح في متذمرا كي أتوقف عما أفعد
لكنني تجاهلت طلبه وواصلت إبعاد المقاعد والطاولات عن متصف الحانة
بجنية أكبر دون أي هدف، بهض وحمل حقيبته على ظهره من حديد، وتقدم
مني وأمسك بذراعي، وقال غاضبا:

- ربما تأتي هذه الجلبة بشر نخشاء، هيا علينا أن نغادر هذه الحانة

لكمل البحث في باقي القرية.

هروث رأسي إيجابا، وهمنا لنغادر، لكننا توقفنا عندما سمعنا حرد
باب يفتح يأتي فجأة من ركن بعيد في الحانة، نظرت في عبيه حائفة، موضع
يده على مقبض خنجره بينما أسرع للاجتماع خلفه، همست إليه نوما
مأن مواصل طريقنا للخروج، لكنه تقدم بحذر نحو الركن الذي صدر منه ذلك
الضرب، وقبل أن نصل إلى تلك الركن فوجدنا بسيدة نحيفة ترتدي فستانا

منها: حررها جويل كنيث وحبهاها وما ديشار، تتحرك محبوا ممسكاً بأنا
منها: وشرح دينا

من أنشأ؟
مع خالد بسيدتي تها، بينما عشت ما قداسي خطوات إلى الحلف منقبة
من أنشأ؟
من أنشأ؟

قال خالد:
- بيا ناثان، ولجحت عمن يدنا على طريقنا.
فلزت في عيني بشيء من الارتياح، ثم تفحصت علابه وملاسي.
سألت في تعجب:
- هل أنيتما عبر إحدى العابرات؟
لم ألبهم منفسهما بالعابرات، وأعتقد أن خالد لم يلهم مقصدها هو الآخر.
ثم قال:

- لسان هذا العالم، لقد حثنا إلى هذه الأرض مرغمين، لقد أتى منا نثر
إلى هنا.

سألت في لهفة:
- أي نثب؟
قلت في تلعثم:

- نثر من الذئاب الرهيبة، أتى إلى شالينا قبل مائة عام.
سقطت على الفور:
- نثب «حامون»؟
قال خالد:

- لا أعرف ماذا تسويهم هنا، لكنه انتقل إلى أرضنا عبر طاعية نهبه
قبل مائة عام، وكان مشغولاً في قمر في تريتشي مع قائده، اشركت بنتا

فمن صفة ظهوره، وأوصى هضبي بنعية هضبي أوصى هضبي، زور

وحسبته بر عوصه

كنت عاصدة

- أنما التمسد هي مكر ما حدث؟

وعسرت طائفة فريضة بأحاسها مصفحتها، وثابت

- لقد أفضت انشاد لظهور من حبيب

قال حاتم

- لم يفعل شيئا

صرحت هبنا

- أير أفض؟

قال حاتم هي عوصه

- ما حيرة نكر تيرتني هذه الداس

صرحت صعدا

- أن عوص

أمر حيد انصفتة معوها وقال

- أنه في ما حينا

استغنى ريفي، إن قال محميرما معنفا مريضة تلك السيرة لعظم السن

لحسن مسكون لا عدالة، حقت السيرة إلى الحفينة، ومطرت إس حاشا كانها

لا انصفتة، ثم قالت.

- صد متى حنتنا إلى هذه الأرض؟

قال

- حشر الأفس

قالت

- ثم ان يبنى معكما كل هذا الوقت، لن يترككما الشاهد والمُشاهد
المقصود.

ثم نفهم ما تعنيه، لكن خالد قال وهو يهبط على ركبتيه:

- سأثبت لك صدق قولي سيدي.

تراجعت للخلف وهي تحدق إليه، فأمسك بالحقيبة وفتح مغابها، أخرج
شعلة الجديّة أولاً وألقاها جانباً، ثم نظر إلى داخل الحقيبة شرة مطولة،
رأيت لبشر إلى غير مصدق، ثم قلب الحقيبة ليخرج محتوياتها، سقطت
مها الصفوف الصغيرة متدحرجة، فقال للسيدة:

- أنتم لك لقد كانت عظامه هنا، إنني من وضعتها هنا بيدي، اليس كذلك

يا مروة؟

لومك برأسي إيجاباً دون أن أتطق، فواصل مغمغماً في نغولي:

- لقد استحال إلى صفور، دونه لن نستطيع العودة إلى بلنا.

صاحت فيه:

- أنظني طفلة، لا تتحول العظام إلى صفور.

قال:

- لك رأينا منه العجائب منذ أن أخرجته من قبره.

قالت:

- إن كنت صادقاً في قولك وعدت بذنب، صامون، إلى هنا، وأصمت

بعدما كان في حوزتك فلقد حكمت على أمة كاملة بالمرت

ثم وضعت الفأس جانباً، وجلست على مقعد قريب منها، ووضعت رأسها

على كتفها وقالت بصوت ضعيف:

- انتهى كل شيء.

فالتفت منها خائف وسألها:

- ماذا حدث؟ وأين مجزأ؟ وما علاقة المش بمصير الأمة التي مهدت
عنها؟ ومن أنت؟ وأين أهل هذه القرية؟

ارتشفت دموعها، وقالت:

- اسمي «سارة»، مائة هذه الحانة منذ أكثر من عشرين عامًا.

ثم بدأت تروي لنا قصة وادي الذئاب وما حدث فيه قبل حادثة عام بعد
غزو نخب «صامور»، إحدى العائلات خلف بعض المنسلين ومقتله على يد
بشري في عالم آخر، وما أتى إليه ذلك من حرب شغواء بين الذئاب والبشر.
واستند شاهد الوادي من السماء، وإعلاق العائلات. وتلك النبوءة التي منسوبة
أحد العليين على حائط الرقي.

كما استمع إليها باهتس، ولولا أنني رأيت بنفسي ما حدث في السرور
وبهوض عظام المش لتزكض أمامي لما صدقت كلمة واحدة مما تقول، كما
خالد لم يزل عينه عنها، وطل مشدوها لكل كلمة تقولها خاصة عما قالت.

- ظلنا صوات مويقة نطش أن النبوءة مجرد وهم كتب أحد بجاني
العليين، لكننا فوجئنا بالشاهد بعاود الظهور في السماء قبل من
أشهر، لتدرك صدق المنقوش على حائط الرقي، رغم ذلك كنا مطمئنين
مؤمنًا ما لما فعله أجدابنا بدفن عظام الذئاب وأعطى العليين لسم
طينة صميكة من القار في واد بعيد اسمه «وادي الذئاب المسية»
وعندما توهضت بضعة هياكل عظمية لذئاب لم تدفن قديمًا هي من
الوادي تولي الحنود أمرها ببساطة وأحرقوا عظامها حتى صارت رماد
إذ كانت أعدادها قليلة للغاية.

ثم تنفست بعمق وأخرجت رفيرها وتامعت:

- أما بداية الرعب الحقيقي حدثت مع عظام العليين الذين لم يتوفى أحد
أن ينهضوا هم الآخرون مع ظهور الشاهد بعدما كان ذلك الحية معيا
من النبوءة كما أحترقنا، إذ فوجئنا بهياكلهم العظمية نهام لنا
القرى القريبة من الجبال مثل فريتسا وتحتفي أوقات النهار، أمر أحدهم
وقتها بتشديد تأمين وادي الذئاب العيسية وريادة سلك طينة قار.

والمعلم «شور» هذا، وإرسال صفتك العسكرية المعطورة لك المياض، وما
السحر، وأنت في بيته إمبريق العانة مسدداً إلى عذنها لك الحديث، ثم
موسم من شهرين وستسعد تقريباً بإعلانك الشطرنج من هياكل المسموم
محبوب من قبل لخمير المشتارينين لهم، وبالمعنى في قلوب حبيبتك مائلاً
في الأخرى، وأقيمت الاحتفالات في العاصمة «رافيا» وكان الأمر اسهر
وانتصروا لكنا نعلم أن الأمر لم ينتهي بهذه السهولة إذ سأل الشاهد
قبل أسابيع رؤية استطاعت ملدية صديقة تلقىها، كانت لك الرؤية
تؤكد عودة لك «سامون» إلى «أديا» ليحصل فيما بعد إلى أم العائرات
في بكمل الشلعة المافضة فيما يريد الشاهد

سألها في تلقى

- أي قطعة مافضة ١٩

قلت

- مع عودة الشاهد إلى سمانا ولم يستطع فتح العائرات لست مع
وجود ذلك «سامون»، لا أعرف كيف جئتم إلى عالمنا، بما توجد
عابرة أخرى غير تلك البست.

ثم تابعت بحسرة:

- لكن ما إن يصل الحبيب الذي أحضرتكموه معكم إلى أم العائرات ويولد
هناك، سيستطيع الشاهد فتح العائرات لست من حبيب، وحينها لن
نعرف ماذا سيأتي عبرها من العوالم والأزمنة الأخرى لإعادة عهد
الكتاب في هذه الأرض.

၁၃

[illegible]

... ..

۱- در صورتی که در یک سال دو بار یا بیشتر از آنکه در یک سال
 یکبار از این کارها استفاده شود، باید در هر یک از این موارد
 به شرح زیر عمل شود:

Figure 1. Schematic representation of the experimental design. The subjects were divided into two groups: the control group and the experimental group. The control group was divided into two subgroups: the control group and the control group. The experimental group was divided into two subgroups: the experimental group and the experimental group.

[illegible]

ثم انتهيت من ثيابي وعادرت سبطي إلى الياخشال حيث حصلت بموعد
سدوق ماي، وقلت ماسخا

- اليوم سأنت رطبطني الحديبة يا ماي، لم يعلق السيد رسلان على أي فعل
فعلت به اليوم كان غلام فقط من يرحمني سبطاته وكلماته الثلاثة،
يحتس أن أعال مناساته لدى سيده في داخلي لا أوجه، لكنني سأعمل
مثل ما في وسعي للاستمرار في ذلك العمل كي أستطيع إصلاح قلبي
بوقاما

ثم خرجت إلى خارج الياخشال وتحدثت مع عطفني ونمت حتى شروق
الشمس، وعندما استيقظت هبطت مباشرة إلى عيادة السيد وطلان، لأكرم ما
فعلته تعامًا في اليوم السابق، وثان اليوم الثالث مثلها.

في اليوم الرابع انتهيت في وقت متأخر من الليل، فأصرحت بالعودة إلى
الياخشال كي أأخذ ماسي ومصباحي وحلوى العاقر، لأصعد مباشرة إلى قمة
الحبل الشمية من أجل إحضار ثلاث قطع كبرى من الثلج، وعندما عدت
بها مرة أخرى إلى الياخشال وبذلت الثلج القديم بالجديد كانت الشمس قد
أشرقت، فاتجهت مباشرة إلى عمي دون أن أمام لحظة واحدة، حاولت ألا
أظهر إرهاقي الشديد وآلا أتناوب أمام سيدي بقدر الإمكان، لكن مع مرور
ساعات النهار نفذت طاقتي بعض الشيء وتضخمت رؤيتي، فقلل جهدي
وتناوبت لأمه مرتين رعا عني، إلا أنه لم يعلق بشيء، حتى انتهى العمل
وبذلت ثيابي، عدت إلى المنطقة الحبلية لأفعل الشيء نفسه الذي فعلته في
الأمس إد ثاب علي إحضار كمية إضافية من الثلج، لأنصب إلى العمل يوم
لليلة الثانية على التوالي.

نظمت الأرضية قبل دخول العرض، وأعدت رضى الكتب على الرفوف
الجانبية، ثم بدأنا في إدخال المرضى تباعا، كنت في داخلي أعرف أن لدي
يومين فقط بالإضافة إلى ذلك اليوم كي بقرر السيد رسلان مصيري، لذا كلما
سقط حفاي المريضان رعا عني كنت أحدث نفسي بأن تتحمل إرهاق تلك
السلعات، وأعدنا محمرا بساعات يوم إضافية حال الانتهاء من العمل

مع مريد من جنس يكتفي غنام مقدسه عندما عفوت وأنا أفقد مريدي صبري
 في كل يوم من مئة من اشتق فتصيبه حديدي قدسه، قبل أن يقوم بمسار
 مع ذلك المصاحب بيضا كان حينها يفصل حروجه الثاقله، نادى مني صبري
 في أن أسير صريفا نسيه رحاحية بها مطهر أسير الشر غير الطلوة
 لغيري، شعرت وقتها وأنا أسير إلى القدين المتجاودة أن عيني وسعري
 منوشل نهاية وكانني نمل، صاخ من غنام غير أسير عندما أحدث وقت
 مويك، بالسميت القبيحة الممتلئة وعندت بها، لكن قبل أن ناوله نسيدي
 برقت من يدي نسيذت إلى الأرض مهتمة يتأثر حائلها مغرقا الأرض من
 مويك وكنت نيات صبري، شعرت حينها أن الزمر توقف مني، كان ذلك لحظا
 بعين ثمانا الذي حدث ومنيفتي، صاخ من غنام معقالي، وتيت قدم احصاب
 وركتي، نسيذت رسالة أخرى، ميعا واصل صبري نسيذت حرج الحصاب
 في أن يسلر إيز غير، صطت إلى الأرض مستظرفنا في النقط قطع الرياح،
 في ردت النسيذت كما أعفنت قطعة كبيرة منها وناسيا الحصاب بقده
 نسيذت وهو يعاد، ليتصرخ متألما ويتنثر صبري لتخسيدا في الأخرى

وقفت سبها أمام صبري العفوق إلى حائيا رأسي، أمتع ريتي مرتبنا،
 ولا يحول في مالي أي مريد، أستطيع المطلق به، لا صيحا أسير ثم أكن لا يوح من
 مر الإزفاق الذي يتأسر، كنت أوقر في قياره عسي أتي ما أختاه شهر بني
 إحتار التلح مع الوقت، وأني أحتاج فقط إلى مريد من التلح، أنا وأصت
 ونومي صامنا نسيذت غنام نسيذت الأرضية من الصاغر وقتع الرياح نتي
 لم نسطع نسيذت النقاطها، وعلى وجهه انسامه لم أرها صد وحلت قمر من
 المكان

في اليومين التاليين لم يطلب مني صبري شيئا يشق ما عسر، سلا
 نسيذت علي طر تليق الأرضية ومريد الشخص، ستر طله من طلق
 حظارة أو نسيذت على أي شيء، أمله ما عسر أو الدم، ونشأه نسيذت من
 بالمقاط التلح في صمم القمر، وأن يقاضي تلك الساعات لم يكن في ذلك
 من صبري نسيذت مريد عدة أيام كاسة للاحتار ثم أسير اليوم العظيم

فاشار لي سيدي بأن أترك ما هي يدي لغنّام، وأقترب منه، ثم قال وهو يغم
لي كيسًا من النقود:

- هذا أجرك عن السمعة أيام العاضية، سبع قطع نحاسية.

فلت مصطريًا وأنا أعرف أن إعطائه لي ذلك العال يعني عدم رغبته لي
استمرار لي معه:

- لا أريد هذا العال سيدي.

قال:

- لا يعمل معي أحد دون مقابل، سيكون هذا أجرك أسويًا.

لمعت عباي حنّاء، وقلت:

- هل تعني سيدي ما فهمته؟

هرّ رأسه بآسًا وقال:

- نعم يا نوح، متكمل معك هنا مع غنّام، ولا تشغل بالك مثلك القبيحة
التي أسفلتها، من لا يخطئ لا يتعلم.

انحسبت لأفك قدمه لكّته أبعدها سريعًا، فشكرته كثيرًا ووعدته بأن أفعل ما
في وسعي لأثبت له صواب قراره، ثم عنت سريعًا إلى ناي وفتحت صندوقها.
وأزلت الشح عن وجهها، وفتكت جبينها وقلت فرحًا:

- لقد نجحت في اختبار السيد رسلان يا ناي، ليس هذا فحسب، سيعطيني
أجرًا كبيرًا عن عملي معه، سأدحر جميعه كي أعيد لك أثنائي التي
استعرتها منك لأبني هذا الياحضال، إنني أسعد إنسان في هذا العالم
اليوم.

«- لا بد أنها سعيدة هي الأخرى.»

حفل حصدي عندما سمعت تلك الجملة لحاة من ورائي، فالتفت سريعًا
في اضطراب، لأحد السيدة سارة تقف على بُعد خطوات مني صاحبة، فل
أن تنامي:

الغدا إن كنت قد أتت.

قلت يا سناء:

سأنت أن ناي تهت.

أفترت مني وأنت مغيرة على وجهي، ثم قالت:

سأنت لأنتك على اقتناصك الفرصة التي أتيت لك، لقد عرفت من قبل

أنك ستعمل للعمل مع أبي، وتوقعت أن يكون هذا أول مكان تحتل به

ذلك النجاح.

قلت:

لولاك لما حظيت بها.

وثابت رأيا أنك خفت من إسقاط القنبلة:

هل أخبرت والدك عن ما؟

قلت:

لا أقسم لك، ما دام وافق على مكانك معه فلا بد أنه رأى فيه شيئا

مميزا.

سأنت شفتي متعجبا، قلت:

أنتى ذلك.

في الأيام التالية فلت جعاني بالعمل معى الشيء إذ فنت أنى
لطفة بيني وبين عمأم، وبما وراء بحر سرت أنوف لعاء الألة السراجة
والستاماتيا، ثم كاد قلبي يتوقف حزنا عندما لب منى لى رجلان لم
ألتهم فر تضيق حرج حساب ألى إلسا وقتما كان عمأم يسحب الطعام له،
ونأ انجبا شك من على منى مساعدتي ليطلب منى المساعدة معدا مع
مريضين مستلزم دي النوى. حبه رعم حضور عمأم

سبدي المشحمة وإطراؤه المستمر علي مع كل إجابة صحيحة كنت أطلق
 يمان سألني فحاة وهو يطيب أحد المرضى، فكرت كثيرا أن أحدث عن ماي
 لكني كنت أراجع في كل مرة، هو أيضا لم يسألني مطلقا عن سر إصراري
 على المسبب خارج العيادة رغم توفر سريرين نظيفين لي ولغنام، لأكمل
 بطني الأسرعتين إلى قمم الجبال الثلجية، وأقضي الليالي المنسية أتحدث
 في جسد ماي عن كل خطوة جديدة قطعتها في المشوار الأهم في حياتي.



في بداية العام الثاني استطعت إعادة العقد الذهبي والقرطين مرة أخرى،
 تمكنت تاجر السلع والبناء من ادخاري تلك الأموال بهذه السرية، لكنهم حافظوا
 في النهاية على وعدهما لي بعدم التفريط فيها، ومنحاني إياها بنفس راضية،
 لأن بها عني وأذني ماي من جديد.

شدد ذلك العام أيضا الحالة الأولى التي أطببها بعفري بعدما فاجاني
 لبعث رسلان وطلب مني مداواة عجوز كانت قرحة عديقة مؤلمة تظهر في
 رحة قدمها، وجلس يراقبني من وراء طاولته دون أن ينطق بشيء، أصابني
 التوتر في البداية، لكنني تماكنت نفسي سريعا، وسألت غنام أن يساعدني
 بإحضار الضمادات المطيقة وأنية الماء والأعشاب المعبرية، وبدأت أنظف
 القرحة وأزيل طبقات الجلد العتية، حتى وصلت إلى لحمها النقي، فوضعت
 عليها مبروسا مخلوطا بالعسل وضممتها. وبعد ذلك التحين صارت أشد
 الحالات البسيطة من اختصاصي بينما اكتفى سريدي بآلات المعقدة التي
 تحتاج إلى خياطة ماهرة للخروج أو يتم أخذ الأطراف البائسة الفاسدة

في منتصف ذلك العام بدأ سبدي بطلني خياطة سروج الأوردة الكبرى
 بالرايين، وأهداني كتابا يتحدث عن الدورة الدموية البشرية بصورة مفصلة،
 لم أكن متصفا وأنا اقرأ للمرة الأولى عن تخريب القلب وآلية عمله، والبرق
 لم نفسي صعوبة ما أسعى إليه، لدرجة أنني تمنيت لو تأخر الشاب سري
 طويلا طامني أن أكتساب المهارة اللازمة بإصلاح قلب مدمر سيحتاج إلى
 مهارات وسنوات من التعلم، لكني نكيت التساوم حانا وأحدث أدرس أصول

الكتاب فصلًا وراء آخر، يساعدني سيدي بشروحاته الهائلة، حتى انتهيت من فهم وحفظ كل سطوره مع مرور ثمانية أشهر، لأكتشف أن العائق الحقيقي لاكتساب مهارة مثل إصلاح الأوعية الكبرى هو أن حالاتها قليلة للغاية، وكثير ممن يصابون بها يصلون إلى عيانتنا موتى، ويأبى ذوقهم الاقتراب من جثثهم بعد تأكيد سيدي موتهم، حدثت سيدي عن ضيقي من ذلك الأمر، ضحك وقال: - إن الطب يحتاج إلى الصبر، لقد انتظرت سنوات طويلة حتى أصح شريانًا رئيسيًا، لست أنا فحسب، بل حدث الأمر نفسه مع معلمي الذي عاش عهد الذئاب، حتى أنه دُون قصة كاملة عن حياة أول مريض استطاع خياطة شريان رقبتة.

وأردف بعدما تناول رشفة من شرابه الساخن:

- إن قصته هناك، بين كتب المكتبة السفلية في القبو، ستجد كتابًا مكتوبًا على غلافه «قصة المصاب الأسمر».

فسألته وأنا أفكر في أن البشرة السمراء ليست مألوفة في وادينا:

- هل كانت قصته مشوقة إلى الحد الذي يؤلف عنها كتابًا كاملاً؟
قال:

- نعم، يكفيك أن تعرف أنه أتى إلى بلدنا عبر إحدى العابرات قبل سنة وتسعين عامًا، تحديدًا قبل شهر واحد من مقتل ذئب «ضاهون» وانفلاق الحرب الكبرى.

فأنا ما نطلق به سيدي عن ذلك المصائب فضولي، فسألته:
- هل تان ذلك المصائب أحد اللصوص الذين هاجمهم نشب «صامون»؟

لمابني:

- نعم.

وأردف:

- الوحيد الذي نجا منهم، ربما لو التقى شخصاً آخر غير مُعلمي لأطاح
بعنه جزاء ما حدث للوادي بعد فعلتهم، لكنه عالجه وصارا صديقين
يبقى على قيد الحياة ثلاث سنوات كاحلة في هذا الوادي قبل أن يموت
ويدفن هنا، ودون مُعلمي قصة حياته التي رواها له، ومن بينها رحلته
عبر العابرة، إن كتابه هناك في الأسفل إن أردت الاطلاع عليه.

تلك:

- سأفعل بكل تأكيد.

لكني ما إن نهضت كي أمبط إلى القيو حتى وجدنا غنّام يملك إلينا لافتاً،
يلفوا:

- إن حريقاً كبيراً اندلع في قرية «سنجيرة»، وهناك العشرات من
المصابين.

فولعت أن يأمرنا سيدي بتجهيز العيادة للمرضى القادمين من تلك القرية
لنصوبه. لكنه فاجأني وقال:

- فبا أعد أدواتنا وأعشابنا، سنذهب إلى هناك.

وامر غنّام بأن يحجز عربته ذات الحصانين، فأوما مطيقاً، فلتتحرك له
خلال دقائق، نحو الجنوب.



كان الحريق هائلاً ليلتهم نصف بيوت تلك القرية، ولولا انحسار المد
فرسحاً كاملاً عن أقرب البيوت المشتعلة لحلت في وادينا أكبر كارثة من
حرب الذئاب.

وصلنا بعربتنا هناك وقتما كان الرجال والنساء يحاولون السيطرة على
الآبار والرمال على النيران المتدلعة في كل جانب، وكان السخان كثيفاً جداً.
فقال سيدي لغنّام وهو يسعل:

- فلنتحرك بالعربة إلى أقرب رقعة يقل فيها الدخان.

ففعل ما أمره به سيده، ثم توقفنا خلف بيت يطل على جبال الغرب لم
تصله النيران، فأنزلتُ أنية الأعشاب والحسل والضمادات، وفرشت الأرض
بطبقتين من الملاءات البيضاء الكبيرة، ثم أشعلت المصابيح وعلقتها فوق
ثلاثة أعمدة حديدية كنت قد غرستها متفرقة بين الملاءات، بينما ركضتُ
لإبلاع الناس بوصولنا، ليتدفق إلينا سيلٌ من المصابيح بالحروق أغلّبهم من
الأطفال، فبدأت في تنظيف حروقهم وقرطبيها بالأعشاب المهروسة والعمل
وإعطائهم جرعات من الأعشاب المسكّنة.

كان المسئول عن فرز المرضى هو غنّام، الحالات الكبرى يرْحبها إلى
السيد رسلان، والحالات البسيطة بوجْهها إليّ أو يسعفها هو، حفتُ أن نند
أشانا فيصبح وجودنا بلا قيمة، لكني مع الوقت أدركت أننا لسنا «ألف»
الوحيدين الذين قدموا إلى القرية، إذ جاء آخرون من قرى الجنوب بأدواتهم
وأعشابهم أيضاً.

مع شروق الشمس كان الإيهاك قد أصابني، التفتُ إلى سيدي في نص
كان منهكاً في تصعيد حروق مُصاب أحرقته النار ساقيه بالكامل وب
هو متعب فواصلت استقبال الحُرصى وأنا أنظر بعيداً إلى السيل الذي

هناك هي اسسارها عن بعض البيوت وإلى الأهالي الذين أخذوا يربطون
الفتاة ماعنين عن أي ناهين أسفلها، قبل أن يحضروا إلينا فتاة عشرينية
وعدة رعبها ذات وجه سليم تمامًا، حين قصصت ثوبها المحترق بمقص
موجت بما لم أره من قبل، إصابة كبرى في منتصف صدره حدثت على
القلب إنز سقوط شيء ثقيل فوق صدرها فيشمه تمامًا، ومع تآكل نسيجه
التي صار منتصف صدرها عبارة عن فتحة كبرى تكشف ما أسفلها من
رئة وقلب وأوعية دموية، كنت أجلس على ركبتَيَّ صديقًا إلى قلبها الذي كان لا
يرك يبيض عندهما وقف سيدي ورائي، وقال بصوت خادئ:
- لا تفعل شيئًا، دعها تترقد في سلام.

هزئت رأسي إيجابًا وأنا أواصل تحديقي إلى تجويف صدرها، بعد دقائق
سأت نضات القلب رويدًا رويدًا حتى سكن تمامًا وشجبت معه الأجزاء
المليمة من جسدها وازرقت شفثاها، سألني غنام:
- هل ماتت؟

قلت:

- نعم.

قالت:

- سأنادي بعض الشبان كي ينقلوا جثتها إلى المكان الذي يدفنون فيه
جثثهم.

نكرت للحظة وأنا أنظر إلى قلبها السليم الساكن، ثم قلت:

- سأضمد صدرها أولًا ثم أنا نديك.

قال:

- حسنًا.

لا تحرك منشغلًا بشيء آخر، نظرتُ إلى سيدي كان قد انشغل هو الآخر
بشباب جديد، تلفتُ حولي كان الجميع قد انقصوا عنا من أهل البحث عن
ناجين آخرين، لأخذ نفسي أدير ظهري لسيدي وأخرج سكينًا حادًا، وبسرعة

المرق بدأت أفصل قلب الفتاة عن الأوعية الدموية المتصلة به وأنزعه. وأرسل
بنفسائه سريعاً في جراحي القماشى دون أن ينتبه لي أحد، ثم لففت ر
الفتاة بضمانة كبيرة، وباديت غنّام انذى كان يظفر بعيداً نحو
المحترقة، فكفّن جسد الفتاة بالملاءة التي كانت أسفلها تاركاً رأسها
ثم نادى بعض الشبن كي يساعده في نقلها بعيداً، بينما تحركت
مريض آخر كان حرقه بسيطاً نوعاً ما.



مع غروب الشمس كنا قد انتهينا من فحص وتضميد جميع الجرحى
الذين قدموا إلينا، وخمد الحريق أيضاً، فتركني سيدي وركب مع غنّام
لبعضاً على الأطباء الآخرين من أجل عرض مساعدتهما إن كن أحسن
حاجة إلى المساعدة، فأخرجت القلب من جراحي وفحصت ملعست في صد
كبرى، قبل أن ألقه في قماشة نظيفة مبللة وأعيده إلى الجراب من حبي.
عاد سيدي وعذّم، نهبط غنّام عن العربة وأخبرني بأن نجتمع أرباب
كي نستعد للرحيل.



في لطريق إلى عيادتنا فكرت في إخبار سيدي عن القلب الذي انتبه
أحل انتظم عليه بصورة عملية، لكنني تراجعته، إذ شعرت أن ذلك قد يفسد
فكرت أيضاً في استعارة بعض الآلات اللازمة لتفصيل ذلك القلب بعد
العيادة، لكنني كنت أعرف أن ذلك مستحيل مع غنّام الذي لن يسمح ب
آلة واحدة باب العيادة، فقررت في داخلي أن يبقى القلب في جراحي
صبي حين أعود إلى ياخشال باي، وأشرح له في العيادة ليلاً أثناء نوم
وعنّام وقتما أبقي هناك من أجل مراجعة دروسي الطبية مثلما تعودت
الشهور الماضية.



في الليلتين التاليتين ليلة الحريق لم أتمكن من فعل ما فكرت فيه، حيث
 كنت اللياليتين المخصصتين لإحضار ثلج ناي من قمة الجبل، لذا تركت القلب
 في صندوق ناي بين الثلج من أجل الحفاظ على أنسجته، وفي اليوم الثالث
 ذهبت في جراحي وأخذته معي إلى العيادة، ولما أنهينا من المرضى وحللت
 ربي إلى النوم، وتبعه غفام بعد الانتهاء من غسيل الآلات الجراحية، أحضرت
 من الدورة الدموية البشرية إلى طاولتي، وأخرجت القلب من الجراب وبقي
 في يدي، ثم قرّبت المصباح مني وأخذت أقارن بين الشكل الظاهري للقلب
 ومثله المرسوم في الكتاب، ثم أزلت الغشاء الخارجي الرقيق بملقط صغير،
 فالتفت ريفي اضطراباً وأنا أتحسس الأوعية الدموية التي تلتصق بجداره
 الخارجي، ثم لاحظت أنّ الجانب الأيمن من القلب يحتل ثلثي الأمام تقريباً
 بدلاً مني خاطري أنّ إصابة ناي بصورة كبرى ستكون في ذلك الجانب إن لم
 يخرن الروح قلبها عن آخره.

في تلك الليلة اكتفيت فقط بمعاينة الشكل الخارجي لغرف القلب الأربعة
 وأعينها الدموية، ثم أعدته مجدداً إلى جراحي، وذهبت إلى ناي لأحفظه هناك
 بين الثلج حتى صباح اليوم التالي حيث رجعت إلى العيادة وكررت ما فعلته
 في الليلة السابقة بدراسة جداره الخارجي مرة أخرى، وإن شعرت أنّ ريفي
 قد بعض الشيء.



في الليلة السابعة من اقتناشي القلب امتلكت الجرأة أخيراً لشق جدار بطنه
 لأبين بسكين حاد، لأفتحه أمامي كالكتاب المفتوح، كانت تفاصيل بطن
 الخلية تختلف كثيراً عن رسمة الكتاب خاصة الصمام الثلاثي الذي يقع
 بين الأذين الذي يعلوه، تحسست بيدي ملمس الجدار الداخلي وخطوطه
 النضبة وعدت بإصبعي إلى ذلك الصمام وأنا أفكر في استحالة إصلاحه إن
 عاها التعثر، بل وصل بي الحال إلى التفكير في استحالة إصلاح أي إصابة
 تحاذر جدار القلب أمامي، لكنني حدثت نفسي بأنني قد أمّتك الوقت لتعلم
 كذا، وواصلت فحصي ومقارنة ما أبصره بتدوينات الكتاب، ثم قطع

فهمه سر مداف صوت امرأة تماذي باسم السيد «رحلان» وتطرق لمر
مذات سر مداف في جراسي، وأحقيقه وراء الطاولة، ثم وصفت لمر
الأدوات الخراشبة التي كانت تستخدمها، نهض عنان أمامنا ليعجب المرء
لم يتوقف عن الداء وطريق الباب، واستغرب أنني ما رأت هناك، وفاء
- لمر أتم شعب الحركة ما تمت هناك؟

فب مداف مراداف

لقد ختمى اليوم، سأحبها في الحال.

أناج بده غاصفا، وقال:

- لقد أخطأت السيد على أي حال.

ثم بدت الباب، كانت امرأة تحمل وصيبتها بيننا يمسك بطرف ثوبه
آخر في عمر الساعة أو الثامنة، قالت في توسل
إن رصيعي بقي، فلا توقف منذ ساعات

مر عنان رأيت إحدنا وأدخنها إلى العيادة، كنت أستطيع محض
أش سيد في مر أس، قد فقت محواره حاشا أن يبتنه هو أو عنان مر.
موصوفة على الطاولة أسف الفعاشة، ثم انتهى من فحص الرصع
أن أحدها، حاجة من دعت المهدنة لالتهايات المعنة، فتحركت أخته
لكي تغلب مناسر فمدت إحدى رابت الطفل الآخر يمسك جراسي نفسه
ويفتح، ويسأل أمه مستغربا وهو يخرج القلب منه:

- ما هذا يا أمي؟

مطأطنا رأسي كنت أقف أمام سيدي الذي كان يمسك القلب بيديه
عنان الذي مطأ الطاولة من الأدوات المنسحة، وقف بحق في مر
سيدي سرته الهارة

- من أس حصلت على هذا القلب؟

أعنته في حزي:
- إنه قلب الفتاة التي تبشّم صدرها في حريق «سنجيرة».
شوق غمام منمولا، بينما ضمّ سيدي شفتيه في صمت، فتأملت:
- لقد كانت ميتة بالفعل، ووجدتُ هذا القلب فرصة لتعلم ما درستَه نظريًا
لي هذا الكتاب.

واصل سيدي صمته، فأردفت مستعطفًا:
- أعلم أنني أخطأت بإخفائي هذا الأمر عنك سيدي، لكن أقسم لك كنت
سأدبرك قريبًا.

ثم سكّت بعدما لم أكن أملك المزيد من الكلمات، فقال سيدي:
- إنَّ للموت حُرمة وأنت انتهكتها، وبعد أكثر من عامين لك معي لم تستطع
نهم أن أحد أعمدة الطب الرئيسية هي الأمانة، ولقد خُنت الأمانة مع أهل
تلك الغفلة الذين سلّموك اينتهم من أجل مداواتها لا لسرقة أحد أعضائها
في أنانية مُفرطة.

قلتُ باكيًا:

- لم أكن أقص . كل هذا سيدي، قصدتُ فقط...

فاطعني في ببرة حادثة سمعتها منه للمرة الأولى:

- لم يعد لك مكان هنا، احزم متاعك وغادر في الحال.

قلتُ منتحبًا:

- أرجوئ سيدى، كان قصدي التعلم فحسب.

قال بالنبرة الحازمة نفسها:

- لقد انتهى الأمر.

وبلع وهو يخامر الغرفة:

- سبقى ما فعلته سرًا لن يخرج عني وعن غنّام رافّة بسمعك.

مرّ غنّام رأسه مطبقًا كلام سيده، قبل أن يشير لي كي أخرج وهو يقول

معتزًا

- إن اكتشفتُ لاحقًا فقدان آلة واحدة من الآلات الجراحية سأبحث عك في

كل مكان وسأتي إليك لأحطم رأسك.

غرحتُ، أسما قائمًا تتعلّق بتلابيبي كل هموم الدنيا، وكان الظلام حائلًا

لحلتُ باكيا بجوار بغلي، حتى طلع النهار فامتنطيتُ إلى القرية الشمالية،

واتجهتُ إلى حانة السيدة «سارة» حيث انتظرتها حتى تستنقظ، قالت عندما

التبنا في الظهيرة وحكيتُ لها ما حدث:

- لن يعدل أبي عن قراره أبدًا، إنني أكثر من يعرفه، وربما بقاطعتني أنا

الأخرى لأنني من أحضرتك إليه.

قلت:

- لم أكن لأستطيع التعلم من الكتب فقط.

فالت:

- كان عليك لمحاولة مع قلوب الحيوانات النافقة، لم يكن ليؤمنك أمر
وفتها لكن ما حدث قد حدث. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

أجبتها:

- لا أعرف، إن رأسي مبهك للغاية لعدم نومي الليلة الماضية، وكنت
إحضار الثلج إلى ناي هذه الليلة وغدا.

قالت:

- حسناً، فلنأخذ قسطاً من النوم الآن، ولنفكر بعدما في خطوات القادمة
يمكنك النوم هنا إن أردت.

قلت:

- لا، سأذهب إلى الياخشال لأنام بجانبه، وسأعود إليك في صباح الغد.

قالت:

- كما تريد.

أنشاء رحومي من قمة الحمل تلك الليلة خطر في بالي أن أعود لمعلي
القديم مُقطّعا لأشجار العسة، لكنني أعدت الفكرة سريعاً عن رأسي، لأنهم
لم أمتلك لمعة الكافية لأكون في مهارة السيد رسلان، لكنني على الأقل صرت
أستطيع تشخيص الأمراض الشائعة وتضميد الإصابات والحروق البسيطة
لما عندما قابلت السيدة سارة في ذلك الصباح، وسألتني مجدداً عن خطواتي
الناقلة، قلتُ لها:

- إن مرصتي اقريبة من يقطعون الطريق إلى عيادة السيد رسلان هي
اقريبة الحنوبية، أستطيع أن أشي عيادة هنا، إنني أملك من العهار
ما يؤهلني لمداواة أمراضهم البسيطة، وما أعجز عنه فسأرسله إلى
السيد رسلان.

انقسمت وهي تقول:

• هـا ما كنت أفكر فيه تمامًا.

كنت منجنت من مدتها معي

• إنني أخبر ماتني قطلة بحاسية، يمكنني استنجاز بيت صغير وشراء بعض الأواني الرصاصية والمعدنية، ونوصية حداد القرية بأن يصنع لي أدوات بسيطة سهلة التنظيف تساعدني في بداية عملي.

مخالفة:

• إنني أعرف أيضًا المورد الذي يعد لي بأعشابه الطيبة.

قلت في سراس:

• السبب في تقيده، إنني أعرفه أيضًا لقد أرسلني إليه السيد رسلان أكثر من مرة، يمكنني البدء بكميات قليلة من الأعشاب، أزيدها فيما بعد مع كثرة المرضى.

ثالثة:

• حسنا، فلنبدأ بحلولك الأولى إذن، ومن جانبي فبعدما تنتهي من تجهيز العيادة سأعلن في الحانة عن وجود طبيب جديد في قريتنا، وستجد المرضى ينتظرون أمام بابها بأعداد غفيرة في الصباح التالي.

استأجرت بيت صغيرًا بالفعل، وبعد عشرة أيام كانت العيادة جاهزة: شال المرضى، وفأت السيدة سارة بوعدها وأعلنت عني طبيبًا جديدًا في القرية، لكن عكس ما توقعنا كان عدد المرضى قليلًا للغاية، بالكاد أتى إلى ثمانية ثلاثة مرضى في الشهر الأول، حنيت من ورائهم ثلاث عمليات محسنة، لم يختلف الشهر الثاني كثيرًا، لم يشغلني العائد المادي بقدر ما شغلني لاهرات الحراجة التي بدأت أفقدها شيئًا فشيئًا مع ندرة المرضى، خاصة مع مرور لشهر الثالث دون حظوظ مريض واحد إلى العيادة، فكرت لي أن أأتم ونس لي الناس بما فعلته بفتاة الحريق، لكن السيدة سارة أكتت لي كسر من مرة أنه لا يستطيع مخالفة وعد قطعه أبوها، وأنها ستكون أول من يبرر بأي إشاعة تُقال عني من خلال عمها في الحانة.

ثم حزن الشجر الرابع فشعرت أن القدر يداعبني إذ حصر إلى العيادة بثلاثة شمل يحملون صديقهم ميتاً إثر طعنة في صدره تلقاها قبل دفنه. دار في عقلي وأنا أفحص جسده مشهد قتل فاني على أيدي الجنود كاملاً نس أن أحدهم أسفاً بموته، ارتسخت على وجوههم ملامح رأيتها قلناً أكثر منها سزناً، وما لبثوا أن خرجوا في صمت دون أن يقولوا كلمة واحدة، ثم سمعت همهماتهم في الخارج، فاقتربت من النافذة، فسمعت أحدهم يقول للأخيرة بنبرة خائفة:

- إن عرف إخوته أننا قتلناه لن يتركونا أحياء حتى الصباح.

سكت الآخرون وكأنيهما انفنا مع القاتل في حديثه، قبل أن يقول صوت آخر بعد قليل:

- لنذهب في الغداة إذن دون أن يدري أحد.

ثم تحركوا بعيداً عن العيادة، فوجدت نفسي أحمل مصباحي مُطفاً، وأخرج وراءهم أتسع عرستهم من بعيد.

اتجهوا نحو القاية بالفعل، وبعد قرابة فرسخين في داخلها توقفوا وبعطوا عن العربة، وبدأ اثنان منهم يخفزان قبراً بينما أمسك الثالث بمصباح مُنير أضاء الأرض من أمامهما، بقيت في موضعي بين الغصون أرايتهم عن بعد حتى انتهوا فوضعوا جثة القتيل في العير الذي حفروه، ثم ردموه وغادروا. فأنرت مصباحي واقتربت من القبر وأنا أفكر في ذلك الصدر المطعوز، وسرعان ما عدت إلى عيادتي وأحضرت فأساً ومنجلاً، وعدت مرة أخرى إلى موضع القبر، لأحفره وأشق ضلوع تلك الجثة بالعنجل، لأفاجأ بأن قلبه سليم وأن رفته اليمنى هي ما أصيبت، غنزعت القلب السليم دون تفكير، ثم ردم القبر سريعاً، وعدت إلى العيادة.

لم أكن أمتلك كتاباً عن التشريح في ذلك الوقت، لكنني بدأت في استخراج المعلومات في رأسي وأنا قلب القلب في يدي وأنزع غشاءه، ثم غرزت سكين في نُطينه الأيمن. وسكبته الماء في الوريد العلوي وضغطته بيدي، فاندفع الماء من الشق الذي أحدثته، فأحضرت خيطاً من الحرير وبدأت أحيط ظرفي

بعد أن وضعت الماء متحدثاً في الوجدان، فتسربت عبر الشق مرة أخرى، أزلت
 الخيط وأتت الخيط من حدى لكن إحدى حاضتي الشق لم تتحمل ثوبة الخيط
 برقت، ومعها صار التسرب أمراً لا يُعالج، أحدثت شقاً آخر في البطنين الأيسر
 من الأمر نفسه، معها وأصبت محاء لاتي لتعادي تمزق الحواف، لكنني لم
 أجد وقتاً لنفث تعاماً، ففصلته إلى قطع صغيرة وألقينها للكلب ضال
 بعد أقل من أسبوعين خطر في بالي أن استخدام إبرة رفيعة ذات خيط
 رقيق قد يكون مُحدثاً مع تمزق حواف الجرح، فذهبت في الحال إلى جزائر
 واشترت منه ثلثي حروفير كان قد ذبحهما في ذلك الصباح، استعملت
 إبرة الرفيعة فكانت النتيجة أفضل كثيراً من الأخرى السميكة وإن بقي هناك
 حبة لا يمكن تجاهله، دوت ملاحظاتي في دفثري، ووضعت جانبا عندما
 مررت إلى العيادة سيدة فاقدة الوعي، قال مرافقوها إن أختها ماتت في
 صباح، ودُفنت في مقابر القرية، وصفت لها أمشاً مُبدنة، لكنني وجدت
 في أمي لبلاً إلى المقابر وكأن شيطاناً يقودني، وأحفر قبر تلك الميتة،
 أخرج منها، وأعود به إلى عيادتي.



لأت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مقابر القرية، لكنني لم تكن الأخيرة،
 عدت إلى هناك بعد أقل من شهر واحد لأخرج قلب امرأة عجوز ماتت
 من بلا أهل، وأذهب بعدما بأسابيع قليلة لأنزع قلب رجل مات بالحمى،
 عند أسبوع واحد لأنزع قلب طفلة سقطت من فوق حصان أبيها، ثم
 من عيادتي إلى بيت بطل على الطريق المؤدي إلى المقابر، وحينها صرت
 نيت حة طارحة دون أن آخذ قلبها إلى غرفة جانبية في عيادتي من
 أنظم على خياطة جروحه، حتى أتقنت تلك الخياطة تعاقاً دون تسرب
 سبعة شهور نزلت خلالها ستة عشر قلباً، لتحييه خطوتي التالية: شق
 سيرة بطريقة لا تؤذي الرئة أو الأوعية الكبرى أسفلها، وإغلاقها بإحكام
 حسب ما الأمر الذي رأيته لا يقل أهمية من إصلاح تمزق القلب، حينذاك
 شقني حذاء من قرية أخرى كنت قد داووبته من قبل وأنا أعلم لدى السيد

رسلان، وطلبت منه أن يصنع منشارًا خفيًا وحادًا للغاية يستطيع شطر
ذبيحة إلى نصفين في ثوانٍ، ووعدته بمكافأة مُجزية إن نجح في ذلك.



عندما أحضر الحداد لي ذلك المنشار في عيادتي لمعت عيناوي ببريق
وأنا أتخس أسنانه الحادة وصلابة فولاده، وأعطيتة عشر قطع نحاسية
مقابلًا له، وفي الليلة نفسها ذهبت إلى المقابر وأخرجت جثة شاب طازجة
وشققها نصفين عند منطقة البطن، ثم فصلت الرأس عن النصف العلوي
الذي وضعته في جوالي ورددت القبر، وعدت إلى عيادتي حيث استخدمت
سكين لي سلخ الجك فوق الضلوع اليسرى، قبل أن أزيل عضلات الصدر في
حدوه، وأشق الضلع تبعًا بمنشار صغير كان لدي، لأفتح الصدر أمامي
بالطبع كنت أعرف أنها لن تكون الطريقة التي أصل بها إلى قلب ناي، لكنني
كانت الوسيلة المثلى لدراسة جدار الصدر كي أجد طريقي الآمن إلى قلبها.

في خلال أربعة أشهر بعد ذلك اليوم أحضرت إلى العيادة ثلاثة عشر نصرًا
علويًا من جثث طازجة، استلعبت من خلال تشريحها تدوين كل تفصيلة من
جدار الصدر الأمامي، وإن لم أستطع إعادة تثبيت الضلع التي قطعتها بالمنشار
في جميع المحاولات التي أجريتها باستخدام إبري وخيوطي الطبية، لذا جرت
خلال الثلاثة أشهر التالية طريقة شق عظمة منتصف الصدر باستخدام منشاري
بعيدًا عن الضلع لأجدها تستهلك وقتًا طويلًا وتستلزم دقة شديدة إن فقتها
في أي لحظة لن أتعادى إصابة نسيج حيوي وراء تلك العظمة.

بعد قرابة خمسة شهور أخرى من المحاولات وصلتُ إلى الطريقة المثلى التي
لا أصيب بها أي نسيج هام عندما خطر في بالي عملي القديم وأنا أنصل لحاء
الأشجار السميك الملتصق بحذعها، لأكتشف أنني أخطأت باستخدام المنشار
لشق عظمة الصدر وأن استخدام السكين من خلال تجويف تلك العظمة العلوي
هو الأفضل. وبعد أسابيع من استخدام تلك الطريقة وحدث أن إصابة استخدام
المطرقة فوق السكين يوفر وقتًا وجهدًا كبيرين، ثم رسمت هيكلًا لسكين طرف
نخله ذو بروزين جانبيين صغيرين بينهما فراغ يناهز سمك عظمة الصدر ما

بنيهم مسار السكين أثناء طريقي له بالمطربة، وأعطيتها للحناء الذي صنعها
بمهاارة فاشقة، ليصبح شق الصدر مع تلك الطريقة آمناً وسهلاً وموفراً للوقت
والآن بات، ولم تمر أيام بعدها حتى توصلت إلى طريقة إغلاق تلك العظمة
من طريق أسلاك نحاسية رفيعة تمر بين الضلوع لتحيطها بإحكام، لأتأكد وأن
تعود للمرة الأولى بعد مرور قرابة أربع سنوات ونصف على موت ناي أنني
قد أتيت على إصلاح قلبها، وإن لم أتوقف عن إجراء مزيد من الجراح في
برقي الجانبية التي لا يدخلها أحد غيري.

حتى حدث ما لم أتوقعه بعد شهر فقط وقتما أخرجت جثة شيخ مات
مسيحة ذلك اليوم، وبعدها عدت بنصفه العلوي إلى العيادة وبدأت أشق صدره
سعت نباح كلب مستمر في الخارج، لم أهتم بالأمر في البداية فعندما ما تنبح
الكلاب الضالة في الليل خاصة في الليالي المظلمة التي يغيب فيها القمر،
لكن استمرار النباح حتى وقت الفجر جعلني أفتح النافذة متعمراً وأقذف ذلك
الكلب بحجر، فركض بعيداً، فعدت إلى الداخل كي أكمل عملي، قبل أن يعلنني
العاس لأنهم في الصباح على صوت وقع أقدام تتحرك من حولي، وعندما
نحت عيني وجدت سبعة رجال غاضبين يحيطون بقراشي وفي أيديهم
سيوف وفؤوس، ويمسك أحدهم أيضاً بشيء ليس غريباً عليّ، رفعت يدي
خلفاً ومتسائلاً عما يحدث، فلكممني أحدهم لكمة أفقدتني وعيي في الحال.

كان أولئك الرجال هم أبناء الشيخ الذي شققت جثته، والكلب النباح هو
كلب الذي لازمه أحد عشر عاماً، والذي شَم رائحة جسده في عيادتي قبل أن
يجز بأسنانه أحد أبناء الشيخ إلى المقابر، ويحفر بقدمه عاوياً ردم التراب
في صرار. ليلاحظ حينها ذلك الابن بقعة دم بجوار القبر، ويحفر القبر مرة
جديدة، ويكتشف اختفاء نصف جثة أبيه، بعدها فاده الكلب هو وإخوته إلى
عيادتي، وقبل أن أنهض كانوا قد اكتشفوا الصندوق الذي أضع فيه عصب
السليم، وأربعة قلوب أخرى، والقبو الذي دفنت فيه بقايا تسعة وعشرين نصفاً
شريحاً، لأعلم وأنا أرى أحدهم يمسك قلباً في يده أن كل شيء قد انتهى.



جرؤني مكبلاً معصوب العينين بعد ساعات من الضرب المبرح إلى صدر القرية، فأدركت أنني سأجمع إلى قاضي القرى، وهو رجل ستيبى كانت مهمته الحكم في القضايا الكبرى التي تحدث في قرى شمال غرب الهند. وبعد ثلاثة أيام لم أبق خلالها إلا مريئاً من الصرب على أيدي الجنود أخرجوني إلى المحاكمة التي أقيمت في ساحة كبرى تجاوز حانة السيدة سارة، كثر الناس يحشدون فيها بأعداد غفيرة، عندما صعدت إلى منصة تلك الساعة حذر المحتشدون وصاحوا بحوي بكل أنواع السباب، وبدؤوا في إلقاء الحجارة تجاهي، لأصرخ منألمًا تسيل الدماء من كل أجزاء جسدي، ثم -اد الصمت المكان عندما صعدت إلى المنصة ذك القاضي، والذي سألني مباشرة:

- لماذا نبشت قبور موتانا؟

كنت أعرف أنني لا أملك مجالاً للإنكار، فقلت:

- كي أنعلم مداواة مرضاكم، وقد تعلمت إصلاح القلوب المتعدية بالدمار.

ضج الناس من جديد غير راضين بإجابتي، نظرت نحوهم في استعظام خاصة السيدة سارة التي وقفت بينهم تنظر نحوي في خيبة أمل، ألقى القاضي خطبة طويلة عن حرمة الموتى، وعن الشيطان الذي قادني لعل تلك الجرائم، لم أكن في كامل تركيزي لخطبته مع الضعف الذي كنت أشعر به وشروذي في العصور الذي كنت أعلم تعاماً أنني على حافته، حتى انتهت، فطلق حاكماً بإعدامي شنقاً أسفل ضوء البدر متمسكاً بالعادة القديمة التي تميزت بها بلادنا، إذ اعتاد القضاة منذ قديم الأزل تحديد وقت شق المنبر في الليلة الثانية من التقاء شاهد الوادي مع البدر الآخر ظناً منهم أن الأرواح الأتمة تهاجر عبر العبارات لتختل من ذنوبها، وبعد اختفاء الشاهد استمرت تلك العادة دون تغيير.

هَلَّلَ الناس مع حكم القاضي، وبعدها أنزلي الجنود كي أركب عربة السجن، فانهاج على بالضرب من استطلاع منهم الوصول إلي، لتتخطم ثلاثة من أسناني العلوية، وعلمة وجهي اليسرى، وضلع أو أكثر من حاسي الأيمن، وأهوي صارخاً من شدة الألم بينما يواصل الجنود جرّي بصحوة إلى العربة.

حتى أركبوني فيها، وقادوها مرة أخرى إلى السجن، لأتبع هناك في انتظار
مؤهل منتصف الشهر.

غارفا في بحر من العساكر المتضاربة قضيتُ الأيام المتبقية على موعد
إسلامي كان أشدها قسوة هي خيبة الأمل التي شعرت بها بعدما أقيمت
نفسى إلى التهلكة قيل نهوض ناي، فكرتُ في الثلج الذي لا بد وأنه ذاب من
حولها، كنت أعرف أنها بعد مرور كل تلك السنوات لم تدع لي مجالاً للشك
في أنها امتلكت مزية الاحتفاظ بجسدها، لكنني دائماً كنت أملك وسواساً قوياً
بأن نسيجها قد يصيبه التعفن إن تغافلت يوماً عن إبقائها في الثلج، صرخت
بمجنون رغم ألم صدري الشديد:

ـ ناي، أخرجوني، إنها تحتاج إلى الثلج.

صحك الجنود في الخارج، ولم يعيروني اهتماماً، فبكيت ثم صرخت
معتك:

ـ أحضروا لي السيدة سارة، أحضروا لي السيد رسلان، أريد أن أكر
تدعيهما كي يعتنيا بناي.

واصل الجنود تجاهلي، فطرقْتُ بقبضتي على باب الزنزانة بقوة حتى
أصغرت، ثم جلستُ باكياً أندب حظي وأنا أضرب مؤخرة رأسي في الحار
لغة نطحها، وبين هلاوس لا تنقطع ليلاً ونهاذا وبكاء وصراخ مرث أبامي
المتقية، حتى أتت الليلة الثانية من ظهور البدر في السماء، فأزال الحلق
صدري الطويل عن آخره، ثم وضع عصاة سوداء على عيني، وعقدت من
الحلف ليعزلني عن العالم من حولي، بعدها جرّني الجنود إلى العربة، وهناك
نأسي إلى مسامعي صوت قعقة الرعد الذي بدأ هادئاً بعض الشيء، فلأن
بشد نجاة، وبرافقه صوت سقوط الأمطار بغزارة، قال أحد الجنود الذي
يرافقوني وهو يوقف العربة:

- لا بد أن الإعدام سيُؤجل إلى حين تتوقف المطر، لم أرها غائمة وكما
سنوات.

وهذا ما حدث بالفعل، إذ أقفوني في العربة لعدة طويلة جداً استمر المطر
المطر خلالها، تدرجة أنني ظننت أن إعدامي سيؤجل شهراً آخر مع انقراض
بزوغ الفجر دون حديد، بيد أن اطفاس تبدل فحاة وتوقف المطر عن هبوبه
وسرعان ما سمعت الضجيج ينادي إلى أهل القرية بأن يخرجوا إلى المن
كي يشهدوا إعدام نابش القنور، حينذاك تقدمت بنا العربة في الرحل، ثم
أن تتوقف مرة أخرى لينزلي الجنود ويصعدوا بي سلم المنصة الخش
ويوقفوني بعصبة عيني في جانب منها مدة أخرى من الوقت، بعدئذ سمر
صوت قائد الجنود يأمر جنده بجري إلى المشنقة التي نُصبت في منتصف
المنصة، حينها نزعوا عن عيني العصابة السوداء، فوجدت الحشود التي
تقف أمامي حائلين مصابيحهم ويحدثون إلي بأعين غاضبة بحثت بيه
عن السيدة سارة، لكنني لم أبصرها، ثم نظرت بعيداً نحو الليل الحالام
التي ظهرت أسفل ضوء القمر رغم الغيوم الكثيفة، وصرخت بكل طائفتي:
- ناللي، ناللي.

ضحك الجندي الذي كان يحرس زنزاني واعتاد سماع نداءي باسمها
فواصلت صراخي:
- ناللي، ناللي.

ضحك الحاضرون، وبدؤوا يصيحون نحوي مستهزئين، فواصلت صراخي:
- ناللي، ناللي.

فأخذ بعضهم يلقي الحجارة نحوي وهم يضحكون، لكن ضحكته
تحوت فجأة إلى ملامح قلق ودهشة وجمود، بعدما انقشعت الغيوم عن السماء
فحاة، وظهر من أسفلها ما ظلت أنتظره كل تلك السنوات؛ شاهد الوادي

خلف نافذة حائقي المظلة على ساحة الإعدام كنتُ أجلس على الأرض لا أبكي على النورس لرؤية مشهد شفق نوح، بل أخذت أبكي حزناً عليه، فرغم شدة ما أثاره بقي في داخلي جزءٌ يصدق نُبْل هدفه، ويشفق عليه بعدما أصبح حياته وداءً للعديد التي أحبها.

عندما نعاس الضجيج في الخارج عرفتُ أنَّ قائد الجنود أمر بجره إسي المسفة، ثم سمعت صراخه باسم ناي، قلم أسنطع مسك نفسي عن مزيد من الاء، بعدا وصلت صرخاته إلى أذني وكأنها تقول: اعتني بناي من بعدي يا راء، ثم حلَّ سكوتٌ مفاجئ فأصابني احيرة بعض الشيء خاصة أنني لم أعتد ذلك السكون عن حاضري الإعدامات قط، بالعكس كانت صيحاتهم لي ذلك الوقت عادة ما تتعالى لاعنة المعدم ومحتفلة بحقائه، ولما طال ذلك السكون نهضتُ وفتحتُ نافذتي في فضول كي أتبين ما حدث، فوجدتُ جميع حامدين رائعين رؤوسهم نحو السماء مدقين إلى الشاهد الذي عاد إلنا، ومنهم من ينظر إسي نوح صرغياً متخيلاً أنَّ صرخاته باسم ناي هي ما تستلشاهد إلى الطيور، حتى أنَّ قائد الجنود أوقف الإعدام في الحال، ثم نعر سكوت لي حالة من الهرج والمرج عندما فوجئت بمجموعة صغيرة من هياكل الدواب الضخمة تجري بين المتشددين وتهاجمهم، لأدرك أنَّ حشد سرتوا جثث بعض الدواب ولم يدفنوها كلها في الوادي الأسفل.

شربت تلك اليباكل هلع الحميم، فركضوا متفرقين في جميع الاتجاهات منسحبين سرتهم، بينما أحاط الجنود بقائهم وبالقاصي، وسوا أمر نوح

الذي ظل وانفأ وحيداً فوق المنصة ينظر إلى ما يحدث في جمود. وكأنه يرى
أثنا حيالات وأوهام يراها وحده فحسب، نبل أن يدرك أنها حقيقة وبعد.
تخليص نفسه من الحمل المقيّد لمعصميه، حينذاك خرجت سريعاً وتذكر
حصاني، وركضت به نحو المنصة، لأصرخ إليه وهو يواصل محاولاته لتحرير
قبضة:

- هيا، لا يوجد لديك وقت.

قفز إلى صهوة الحصان خلفي، فركضتُ به نحو عيادته، بينما بدأ الحرس
في ملاحقة هياكل الفئاب.



بعدما حررتُ معصميه بسكين في عيادته، قال في حماس شديد وهو
يلحم أدواته الجراحية سريعاً.

- كنتُ أعرف أنه سيظهر يوماً ما، سأصلح قلبها سيدتي، سأصلحه.

فتساءلتُ في قلق:

- ماذا إن كانت الفتاة قد نهضت بالفعل؟

قال:

- لا أظن، إنَّ الياخشال معزول عن السماء بصخور اجبل المال نرتة.
كان المكن مثاليًا في تلك النقطة، عليّ أن أصح قلبها أولاً، ثم أخرجه
إلى الفضاء المجاور ليصلها ضوء الشاهد

ثم حملَ جرابًا قماشياً كبيرًا وضع فيه أدواته الجراحية ومصباحه وبنصر
العلاءات والصمادات وفستانًا نسائيًا أبيض اللون، وانطلق حصاني إلى
أركب وراءه نحو ياخشال ناي.



كان النهار قد طلع عندما وصلنا إلى هناك، فتح الصندوق فوجد الثلج قد
صار ماء باردًا، حملَ ناي منه، وانتظرتني حتى أغلق الصندوق وأضع غب

ملاءة نظيفة من الملاءات التي أحضرها معه، ثم أرقدها عليها برفق، بعدما
 جعل مصباحه وأعطاه لي كي أمسك به، وفرش ملاءة نظيفة أخرى على
 الأرض بجواره، ووزع فوقها آلاته الجراحية التي بدا أنه جهزها جيدًا من أجل
 تلك اللحظة، شقُّ أولًا فستان ناي القديم مظهرًا نصفها العلوي بالكامل، ثم
 أمسك سكينًا صغيرًا وأحدث شقًّا رأسيًا في منتصف صدرها تمامًا، تسارعت
 سبها دقات قلبي، فرغم أنني رأيت أبي كثيرًا وهو يعالج جروحًا وإصابات
 بدمعة نائني لم أحضر معه قط وهو يشق صدر إنسان ويهم بفتحه، لم يعبا
 روح بالأنفاسي اللاهثة، وأمسك بسكين آخر ذي بروزين صغيرين جانبيين عند
 طرف نصله، وغرزه في تجويف بأعلى عظمة منتصف الصدر التي ظهرت
 أمامنا، ثم أمسك بيده الأخرى مطرقة صغيرة، وبدأ يطرق بها على السكين،
 نكات العظمة تنشق رويدًا رويدًا في مسار ثابت حتى شُقَّت عن آخرها،
 صرَّخ له في انهار وأنا أكرر في أنه قد أجاد تلك الطريقة من خلال تجاربه
 في الحث التي أخرجها من القبور، ناجحًا فيما هدف إليه تمامًا، بعدما نُتَح
 الصدر أمامنا باستخدام مُبَعَّدَيْن معدنيين، فظهر التجويف الصدري وما به
 من تلك ورثة وأوعية دموية أمام عيني، أبدت الورثة الخفية لحزء من القلب،
 وسُئني أن أقرب المصباح بعض الشيء، وأخذ يفحص القلب مليًا، حتى نظرتُ
 لي باسمًا وهو يقول بارتياح واضح:

- إنَّ الرمح لم يخترق الجدار الخلفي للقلب، إنَّ الحدار الأمامي فقط هو
 ما أصيب، إنَّني محظوظ للغاية.

ثم قطع جزءًا صغيرًا من غشاء القلب وثبَّته فوق الجرح الظاهر أمامنا،
 فلأن يبدأ في خياطته في هدوء وتركيز شديدين، تمنيت لو كان أبي موجودًا
 ليرى المهارة التي يخطط بها نوح الجرح، حتى انتهى فقال:

- اعتقد أن الدماء ستتدفق إلى عروقها مع نهوضها، لقد أعلقتُ الجرح
 مثلما تعودتُ أن أفعل في تجاربي الناجحة.

قلتُ باسمعة:

- ستصبح بخير.

مر رأسه إبعثاً، ثم تأكد من عدم وجود إصابات أخرى في الرئة أو الأذن،
الدموية، وأغلق القفص الصدري مجدداً، وباستخدام أسلاك نحاسية ربيبه
مررها من بين السلوع بدأ يُخيط نصفي عظمة منتصف الصدر المشقوق
ويُلصقها بإحكام شديد. حتى أغلقت تماماً، تم خيط الجلد من فوقها، ونزل
إبرته حاسماً، وقال متبهذاً:

- لقد انتظرتُ أكثر من أربعة أعوام ونصف حتى تأتي هذه اللحظة.
سنبقي السريحة مع ظهور الشاهد ليلاً.

قلتُ وأنا أنظر إلى صدر الفتاة:

- اعتقد بعد كل ما حدث سينجح الأمر.

قال:

- أتمنى ذلك.

ثم سألني أن أسبها الفسار الذي أحضره معه، ومخرج لينتظرنِي في
الحارج، ففعلتُ ما طلبه مِنِّي، ثم ناديتُه، فدخلَ إلى داخل اياخشال مجدداً
لنجلس بحوار ناي في انتظار حلول الليل.



لم نتحدث كثيراً خلال الساعات التي مكثناها ننتظر، إذ طُلُ الفتى شارفاً
طوال الوقت محدقاً نحو ناي، وكلما هَيَّئَ له أنَّ الفتاة تتحرك استقرَ به
جلسته ليقترب منها، وعندما يتأكد من سكونها يعود مرة أخرى ليجلس
بمساري، فأقول له بسملة:

- لم يأت الليل بعد.

فيبزز رأسه في توتر ويواصل حملته فيها.

عما حلَّ الليل خرجنا من اياخشال، ونُظَرنا نحو اشاهد نظرة طويلاً
شعرتُ حبيها بالاضطراب الذي يحمره كلياً قبل أن ينزل إلي وكأنه يريد مني
كلحة تدفعه لفعلها، فقلتُ:

نفحات اللحظة التي استغرقتها لسنوات وكنت تموت من أجلها.

قال: لم أكن نسي سأكون مرتبكاً إلى هذا الحد.

قلت مشحقة:

- لقد فعلت ما عليك، إن استظار النتائج دائماً ما يرافقه قلق، إنه أمر طبيعي، حيا، لدرى كيف كانت مهارتك في إصلاح قلب الفتاة أيها الطبيب العاهر.

مر رأسه صامتاً بوجه يحتقن من الارتباك، ثم دلف إلى داخل الياخشال ومن ماي، وخرج بها إلى رقعة أرض مكشوفة كنت قد فرشت بها ملاقة ملبة رضعها عليها، لم تكن في حاجة إلى ضوء المصباح بعدما كان ضوء الشمس والقمر لأخر كافيين لإظهار كل شيء، ورغم ذلك أحضر المصباح إلى معها ووقف بجوارها ينظر إليها، فمددت يدي وأمسكت بيده التي كانت زنت قال مجأة وكأنه تذكر شيئاً:

- متشعر بألم شديد عندما تنهض.

قلت ماسحة:

- ما أكرها الأعشاب المسكنة.

نر أن أصرح إليه عندما لاحظت بدء روال شحوبها شيئاً فشيئاً، وكأنني لم أسمع في عروقتها كماء يتدفق إلى الأنوار البقة، لتعطي جلدنا لوناً ربياً نائخ، فزاد ارتجاف يده قبل أن ينزل على ركبتيه بجوارها بأناس كنت سمها، وفتح أزرار فستانها باضطراب، ويقترب العصباح من صدرها، ويبدفرد إصبعه إلى الجرح المخطيط في منتصف الصدر، ويقول غير مصدق:

- هناك قطرة من الدماء بين حافتَي الجرح كأنك خبطت جرحاً حديثاً.

قلت:

- لقد بدأت المعجزة في الحدوث.

قال وهو يضع أذنه على صدرها الساكن:

- لم يدق قلبها بعد،
- لكنه ما لبث أن فتح فاهه مدهولاً، وقال:
- لا، هناك دقات، ضعيفة نوعاً ما، لكنها دقات قلبية.
- ثم رفع رأسه عن صدرها، وصرخ:
- وهناك تنفس أيضاً.
- قلت:

- لندعها تنال كفايتها من ضوء الشاهد، لديث الليل بأكمله.

هز رأسه موافقني بإيماءات مضطربة سريعة، وعاد كالطفل ليجلس على

بعد خطوتين منها، لكنه سرعان ما رجع إليها ووضع أذنه على صدرها، وقال:

- ما زالت ضعيفة.

ضحكتُ وأنا أقول:

- لم تمر دقيقة منذ آخر مرة سمعتُ فيها دقات قلبها.
- فعاد إلى مكانه وجلس وقتاً أطول تلك المرة.



شيئاً فشيئاً صارت حركة صدرها ملحوظة، ولما عاد نوح ووضع رأسه

مجدداً صاخ في فرحة كبرى:

- صارت دقات القلب أقوى، يمكنك أن تضعي رأسك لتسمعها.
- قلتُ بإسمة وأنا أستشعر دفء يدها:

- لا أحتاج لسماع قلبها، لقد نهضت أميرتك يا فتى، أعتقد أنها نائمة

فحسب.

قال هامساً وكأنه لا يريد إزعاج مناعها:

- سأظل بجوارها حتى تنهض من تلقاء نفسها.
- ضحكتُ وقلت:

وإلى أمي حتى أشهد لحظة لقائكما

مستورب عن يد شاكزا، وأكملنا حلوسنا مجوارها، حتى طلع النهار
وخرجت الشمس من اسماء، حينذاك حش بيض شريان رقتها في ترقص
بعضنا في أرياح، وكأن حملًا ثقیلاً أریل عن صدره.

معنا قليل أحسرت أصابع يد الفتاة اليسرى تحريك، فصحت إليه، فوثق
من يده، وحينئذ في يدها التي ارتفعت لتتحسس منتصف صدرها ووجهها
في ما يختصر نالما، قبل أن تفتح عينيها ببطء لتظهر مقلتاها الصفراوان،
رئت حولي مكدقة إليها، وقتها شعرت متسارع دقات قلبي وهي تتعشى
بهي، فل أن تحرك بصرها إلى نوح الذي بدأ يبكي، وتقول بصوت واهن
بالحصاة من تأمل وجهه:

ما حدث يا نوح؟ هل نجونا من الجنود؟ وأين أمي وأمي؟

نحو بنش بقوة، أما أنا فعدت إلى الخلف بضعة خطوات وعقلي يترك
ثوب حقتنا المعجزة بعودة الفتاة مجدداً إلى الحياة، فما لنا في حاجة
إلى معجزة أخرى كي يتقبلها أهل القرى بعينيها الصفراوين بعد ما راوه ليلة
من هياكل الذئاب الناهضة.

بهدنة ومصدومة وغير مصدقة كانت ناي تستمع إلى نوح الذي أخذ يسرد
 ليحس من طعنات باربع في قلبها حتى اللحظة التي نهضت فيها، بينما
 بن يومئذ لي لاؤك حدثاً ما.

في داخلي كنت أعذر الفتاة في ذلك الاضطراب الذي تشعر به، فمن ذا
 الذي يصدق ما حدث إن كان في موضعها، خاصة مع إخفاء أمها عنها أمر
 متعالية نهوضها إن قُبلت وظهر الشاهد من جديد، حتى انتهى نوح من سره
 من غير أن يذكر أمر إخراجه الجثث من القبور أو الحكم بإعدامه،
 بدأت الفتاة:

- لا أصدق شيئاً من هذا، لكنني أتعجب في الوقت نفسه من ملامح وجهك
 التي كبرت فجأة وكنتك صرحت رجلاً راشداً بين يوم وليلة.
 ابتسم وقال:

- سيظهر الشاهد في السماء مع حلول الليل، وعندما تبصره ستصدقين
 كل كلمة قلتها.

سألت:

- وأين أمي وأبي لأن؟

قال:

- لا أعرف عموماً شيئاً عنك خطعت حسدك وحثت إلى هذا، لكنني قد
 أرحمك إليهم حالاً إن أحببت.

قلتُ مقاطعة له:
- لا أظن أن تمرُّكما في المكان فكرة صائبة، لا بد أن الناس يعيشون في:
رغمنا حقيقياً بعد ما حدث في الأسس، ومع انتشار الشائعات والخوارق
بينهم لن نضمن رد فعلهم نحو نبي أبداً إن رأوا عينيها.

رغم نوح شفّيته وسألني:

- إنس ماذا تفعل؟

نكرتُ قليلاً ثم قلت:

- سأعود أولاً إلى الحانة لأحضر ثوباً ذا قلنسوة بها، وعصابة نقماشية
سنغطي بها عينيها، ثم نبتعد بها إس الغابة ليلاً عندما يأوي الناس
إس بيوتهم.

أوما برأسه موافقني، فذهبت وركبت حصاني لأعود إلى الحانة، فوجدت
الهرج والمرج لا يراى بعمران القرية وكثيراً من الجنود قد حضروا إليها من
أماكن أخرى واصطفوا في صفوف منتظمة في الشوارع الرئيسية وساح
المحاكمات، سألت أحد المارة عما يحدث، قال:

- إنهم يستعدون للبحث في كل جانب عن أي عظام للذئاب قبل حلول
الليل وسمعت أحداً عن إجلاء وشيك لأهالي القرية، لكنّها لا تزال
أخباراً غير مؤكدة.

شكرته، ثم توجهت سريعاً إلى الحانة وأحضرت من غرمتها الخلفي
قستاناً ذا قلنسوة كبيرة يناسب مقاس ناي، وقماشة سوداء نطيفة نسجها
رفيق مدخر أشيء، وبعض لطعام، ومن أسطبلها حصاناً آخر، ثم توجهت
إلى عيادة نوح وأحضرت بعض الأعشاب المسكّنة التي كنت أعرفها منذ
معيشتي مع أبي، وعدت مرة أخرى إلى نوح ونأي، لأحده قد حطّم لياخشال
بأسه، فتساءلتُ مستغربة:

- لماذا فعلت ذلك؟

قال ياسمًا:

في يوم الرب أحسنه فيه وقد حن.

وتمت مدته وقد

ولم تضعك بأي التي كانت لا قول في حالة الاضطراب التي
في البيت بها الحسن الذي حضرته، ثم لاحظت عدم قدرتها على رمع
بوتة ألم تسرها عندما أرادت ارتداء فوق ثوبها، فساعدتها وذلك
بمرايس الحسن التي كانت في طريقها إلى الغروب:

سأل الفتاة في حاجة إلى الراحة لأكثر من يوم كي تستريح القليل
من الألم عليها التحول بها إلى العانة هذه الليلة كما نريد، فبين
ومرر لسفود الباحثين عن عظام الذئاب إلى هنا.
مرأته مرافقا وهو ينظر إلى ابتعاد.

ooo

من ظهر الشاهد في اسماء فبضت بأي من رقدتها بصعوبة وشئت
بمعونة في زحول ويسمى ناضين، كاذن ح ينطق بقضت على مة عني
منه وشئت في تلك اللحظة، ثم التفت بحوب وكأنها بدأت تصدق ما قاله
وعدت

م أتم عليك في كلمة واحدة

مركت إليه ببطء واحضنته دون أن تقول شيئا، منط تساقطت دموعها
مراسيا تلك حبيبا

م تب أن يغدر الآن قبل أن يباحث هيكل ذنب أو حادي بالهض مثلي.
وذهب

معك الاحترام لك طمعا.

نمت، وحررت راسيا إيحانا، مركب روح احضان، وحملتها بمساعة
م تم ركض احضان الاخر، استحول هابطين نحو الطريق الملتف

حول القرية الذي كان مهمودًا تمامًا في ذلك الوقت، وعلى الرغم من
حرصنا على إطفاء عيني ناي بالعصاة القماشية، وإخفاء رأسها خلف
الكتف لكثرة حشني وصلنا إلى مشارف الغابة، وهناك أزلنا عنها القمصان
وعصاة عينيها، واطلقنا إلى أعماقها حتى قطعنا مسافة بعيدة عن القرية
فعرضت على أن نتركهما وأعود أدراجي، لكن نوح رفض ذلك حوّلنا من أقدام
لأي هجوم مفاجئ من الغناب الناضجة، فوافقته بعد تفكير، وأكملنا مع
الطريق إلى بيت والدتي ناي الذي وصلنا إليه مع طلوع النهار، وبعد
مجهوزا محطم الأبواب والنوافذ والأثاث، وشباك العناكب ولأثرية نعشم
كل أركانه، وفي سائت الخلفي كانت توجد عربة متهاكة تحمل صوريين
قديم يقطيه انتراب، قالت ناي في صدمة كبرى بعدما تفحصتها:

- أين ذهبوا؟ ولماذا لا أشم رائحتهما في البيت أو في عربة أمي؟

تنهّد نوح وقال في حزن:

- يبدو أنهما هجرا هذا البيت منذ سنوات، ربما غابراه بحثًا عن
ارتسم الحزن على وجهها، فقلت:

- لا نقضي سنبحث عنهما مستقبلًا، أمّا الآن فأعتقد أن هذا البيت ليس
لإخفاك هنا حتى تتضح معالم الأيام القادمة ويستتم حركتي ناعما

اتفق نوح معي ولم تعترض الفتاة، فبدأت أنا ونوح نتنظف البيت
يصلح من أثاثه، ولما انتهينا مع حلول الليل اتخذت ناي غرفتها القديمة
بها، فيما اتخذ نوح غرفة أبيها وأميها، أمّا أنا فبث ليطني مع ناي،
أن أعدهما عائدة إلى قريتي في صباح اليوم التالي على وعد بعوني
في أقرب وقت.



في خلال الأيام التالية استمرّت حالة الهرج والمرج المعتزّة بالحد
والقلة في فراثا، وتواصلت حملات الجيود الباحثة عن عظام الناس
وعرّفنا أن الحاكم أعلى أو مره بمضاعفة شمسك طبقه لقرار النعيلة سائر

فجود وإعداداته بكنائس من الجنود، وانقشرت الأناوين مع، الناس أيضا في
مقال بل من يشك في أمر حمله لصفات ملدية، فاضربت بعد ذلك أنباء
مدي زيارتي له ولثاني في بيتيها بأفغانة، فادركت أن النفس لم يكن يبعي
ممارسة العابة على أي حال وكأنه اكتفى من الدنيا بنائي

في تلك الأونة تعود الجنود على إحراق أي عظام يحدونها نهارا أمام العانة
من أجل طعامهم، والقبّة لقليلة من هياكل الذئاب التي كانت تمخر ليلًا
وتنهط إلى قرانا صيدت عبر فخاخ نصبت وشباك كانت تقيد حركتها من
خلوع النهار، انتهوى عظامها منفصلة، فيجمعها الجنود ويحرقونها في
القرى، أما ما أثار الرعب حقًا هي الهياكل العظمية للعديد الذين هاجموا
منازلنا بالليل وهم يحملون سيوفًا لا أعرف من أين أتوا بها، من تلك
الليلة نتوا فقط من قريتنا ثمانين فردًا من بينهم ثلاثون جنديًا وعاثوا
الدمار قبل طلوع النهار، والغريب أن الجنود لم يعثروا على أي أثر لعظامهم
خلال حملات التي قاموا بها في الأنهر التالية بأحدل المجاورة، ليهاجموا
ببساطة أخرى ويقتلوا عددًا آخر من الرجال في قريتنا والقرى المجاورة
وبلاست كان من بينهم أبي ومساعدته غنام. حينذاك أمر الحاكم بإحالة قرانا
وزوجنا جميعًا عنها، لتتحرك قوافل السكان نهارًا مُحاطة بالجنود من
الجانب الآخر من الغابة، أمّا أنا فأتجهت إلى ناي ونوح لأعيش معهما على
الرغم من شعوري بأنّ محبتي للفتاة قلت كثيرًا بعد ما حدث أبي، لكنّي
استمعت إلى جانب ضئيل في داخلي كان يرى أنّها لا تحصل أي ضربة سوا
ولا تهتم بما يريده الشاهد أو هياكله انماضة.

حزن نوح هو الآخر على مقتل أبي وراساني كثيرًا، فشكرته على ذلك،
شكرته على سماحي بالبقاء معهما حتى أستطيع العودة إلى قرنتي بعد
استقرار الأمور، لتمضي أيامي معهما متشابهة تحضر طعامنا من نهر العانة
وماءا بعبرة أمّ ناي من عين كانت تنبع على مقربة ماء، وتتسامر مساء
تحدث في أي شيء إلى أن يخلبنا النعاس، وبين حين وآخر كنت أنعب إلى
فني شرو السابعة لاستقصاء ما وصلت إليه الأمور، حتى حدث ما لم تتوقعه

بعد شهرين من زهوس ناي إذ حدثتنا الفتاة فجأة بأنها استقبلت ألفاء وهو
 رؤية لها شاهد، قالت إنه يؤكد عجز ضوئه عن الوصول إلى الذئاب المدعوة
 ويوصي الملبدين بالتوجه في جماعات إلى الوادي المُغطى بالغار لكي يحدوا
 الذئاب، دق قلبي خفقاً مع معرفتي بأن هنالك مئات الآلاف من الذئاب مدعوة
 هناك، وإن تحققت تلك الرؤية واستطاعت هياكل الملبدين الناهضة إلى
 طبقات الغار فمن هالتون لا محالة، وإن فكر جانب في داخلي بأن بلداهم
 خامدون نهائياً سيظل مزية كُبرى تحقق النصر لجيشنا، بيد أن ناي استقبل
 رؤية أخرى بعد ستة أسابيع تكشف ترتيب الشاهد للأحداث إذ وعد الملبدين
 بعودة ذهب «صامون» من أجل فتح العبارات التي لا يستطيع فتحها بونه،
 ومن بينها عارة بحيرة جعارة التي ما إن يفتح ماؤها مجدداً حتى يذهب إليها
 كل ما هو باهص ويفقر عظامه فيها، فيكسب لحماً من جديد، ليبقى على قيد
 الحياة ليلاً ونهاراً، قال نوح حينذاك مرتعباً:

- إنس لو عاد ذلك الذهب إلى بلدنا ستكون النهاية.

قالت:

- نعم، ينتظر الشاهد أن يعود ويرأ في أم العبارات التي لا أعرف عنها
 شيئاً سوى أنها توجد في أسبق عميقة بجبال الغرب.

عكزت وفتها في الذهب إلى قادة الجنود لإخبارهم بأمر تلك الرؤية
 لكن نوح أوقفني خشية أن يعلموا بوجود ناي بيننا، فأنصعت له في النهاية
 خاصة مع إعلان الحاكم القضاء على جميع الملبدين الناهضين وإقامة الأبراج
 والاحتفالات بهذا النصر وإن أمر باستموار خلو القرى الخربية من ساكنيها،
 كدب نفسي بأن الأمور قد حُلَّت نوعاً ما ما دامت حُرقت هياكل الناهضين
 ولم يعد ذهب «صامون» إلى بلدنا، لتمر الأيام تبعاً دون جديد، حتى ثلثت
 ناي رؤية بيت لها شاهد وعداً جديداً باقتراب عودة الذهب إلى واديها،
 ليرداد حيرتي ما بين الحفاط على ناي والحفاظ على بلدي، لكن انقدر لم
 نميلني وقتاً من التفكير بعدما صادف بيننا أحد الجنود العارفين في الغابة،
 ورأى عني ناي التي لم تتخذ حرصها، وحينذاك حاول اعقالها بينما كان

في ذلك الوقت، حاولت معه من اقتياعها، لكنه انكمش
 في الخفاء، فدل أن يتصل نوح في اللحظة الأخيرة ويصبر رأسه وحاشا
 له، ثم رجع معه وأسهل الحربية، وكان يُحذر عليه إلا أنه استطاع الفرار
 مني، كان يرمي على مقربة منا، وقتها أدركنا أن لقاءنا في ذلك الوقت
 بعد هروب الجندي واحتمال عودته ومعه كتيبة من الجنود، لذا
 قررنا بمرارة السيدة ربحانة والحصان الوحيد الذي بقى لدينا إلى مكان آخر
 في الغاية من عديس بقدر المستطاع عن بيتنا القديم، ليُشيد نوح كوخاً آخر،
 وهناك أخبرته بأن رحلتي معها قد انتهت وأنتي سأعود إلى قريتي حتى لو
 لم يعد السكار إليها، وعدتُ إلى حائتي المحجورة معي فأُس الجسدي الحربية،
 لميش بفرقتها الحلبية السفلية أتغذى على فواكه مجففة كانت مُخزنة لدي،
 ولا أنطلق لشيء سوى كذب رؤى ناي وعودة الأمور إلى طبيعتها، لأنني قرابة
 شهر هناك بمفردي دون أن يمسنني ضرر أو الحط شيئاً حديثاً، قبل أن أسمع
 ذلك الضجيج المفاجئ في الحانة وأخرج إلى صالونها وأجد الغريبيين خالد
 ومروة، وبحاراي قصتهما مع ذنب صامون، وأدرك أن النهاية التي كنا
 نخشاها صارت على وشك الحدوث.

قدم الغريبيين إلى كوخ نوح وناي، كان خالد يصر على أن عظام الذئب
 تحولت إلى صفور في كل مرة كنت أحدثه فيها عن استحالة حدوث ذلك الأمر،
 أما مروة فطلت صامته تتطلع إلى السماء المُضاءة بالشاهد الذي سطع موده
 أكثر خلال اليومين الأخيرين، ثم تحول الحديث بيننا إلى قصة نوح وناي،
 فسردتها ليما كاملة أثناء سيرتنا، ليمر الوقت سريعاً حتى وصلنا إلى كوخينا،
 تعجب نوح من إحضاري شخصين غريبيين، قرويتُ له وناي قصتهما، لم
 يهتم خالد بالريبة التي بدت على وجه نوح وأخذ يسأل ناي عن الرؤى التي
 تلقاها من قبل، فأخبرته الفتاة بكل شيء تلقته في منامها منذ عودتها إلى
 الحياة، سألتها إن كانت قد تلقت رؤية جديدة خلال الساعات الأخيرة، فأجابته
 نافية، فتالت مروة:

- إذن لم يصل الذئب إلى أم العابرات حتى الآن.

فقال خالد متعجباً من سؤالها:

- تعلمين أنه استحال إلى صخور.

نظرت إليه بوجه أحمر من الدماء التي اندفعت إليه، وقالت:

- لا، إنني من وضعتُ الصخور في حقيبتك، لقد فرّت العظام مني عندما أخرجتها أثناء نومك كي أُنحصها.

استشاطت عينا خالد غضباً، وصاح فيها:

- لقد أضعت علينا بأنانيتك سبيل خروجنا من هذه الأرض، ووضعت أمل هذا البلد أمام مصير مجهول لا أحد يعرف ماهيته.

صمت الفتاة وكأنها لا تجد كلمات تقولها، ثم بدأت دموعها تتساقط، فقالت ناي وهي تنظر إليها:

- لقد وعد الشاهد بعودة الذئب إلى أم العابرات، كان أمراً مقدراً سيحدث معها أو مع غيرها، سنتظر ونرى ماذا سيحدث أفضل من إبقاء اللوم على بعضنا بعضاً.

لقى خالد حقيقته بعيداً، ثم لاذ بصمته وهو يرمق مروة بنظراته الغاضبة، أما أنا فسألت ناي:

- كم من الوقت قد يلزم الذئب للوصول إلى هناك؟
أجابني.

- لا أعرف، لكنه سيحدث الليلة.
سألتها.

- وكيف سنعرف أن ذلك الأمر قد حدث؟
هزّت كتفها، وقالت:

- لا أعرف أيضاً.

- ربما الفتغيثُ خلال الستة شهور الماضية خوفاً على حياته، لكن حادثة اللحظة لتحذير قومنا أن قولهم في وجه الجحائل التي أراني الضمير صورها لن يكون إلا إبادة لهم، علينا أن نسرع إلى شرق القناة أكثر ونخبر السادة والجنود والعامة بما هو آتٍ إليهم مع التقاء البعدين بعد أقل من شهر.

بما لو لم أذهب إلى أرض زيكولا من قبل لفكرت أنني عالق في أرض من
سوء والمجاسين واللامنطق، لكنني وبعد كل ما رأيته في رحلتي السابقين
من جميع القرائب أمراً متقبلاً بالنسبة إلي، لذا عندما أخبرتنا ماي عن
بينة البينة لم أجد أن النوتر والحواف قد يجديا نفعا وإنما علينا أن نفكر
مفانية في الخطوة التالية، والتي اتفقت فيها مع ما قالته العثة بأن حكام
الشرق قاراته لا بد وأن يعرفوا بما هو قائم يطيح بأأسهم كي يخلوا مزيماً
وتدري ويعزوا دفاعاتهم إن استطاعوا، بيد أن نوح أعلنها لنا صراحة بأنه
ربح أبداً بذهاب فاي لإخبار أي قرية بالحق التي تلقفتها، مؤكداً أنهم لن
يستقروا بل سيعتقلونها من أجل إعدامها أمام العامة، وبعد جدال كبير بيننا
منذ وبينه انتهى الأمر بتشديقه بقراره، لنقول سارة في النهاية:

حسناً يا نوح فلتحتفظ فاي برؤياها، لكن علينا أن نتجه إلى شرق
العابة، بقاؤنا هنا لن يحسن إن أتت تلك الجحافل وعثروا علينا في
طريقهم

بتردد طويل منه وثيقه وعذا من ثلاثتنا أن مروة وسارة بعدم إنشاء
برثي بهما حدث وافق على تحركنا في لصباح إلى الشرق.



مع غروب النهار غطينا عيني فاي بعصابة قماشية خفيفة، وبصعوبة
سعدنا استخراج نستان قديم من الكوخ المهدوم، كانت ماي تحتفظ به من

ثياب أمها التي عثروا عليها في بينها القديم، وارتدته صرورة بدلاً من السواد.
التخير والسترة الصوفية التي كانت ترتديهما، خرجت ضحكة رغماً عنني أصدا
كان الفسوس واسفا حلاً عليها ومرفقا فوق فخذيهما، لكنه كان الحل المثالي
لسارل اختلاف ثيابها بواضح عن ثياب نساء هذا البلد، أما أنا فأعازني نوع
معلقاً تديلاً ارتدته فوق قميصي دون أن أبدل بنطالي القماش، ثم ركبت
جذيف عربية السيدة «ريحانة» بعدما أزلنا صوريج المياه عنها. لينطلق بنا
حصانها نحو الجانب الشرقي من الغابة.

عندما وصلنا إلى أولى القرى في طريقنا كانت الحياة عادية تماماً.
اشوارع مريحة بالأحالي، والأطفال يلعبون، والباعة يُنادون على بضائعهم.
قالت سارة في ضيق وهي تنظر إليهم:

- لقد صدقوا خطاب الحاكم بانتهاء الخطر، ولم يعد أحد يشغل باله
بشاهد السواد.

سأرت إلى نوح الذي كان يقود العربية ويتلفت كثيراً خوفاً من انتباه أي
مرد إلى ناي التي تقضي رأسها بقلنسوة مستأنها، وقلت:

- إن مات هؤلاء الناس نتيجة محوم الغادمين عبر العايرات قد تتهم
بهم.

لم يكثرث معاً قلته، وهز رأسه إيجاباً في فتور، ثم تقدم في طريق البلد
حول سيرة «حصرة» لجافة التي كانت أكثر كثيراً مما تخيت عندما سرت لي
ساره قصة تلك الودي، والتي قالت عندما رأني أندمض من مساحتها السعد:

- إنها تحتل ثلث مساحة شرق الغابة تقريباً، ومعظم نرى هذا الحشد
بطل عليها، ويُقل إن مياهها العذبة قديماً كانت تكفي بلادنا والبلاد
الأخرى.

قلت:

- أعتقد أن عودة مائها هذه المرة سيكون نذير شؤم على كل من يمشي
في هذا البلد.

مرت رأسها في قاق، ثم أكملنا طريقنا لنبضع ساعيات أخرى، حتى وصلنا
إلى ما يدعى «مراذيل» التي كانت تختلف كثيراً عن القرى من حيث أسوارها العالية
التي تحيط بها وبيوتها الفخمة وشوارعها الواسعة المعبدة. وهناك أيضاً
من شوارع الر، آخر حتى وصلنا إلى حرم، وهو مزدحم كالروح إنساناً سببت فيه،
لم يكن يمتلك مالا، فعرضت ناي فوطيتها على نوح في مستأجر بيتاً لشهر
على الأقل، وافق الشاب على مضمض بعد إصرار العنقاء، وذلك حلول الليل كما
قد استأجرنا بيتاً واسعاً دون أن ينتبه أحد إلى ناي التي اتخذنا قراراً باقائها
في ذلك البيت حتى إشعار آخر، ومع إزعاجي الشديد ذلك الدهاء عت في
نعاسي بمجرد أن وضعت رأسي على الفراش، ولم أنهض إلا مع صباح اليوم
التالي عندما أيقظني مروة صارخة بأنها لا تجد ناي في أي غرفة من البيت.

ooo

نمل أن استعيق تماماً كان نوح قد بحث عن ناي في كل أرجاء البيت ثم
خرج كالعجنون ليبحث عنها في الشوارع والأماكن الساعرة، في ذلك الوقت
لاحظنا وجود رسومات رُسِمت حديثاً بحجر أبيض على حوائط الغرفة الأربعة
التي مامت فيها ناي ليلتها؛ فبل ضخم له نايان طويلان يركبه رجل في يده
رمح. ورسمه تشبه أسداً من دون لبد، وأخرى لحيوان لا أعرفه كبير الحجم
وله خالب طويلة، وأخرى لدب، وأخرى بقرد يخلط بعض الشيء من القرد
التي أعربها، ووحيد قرن، وذئب، وحيران يشد النمر له ألياب طويلة طويلة
كالقناجر، تمتعت مروة وهي تقف أمام رسومات الحائط الأول

- يا مروت! وأسد الكهوف!

ثم انتقلت إلى الحائط الثاني وقالت:

- حيوان الكسلان العملاق! ودب الكهوف!

ثم انتقلت للحائط الثالث وقالت:

- الشرد العجائز! ووحيد القرن المنقرض!

وامام الحائط الرابع المرسوم عليه ذئب والحيوان الذي يشبه النمر فالتفت
في نبرة خائفة:

- الذئب الرهيب، والسميلدون!

ونظرت نحوي وقالت:

- إنها حيوانات العصر الجليدي!

سألتها سارة في ترقب:

- ماذا يعني ذلك؟

أجابتها:

- لا بد أنها الحيوانات التي سترافق البشر الأوائل القادمين عبر العبارات.

أعتقد أن ناي تلقت صورًا واضحة لها في رؤية جديدة، ورسمتها على
هذه الجدران كما رأتها تمامًا.

وأردفت بنبرة خوف واضحة:

- إنها وحوش ماضي أرضنا السحيق.

عاد نوح في تلك اللحظة من الخارج وقال مضطربًا:

- لم أعر على ناي في أي مكان.

فقلت وأنا أنظر إلى الرسومات:

- لقد استشعرت انفتاة عظم لخطر القادم إلى هذه الأرض، لذا غادرت

بعض إرادتها لنخبر سادة هذا البلد بما هو على وشك الحدوث عبر

آبيه بما قد يحدث بها، وتركت لك هذه الرسومات كي تعذرها في قرارها.

التفت إلى الرسومات التي بدا أنه لم ينتبه إليها أثناء بحثه عن ناي في

الغرفة بعد استيماظه وبعد استغراقه وقتًا طويلًا في تأملها خرج راكفًا

من دون أن يقوى شيئًا، فحاولت اللحاق به، لكنه ركب حصان الوحيد الذي

محرزتنا واطلق هبثدًا.

خمسة أيام كاملة عاد نوح أخيرًا، كان واضعًا على ملامحه أنه لم يتم
بشيء من تلك الأيام، سأله سارة على الفور:

هل وجدتتها؟

أعدها لي اقتضابًا.

كما توقعتم، لقد ذهبت إلى قصر الحاكم، لم أستطع معرفة شيء عنها
سوى أن أحد حراس القصر أخبرني أن ملية محبوسة قدمت إلى هناك
بجرا، وأصرت على مقابلة الحاكم بنفسه من أجل أمر مهم.
وفي حزن شديد تابع:

قال أيضًا إنها تقبع في سجن القصر منذ ذلك الحين، ولم يخبرني بأي
معلومة إضافية. بقيت هذه خمسة أيام محاولًا الوصول إليها، لكنني لم
أستطع. ومع قلة حيلتي عدت إليكم كي تفكر معًا، أخشى أن يستمر
يوم التقاء البدرين.

قلت مراسيًا له وأنا أرت على كتفه:

سنجد حلًا يا فتى، لطالما عُقِدت الأمور نوجدنا لها مخرجًا.

تركني وتقدم إلى غرفته في حزن شديد، فسألني مرة:

كيف تفكر؟

قلت:

لا أعرف، لم يعد أمامنا سوى الانتظار لنرى ما سيفعله القدر.

قلت سارة:

سأذهب إلى ذلك القصر، سأخبرهم بصدق الفتاة وسأفعل كل ما في

وسعي ليستمعوا ليها، لن أجلس هنا كالحجارة، وهذا قنأ بريثا

وآلاف غيرها على وشك الموت.

قالت سروة:

- أعتقد أن علي الذهاب أنا الأخرى أيضاً، إن كنا سنفوت في جميع الأحوال.
فلن أحلّس مكتوبة الأيدي هنا، عبيدا أن نحري محاولة لإجبارهم على
الانصياع إلينا قبل فوات الأوان.

نظرتُ نحوهما مفكراً، ثم قلت:

- حسناً، لنحري تلك المحاولة.

حينئذ خرج نوح من غرفته وقال:

- سأتي معكم أنا أيضاً.

قبل أن ننحرك إلى قصر احكام ارتدت مروة ثيابها التي ألفتها وهي مر
مصر مرة أخرى معنفةً في شعور السادة بغربة ثيابها ولبحثها قد بينت
في عقولهم بئراً لتفكر وانعاش، فافتتحتُ بحجتها وحسبُ معطفي سر
استعرتة من نوح أن أيضاً، ثم انطلقنا إلى هناك نفودنا سارة التي عجزت
نفسها إلى أحد جنود الحراسة الواقفين أمام بوابة القصر. نظر الحرس
مستغرباً نحو مروة ونحوي قبل أن يغيب لدقائق ويمرود ليقود إلى مر
داخل القصر لضم المَحاط بسديقة واسعة من أشجار الماكينة ولورد مدّت
سارة رمت تتقدم من ورائها.

- لا أعرف خدمة الحاكم أمّ المرة الأولى التي راد عبيدا

وقال نوح الأثر مصر، بكنا لم تأخذ وقتاً طويلاً لك أنت
سر أحد قادة الحرس وليس احاكم مصر، قد لسان النار الذي ساء
أحزني البشري أنكم جنته من أجل أمر تسمى بصر شئنا لك
واسطية مسجينة.

دانت سا :

- نعم سير

ديمات تقص عليه قصة ناي ونوح مستشهدة بالندبة التي تشق متعطف
 من الفتاة، وكيف نهضت بعد سكون قلبها لأكثر من أربع سنوات ونصف
 ثم بات تروي قصتي أنا ومروة، فاستأذنت منه أن أحكي تلك القصة، وبات
 تروي قصتي منذ إخراجي عظام الذئب إلى اللحظة التي رأيتها ناي يوم سُمع الغواء لم
 ذلك عبر سرداب فوريك، وعن الرؤية التي وصلت فيها إلى ذلك
 جماء وامتزجت الأرض بقوة، ظل يستمع إلينا دون أن يعقب بكفة، ولمدة
 سنيننا أنه يصدق حديثنا، حتى انتهينا فتركنا وغادر لأكثر من سائمين
 كما يعرف أنه يناقش خلالهما أمرنا وأمر رؤى ناي مع حاكم البلاد قبل أن
 يعود ومن دون أي مقدمات فوجئنا بالجندود يقعدوننا بغلظة إلى خارج تلك
 القاعة، ويصطرون بنا إلى حمرات سفلية متشعبة شبه مظلمة، حتى انتهى بنا
 الحال إلى مبنى الضجر السفلي، أنا ونوح في زنزانية، ومسارة ومروة في زنزانية
 أخرى سمعنا صوت إغلاق بابها على بعد أمتار منا، حين أن نعرف ما إن كانت
 الزنزانية فيها ناي أم لا، قال نوح في يأس بعد أن أغلق باب زنزانته:

- انتهى الأمر، لا يريدون أن تنتشر رؤى ناي بين الناس فيضيع الخوف
 والفرع بينهم فلا يستطيعون 'سبطه' علينا، إن ذلك الحكم رديء
 ليسوا من هذا البلد، ما إن يشعروا بالخطر سيغدروا البلاد فيتحل
 ليركوا أهلها بواجزون مصانهم بأنفسهم.

قلت:

- أظن أننا فعلنا ما هو صائب في حدود إمكاناتنا، كان لا بد أن نأتي إلى
 هنا ونخبرهم بحقيقة ما نعزفه، من يدري لعل أحد أولئك الشاب يشر
 ويتخذ قراراً يحمي به الكثيرين.

قال بغيرة اليأس نفسها:

- أخبرتكم أنه لا جدوى من ذلك، سنبقى هنا في هذا السجن حتى تتل
 حشاً، كان علينا أن نبقى في الغابة، لقد أنقذتموني عييتي من...

صحت يده:

- لست الوحيد الذي فقدت حبيبتي، جميعنا لدينا أحباء لا نعرف عنهم شيئاً،
أنت فقط تنظر إلى الأمور من منظور ضيق للغاية.

لأد بصعته قبل أن يفهم:

- لم نأخذ من الغرباء إلا كل أذى، قديماً اللصوص السمر الذين قنعوا مر
العابرة وقتلوا الذهب، وأنتم الآن بعدما فقدتم الذهب.

سكت أنا الآخر، لكنني عدت بعد دقائق وسألته مستغرباً وأنا أنذكر مشهد
الهجأة الذي رأيته في الرؤى التي أبصرتها وأنا أمس رأس اسني يمين أثناء
مرضه، وأنكر أيضاً في أن سارة أخبرتني أن اللصوص لم يتمكنوا من الوصول
إلى بلايهم مع مطاردة ذهب «صامون» وياقي ثياب العبارات لهم:

- كيف عرفت أن اللصوص كانوا سمر البشرة؟

قال بغير اكتراث:

- لقد أخبرني السيد «رسلان» والد السيدة «سرة» ذات مرة عن أحد
اللصوص الذين استطاعوا النجاة حينها، وعالجه معلم سيدي وبرز
قصته لكاملة في كتاب كتبت على وشك قراءته لولا أن طردني سيدي
من عيادته قبل أن أشرع في ذلك.

حينذاك تسارعت دقات قلبي، وسألته:

- أين ذلك لكتاب؟

قال:

- إنه في عيادة سيدي، هناك في إحدى قرى المغرب، كتاب يحمل عنوان
«قصة المصاب الأسمر».

فكرت في أن ذلك الكتاب قد يكون أمل رجوعي إلى قريتي إن استطعت
النجاة بعد تلك الحرب الوشيكة، ثم وجدت نفسي أضحك عندما تذكرت
الكتاب الذي طللت أبحث عنه في أرض زيكولا فاقداً كل وحدات ذكائي، وكان
التاريخ يُعيد نفسه، سألتني نوح عما يضحكني، فقلت:

- لا شيء.

وسأله عما إن كان يعرف أي معلومات أخرى عن الكتاب، فأجابني
لا، كل ما أعرفه أنه يقبع هناك بين كتب سيدي في المكتبة السفلية، لا
بدونه غارق بين الأتربة الآن.
لزمنا براسي، يحابنا ثم ساذ صممتُ طويل بيتنا.

٥٥٥

مرت الساعات والأيام تباعاً دون أن يحدث أي حديد، فقط يفتح باب
دراسة بين حديق وأحد لي يلقي لنا جندي الحراسة قطعتين من العيز
بنا، مبدئنا، ومع مرور الأيام وشيوع الظلام ليلاً ونهاراً في الدراسة بسب
بذلك، شراؤها من كل جانب فقدنا الإحساس بالوقت ولم نعد نعرف كم مر
من الأيام، تنسرف إليّ لأحسب بأن فوج كان محققاً عندما قال إننا مستر
سأله حتى بعد أن حدثنا.

مازل نوح أكثر من مرة نداء السيدة سارة التي فتنا أنها محبوبة في
دميرة من رزانة قريبة، لكن إجابتها لم فصلنا قط، نعرف على النسي أكثر
في تلك الأيام بعدما أرح لي بما فعله من أجل ناي، أنعم شعرت بالثقة
في عند حديثه عن الجزء المتعلق ببش القيد وشو صدور العون،
بني احترام فيه ولاءه لحبيته ووفاءه بوعده إلي، ذلك نوح الذي كان
من شأنه أن يعيد موازين حرب كبرى لو نُشِ القادة عروهم واستعدوا إلى
ناي، إننا حديثه لنا أيضاً عن رحلاتي إلى ريغولا وش سردات لوريش،
على مسأرتنا وحوادث عابرات بين العوالم غير العابرات المست، فاتفقت معه
بالمردود ربما يكون عابرة إصافية لا يعرف عنها أحد، ولا يتحكم في
علائقه الشاهد، أو ربما يتصل بالعابرات بطريقة ما لا نفهمها، لكنه يفتي أفعالاً
حبيباً لولده لما كنت سجيناً معه في رزانة واحدة، حكيت له أيضاً عن من
يس، نسي بوندي استشفاء وحدثني عن أمه التي يعتلها، وعن أبيه الذي
نسي نكته بعد وشيئه عن ناي، لأدرك يوماً بعد يوم كم الشخصيات التي نام
بها ذلك القني من أجل حبيبته، ويقودنا الحديث إلى الملك نعيم الذي حرم

جيش بلاده من أجل إنقاذ الطيبة أسيل، شعرت بغيرته وكأنه تصور أنه آخر
من ضحى كي ينقذ حبيبته، فضحكت وقلت:
- كلُّ يضحى وفق إمكاناته.

لتمر الأيام تداعياً ونحن نروي في بأس القصص ذاتها كل يوم تقرئنا
وبزاد يفيننا مع مرور الأيام بأن الهلاك قادم لا محالة، ليس هلاكنا معص
بل هلاك أبشر جميعهم في هذا البلد، حتى حدث ما لم نتوقعه بعده، فتح
باب الزلزلة لسمة الثانية خلال وقت قصير، وتُفاجأ بجفدي يأمونا بأر
ننهض ونراقبه، وبقتادنا عبر السلالم والمعمرات العلوية إلى قاعة كبرى، كانت
تحتشد بكثير من القادة الوقفين مدروعهم في إطار بيضاوي على الحاسين
بينما يقف في نهاية القاعة قائدان، أحدهما يناهز الستين من عمره وبظهر
إبها، والآخر يعطيا ظهره، شعرت بأن أنبي يسطر إلينا هو حاكم منا الله،
ودق قلبي تفاؤلاً بأنه أراد أن يسمعنا أخيراً، قبل أن يلتفت إلينا الآخر، لتوقد
مكاني مجمداً حين قل باسمًا:

- عونا حميداً إلى عالمنا أبها الغريب.

همستُ غير مصدق وأن أحقق إلى ملامحه التي لم تتبدل كثيراً عن آخر
مرة رأيته فيها.

- لملك تعيم ١٩

ننم نومي وقد يده قاتلاً:
 - يسو أن القدر أراد لقاءنا مرة أخرى يا صديقي.
 - كنت بيتي والذهول لا يزال على وجهي:
 - كنت أنني في عالم آخر غير عالم زيكولا وأماريتا بعدما لم أجد أهدأ
 يعرف عنهما شيئاً.
 ما يامعاً:

- بها قصة طويلة سنرويها لاحقاً، لكن علينا التركيز الآن على ما هو أهم.
 يفر إلى حاكم وادي الذئاب بجواره، وقال:

- لم أظن في توقعي سيدي حين سألتك رؤية الشخص الذي يزعم
 نبوه من عالم آخر، إنه صديقي القديم «خالد حسني»، وهو صديق
 غانا بكل كلمة قالها عن نفسه، وأسألك أن ينم عن بعض الصلحات
 ما

نمظر إلي وقال:

- بعد إلا ثلاثة أيام على اللقاء العبرين، هيا يا صديقي علينا أن نتحدث
 عن كل شيء تعرفه.

نش حولي كال روح يقف ذاهلاً يحدق إلى الملك تعيم، سألها بظن إلينا
 - شمس، كنت للملك تعيم

- هناك ثلاث نساء أخريات ما زلن في السجن، نحن في حاجة إليهن.
نظر إس الحاكم من غير أن يقول شيئاً، فأوصى الحاكم برأسه وسرعان
ما أشار بيده إلى أحد حُرَّاسه، فمادونا الحارس وعادَ بهن بعد دقائق إلى
قاعة كنا قد دخلنا فيها أنا ونوح والملك تميم وقائد جيوشه الصيد «جريب»
وحاكم وادي الذئاب والقائد الذي قابلناه في أول مرة دلفنا فيها إلى القصر،
حيث جلسنا حول طاولة بيضاوية كبيرة تغطي سطحها خريطة مجسمة
لتصاريص وادي الذئاب من شرقه إلى غربه، قالت مروة مذهولة وهي تدل
إلى القاعة وترافقني أجلس أنا ونوح دون أغلال حول الطاولة:

- ماذا حدث؟ هل صدقوا حديثنا؟

أشرتُ لها كي تحلس على أحد المقاعد من غير أن أنسر لها شيئاً، بينما
دلفت سارة في صمت، فقط نظرت إلى الملك تميم والحاكم في ترقب وتعجب
وهي تتخذ مقعدها، وبعد دقائق أخرى أتى أحد الجنود بناي، فنهض نوح
سريعاً واحتضنيا، فطمأنته أنها بخير، ثم جلسا.

قال الملك تميم.

- لمن لا يعرفني منكم، إنني الملك تميم حاكم أمارينا.

نظرت إليه مروة بحدقتين متسعيتين فاتحة فاما بينما كان يتابع:

- لقد وصلت على رأس جيش مُجهز تعداده أربعمئة ألف مقاتل من أجل
حماية هذه الأرض من الشر القادم، والآن أريد سماع كل شيء تعرفونه
دون إغفال أي تفصيلة قد تظنون أنها غير مهمة.

نبدأنا في سرد كل شيء حدث بإسهاب كبير؛ أنا وقصني مع قدر الشيخ
موسى وذيابه، وما حدث لابني يامن، وتحدثت نوح عن الجزء العففي من
النبوءة وما حدث قُبيل لحظة تنفيذ إعدامه، وتحدثت ناي عن كل شيء رَأَتْ
في رؤاها منذ عودتها إلى الحياة، وبعد قرابة ستة ساعات من سرد القصص
جميعها تخيلتُ أن نقاشاً ما سيدور بيدي عن كيفية صد الغزو القادم، لكنني
توحفت بطلب الملك تميم مغادرتنا جميعاً القاعة بعد انتهاء قصصنا بينما

- كيف لا يعرف الناس هنا عن زيكونا وأمارينا؟

أجابني:

- إن هذه البلاد معروفة عن الحمير بهجر عظيم من الرمال المتحركة
حفظهم يظنون أنه لا توجد بلاد جنوبه، ووجهها مظهر أنه لا يوجد بلاد
شماله، حتى مظهر الشاهد من السماء قبل قراءة صفحة أشهر وبمعت
مقص هياكل الذئاب في بلدنا، وحدثنا أحد المعلمين عن قصة هذا الوادي
التي ذكرت في كتاب الله أحد المهاجرين منه، والذي تعدد طريقاً من
بين الرمال المتحركة أظهره الشاهد ومن حوت الذئاب كفي نهر الدقة
والمدبون غيره، يصل إلى جنوب بحر الرمال حيث دون كذا

في البداية عندما عرفت بقصة الوادي وقصة الشاهد، وروى القصة
قررت إسحال - يعني إلى أسوار أمارينا والاستعداد للدفاع من الداخل
أثبات ذلك الأمر، لكنني سرعان ما فكرت في معسير الناس هنا، ويجب
سيواجهون الأمر إلى صفت السيوة ونهضت كل ذئاب الوادي في الأسير
مثما ذكر الكتاب، فعارفتي النوم تعكيراً في أولئك القوم، وعبرني
شعور كبير بالنف إثر قرارني بالتخلي عنهم، ولم يسترح دالي حتى
أرسلت أمصل مقتفي الطريق على أسرع الجياد كي يخبروني إن كان
ذلك السريق قد ظهر مجدداً وسط بحر الرمال مع عودة الشاهد إلى
السماء أم كان شيئاً من خيال مؤلف الكتاب؟ وبالفعل عدت بحسبهم
بعد خمسين يوماً برسائل تخبرني بعنورهم على طريق منعرج صيق
بين الرمال المتحركة بالكاد يسير به ثلاثة جياد متحاوراً استداروا
تجاوزة إلى وادي استاب الذي يعيش فيه عدد عظيم من الأمالي، ثم
يأخذ الأمر ساعة نقاش بيني وبين الملكة أسيل كي أقرر المعنى
بحيشتي إلى هذا البلد من أجل حماية أهلها من ذلك الشرس القادم.

احمرّ وحيي عندما ذكر اسم أسيل ونعتها بالملكة، لكنني تداركت
اضطرابي سريعاً، وقلت:
- مبارك لكما الزواج.

بسم و قال
- وقد مررت بصرح سنوات على روحها ولم يحط بولم يولد بعد
و ما يجر ما يستأ.

- ثم ردها حينها، لم تكن لتعارض قراراً قد يقفد الأمان من ثمارها لما هو -
بيتي ما تملكه في أيام، والمحاق الصحة التي في بيتها ما -
عور ممرها المنتظر فككها في بعيد تسميتها هذا، ثم حركه
ميسا، يسا إلى الشمال، ومنه إلى ما هو بعد حور و قال ثم
أما هذه الشاهد بوضوح ليل:

ثم ستر ليس شمال حاتم وادي الذئاب الذي بنو سلة تحبها، فت
- كان ذب الرجل ذكياً عندما أرسلت إليه رسولا أحده من عذته
مس قدومي بخيشي وأعطيه ثلثة شرب يأتي استعارها، فاستأ
بعد قوائه من يستطيع إيقافي، وأعتقد أيضاً أنه على الرغم من
مقتب، خطر الذئاب والمطربين الناحسين كان بعث في حبه في
م يست بحث، وأن هناك شيئاً عامضاً يحدث حادثة مع أحده -
رأه ناي، فأثر استقبالي، وعندما لفتني أشرت به فتمسك بالعمى
بخيشي كال هذه المسافة، رأيتني صديق لا عدو، فحسني عن حرس -
قدومه إلى بلاده عبر سرداب، فتوقعت أنه أت، وأت بعد -
ملخص سريع لما حدث في الشهور الماضية

هزئت رأسي معجباً بعروته، وتساءلت:

- هل الملكة أسيل بخير؟

قال:

- نعم، إن الشعب يحبها إلى درجة العشق وأما ك -
نحوها ما هو قادم.

تسعت وقلت:

- سجدوا ولا وحش.

ثم سألت:
- أُم تقدم على قدومك إلى هنا بحديثك بعد ما سمعته من ناي؟
مُرُّ رأسه نافيًا وقال:-

- لقد تأكدتُ مع رؤى ناي أن عودة تلك الذئاب للحياة لن يكون هذه
الانتقام من بشر هذا الوادي فحسب، بل بشر كل البلبل للعبودية
ومدان حوب بحر ارمال المتحركة وأي بلدان في هذا العالم لا تعرفه،
إنها حربٌ مصيرية كنا سنحوصها لا محالة، سواء هنا أو عند أسوارها
وأردف:

- خلال السنوات الماضية خضتُ حروبًا كثيرة دفاعًا عن حقوق البشر
وحمايتهم من اتفاقيات طالمة، الآن سنخوض حربًا من أجل البناء،
نأبأ أن نتنصر ونتخذ أنفسنا أو نموت.

وتابع:

- لقد منحني الحاكم هنا السلطة لقيادة البلاد عسكريًا منذ وصولي
سُحلي القرى المحيطة بالبحيرة من سكانها ليأتوا إلى هذه المدينة
حيث سنحصن بوماتها بالمناريس، وسندعم سورها القربي بثلاث
فرق من أمهر الزمادة، كما سنعزيز الدفاعات في الطرق المؤدية إلى
الوادي الأسود الذي سيكون وحية الغزاة الأولى بأكثر من مائتي ألف
مقاتل، ما مجانق كرات المهب فسقورع بجنودها على امتداد الحاب
الشرتي من العانة، وأيضًا تمركزتُ بعض الفرق على مقربة من محيط
بحيرة جماره، وما نحن نتنظر ما سنخبرك به رسائل طلائعنا بانقر
مع النقاء البرين بعد أقل من ثلاثة أيام.

قلتُ ناست:

- طستُ أنك أبعدتني عن لقاءك مع القادة كي تُبقي أمر دفاعاتك سرًا.
قار وهو يصع دراعه على كتفي، وكنا قد وصلنا إلى بوابة العبنى الذي
توجد فيه عرفتني:

يطلع أنثي أنت فيك يا خالد.

وتابع:

سألتني مرة أخرى في صباح الغد، خذ تسطاً جيئاً من الراحة، ستكون
سوارى في مقدمة الصفوف في المعركة المُستَظَرَّة.

مردت رأسي إيجاباً، وقلت:

إنني جاهر من هذه اللحظة سيدي.

وبعني بأسماء فدلقتُ عبر بوابة المبنى الخلفي متجهاً إلى عروشي، حيث
لمستُ أفكر في كل كلمة قالها، ثم أغصستُ عيني في خيبي من مشاعر
المتضاربة كان القلق العالب عليها، قبل أن أفتحها فجأة بعد فترة قليلة،
الخرج بهولاً من العرفة، وأتجه إلى القصر الملكي عبر الدوابة العنيفة
حائلاً للحرمان بأن يقودوني، إلى الملك تميم الذي اندمشت من طلبي مثابته
بعد ذلك من فراقنا، فقلت له دون مقدمات عندما دخلتُ إلى حناج الملك،
هناك كتاب حدثني عنه نوح، يوجد في عيادة طبيب بهدي قوتي العبد
يتحدث عن قصة أحد اللصوص لُقْداسي لدين أتوا من بلدي وهم حسب
زئب «صامون» لتندلع شررة حرب الذئب، ربما يساعدنا هذا الكتاب
بطريقة ما، لن نخسر شيئاً إن اطلعنا عليه.

ابتسم وقال:

كما أشرت، أحب طريقة تفكيرك إن أردت الذهاب إلى هناك الآن
فسأرسل معك فرقة من الفرسان لحمايتك.

نلتُ سرياً:

نعم أريد الذهاب لإحضاره، وسأخذ معي نوح أو العبد مرافقي
بدلائي على عيدة ذلك الطبيب.

ناله

حسناً، ستكون فرقة المرسان جاهزة في غضون دقائق.

نلتُ متحمساً:

- وأما من سير، فيسكن.

ثم منصرف إلى السفن بحراً من هراتيا، نحو العرب إلى ونوح
منه من مرسى سعيه الشخصية للملك تميم، كانت الطرق المؤدية للعامة
مرحمة في ذلك الوقت، حيث بدأ الجور في إخلاء القرى وتوجيه سكانها
إلى داخل سوار هراتيا، فقل ذلك من سرعتنا بعض الشيء، ثم وصلنا إلى
معاينة بضاب نوح عبر طريق يعرفه بسرعة كانت الأقصى لجباننا، حتى بلغنا
الحرية العفوية رعد شروق الشمس بساعتين تقريبا، وهناك دلف نوح إلى
داخل العساة ودلف من بعده أنا ومارسان بينما ظل أنفية في الخارج في
يوقوا عند العودة

ت الأتية متبعة في كل شيء في الداخل: السريد الطلي والطاولان
و: أي والآلات الحراكية والخطب المتواصلة على وفوق جانبية، ترك نوح كل
شيء ومنس إلى سلم داخلي بركة ونحو من ورثة إلى قبو شبه مظلم جفلي
شع مصد حارثا كان معي وعندما وصلت إلى قاع السلم قال الشئ

- أحسب السيد - سائر - قبل ثلاث سنوات أن الكتاب يوجد في مكتبة
القذو هنا، أتمنى أن يكون في موضعه.

بهممت في داخلي

- سجد إن شاء الله

لنقدم بعدا إلى الضيف - أحد حذرايه لأربعة ضحطة تكامل مسحب
مستكة عتيقة تحمل مئات الكتب على رفوفها تنفذ نوح وقال منيرا:

- بقيت هنا أكثر من عامين ولم أقرأ إلا عددا قليلا للغاية منها.

قمت بأسف

- لقد أصعبت على نفسك فرصة عظيمة للتعرف، هيا لنبحث عن كتاب ولا
نصنع أيا فرصة أخرى

وأخرج لهم كتاباً كتبه جد الخواجة بخط يده عن رحلة قام بها قديماً عبر تلك
الطاحونة في إحدى ليالي الدرداء أن بها عائقين رئيسيين لمن أراد عبورها،
الأول هو الذئاب التي تحميها والتي استطاع الإفلات منها بمعجزة، فلم يكتفوا
بذلك الأمر مع مهارتهم الفائقة في استخدام البنائين، والآخر هو العودة إلى
مصر مرة أخرى عبر البوابة نفسها دون التفتت بين العوالم والأزمنة، والتي
لم تكن تلك السهولة التي يتخيلونها، إذ أخبرهم الخواجة عندما انضم إلى
اجتماعهم بشيء مهم اكتشفه جده صدفة ودونه في كتابه، فانتبهت إلى تلك
الحزنية حيث كتب على لسان إسماعيل:

- أخبرنا الخواجة «فابز» بناءً على ما دونه جده أن العبارات في تلك
الأرض تستطيع توجيه عابرها إلى التاريخ والبلد اللذين يقصدهما إذا
امتك شيئاً طبعياً استخرج من أرض ذلك البلد وصنع بشكل دائري،
حيث تُعيد العبرة إلى التاريخ الذي اكتملت فيه دائرة ذلك الشيء.

أعدت قراءة تلك الفقرة مرة أخرى بعدما شعرت أنني لم أفهمها جيداً،
وعندما لم أفهمها أيضاً طويتُ طرفَ الصفحة وتجاوزتها كي أعود إليها
مجدداً فيما بعد، حتى استطعتُ فهمها بعدما أوضح أن الخواجة أخبرهم عن
نيتِه صنع حاتم لكل واحد منهم من الذهب الفرعوني المسروق من العفائر
لعمري، والذي استخرج قديماً من المناجم المصرية، وأخبرهم أن صياغته
كحاتم يكمل دائرة الطاقة التي تمررها العبرة من خلاله، ليعود بهم الزمن
إلى وقت صناعة تلك الحواتم تعاقباً، وترك بهم الخيار لمحدد فرارهم مع وعده
بحصة لكل فرد منهم ثلاثين وطلاً من الذهب.

أعدت قراءة الفقرة مرة أخرى وشعرتُ أنني فهمتُ بعض الشيء الحزنية
الحاجة بالشيء الأصلي المصنوع في إطار دائري، وطويتُ طرف تلك
الصفحة أيضاً، ثم أكملت قراءة المكنوب على لسان الجندي:

- عندما وافقنا جميعاً أعطانا القائد ثياباً عسكرية جديدة وسيافاً وبنائين
وحمللاً، وأخبرنا أن الخواجة سيوزع علينا قليل نخولنا إلى الطاحونة

الخوانم التي ستصنع قبل نهائنا إلى القرية ببليلة واحدة كي نرجع إلى
منازلنا في اليوم ذاته عندما تنتهي من مهمتنا ونجتاز العاصفة العزيمية.

ولمدرنا أيضا عن خطة وضعها الخواجة كي يحدث حالة من النهج
والمرح في القرية فبهر قدومنا إليها، وأخذ يتحدث عن حريق كبير
سيتبلغ في الأراضي الزراعية هناك، وعلى إثره ستفعل الاشتباكات

في القرية. لتدخلها بالفعل على جمالنا في تاريخ العشرين من
أغسطس عام 1921م. وفي الليلة نفسها قاما الخواجة فابن إلى
الطاحونة المحصورة بأرضه بعد خواء شوارع القرية من أهلها ليلا،

وأعطانا الخوانم الذهبية عند بابها، لنزل تباعا عبر تانوس الطاحونة
الضخم إلى ظلام لم أتخيله، وبفقد الوقت موبته، لنمضي الدقائق
بمساعات والساعات كأيام. ووسط حالة الاضطراب والخوف والنشوة

التي عشناها في ذلك العلام فوجئنا بالذئاب نهائنا من كل جانب
دون أن نستطيع تمييزها أو إصابتها ببارود السائق، فقط كنا نسمع
عواءها وزمجرتها وصرخات بعضها بعضا وحفرحة المحتضرين منا.

ركضت تائها متخبطا لا أعرف لي وجهة، قبل أن يحسبني محط

مخاض في عنقي أسقطني أرضا لدقائق أو لساعات لا أعرف، لأدرك

أنها النهاية، لكنني وبعد فترة من السقوط استيقظت وواصلت زحفي إلى

حيث لا أدري مدعيا السكوز والموت بين الحين والآخر، إلى أن حررت

بمخبرة إلى النور قبل طلوع النيار بدقائق، وواصلت طريقي صائغا

عبر تشعبات جبلية، ضاعطا عنقي النازف بسنرتي، حتى لفتت وبي،

وعندما بهضت وجدتنني في عيادة الطبيب «بركات» الذي عرفت فيما

بعد أنه أصلح تهتك وريد رقبتي الأيسر.

حال في بالي وأنا أعيد قراءة تلك العفوة من البداية ما رأته في رؤي ياس

ومست في نفسي:

- سبب الخواجة حريق القرية كي يُبرر وصول الهجاة المريفين إليها؟

تحدث الكتاب فيما بعد عن العثرة التي قضاهـا إسماعيل مخنثاً مع السيد ديمثا الصافي من الذئاب التي هاجمت البشر وقتها، قبل أن ينزحوا إلى أقصى الشرق. وتتضاءل لوحة الجندي في العودة عبر العابرة مرة أخرى لسبب الأول أن الاثنين اللذين كانا يمتلكان خريجة الطريق إلى العابرة هما الخواجة فايز والصابا المحسري والذان ماتا قبل الخروج منها، والثاني هو عدم مقدرة أي شخص على الاقتراب من جمال الغرب في تلك العثرة من الحرب، وأن إسماعيل أملاً في الوصول إلى العابرة والرحوع إلى تاريخ ضمع حائمه يوماً ما بالرسم من مرور أكثر من عامين على وجوده في الوادي أكملت بعد ذلك قراءة باقي الصفحات التي احتوت سرداً طويلاً عن ذكرياته في مدينته بالسواحل ومفارقتها بحياته الجديدة، حتى انتهى الفصل الأخير بالحديث عن انتهاءه بعد إصابته بالاكنتات يوم احتفاء الشاهد من السماء وإطلاقه انعامات. أبدته الطبيب مع أغراضه في قبر ذي جدران من العرمر الأبيض في أحد الوديان الرملية القريبة منه، قبل أن يصير ذلك الوادي فيما بعد الوادي الأسود نفسه، وكأنه مثلاً كان أحد أسباب إشعال الحرب الكبرى انتهى به المصير مدفوناً بين عظام الذئاب والعليدين أسفل طبقة الغار التي وضعت كنهاية مؤكدة لتلك الحرب.

عندما انتهى الكتاب عدتُ إلى الصفحتين اللتين طويتُ طرفيهما، وأعدت قراءة العقرة الخاصة بطريقة توجيه العابرة إلى بلد وزمن معين عن طريق الخواتم التي صنعها الخواجة فايز للهجاة من ذهب محسري أصيل كي نمر من خلاله طاقة العابرة لتكمل دورة كاملة تعيدهم إلى يوم صنعها، وفكرتُ في أنني لا أملك خانماً وكذلك مروءة التي لا أتذكر أنها تمتلك خُلناً في بدنها هي أيضاً، حتى وإن كنا نمتلك فلم يعد ذلك الأمر يُشكل شيئاً مهماً خاصة أننا لا نعرف طريق العابر، وإن عرفناه لن نستطيع الاقتراب منها في ظل القائم منها، كما أننا إن انتصرنا في الحرب فقد نستطيع العودة إلى بلدنا عبر سرداب نوريك من خلال الذهاب إلى زيكولا مع الملك تعيم والعودة عبر مدخل السرداب الغربي الذي اتحدثه مرتين في السابق. ولوهلة شعرتُ أن الكتاب لم يُصنف أي إبانة

مرة استقال بعض الأجزاء النافصة من قصة طاحونة قريتنا القديمة، فوضعت
حباتها وخطوت، حتى عاد الملك تميم وأرسل إلي كي أذهب للقاءه، فتوجهت إلى
بيته حيث وجدت ناي ونوح وهريرة وسارة في انتظارى برفقة.



قالت ناي إن الصور في رؤياها صارت أوضح كثيرًا وإن أصوات زمجرة
البحر المتدخلة التي تنتظر فتح العبارات تضح لي رأسها كأنها تقف على
بعض خطوات منها، وتظهر جليًا على نبرتها في تلك المرة أن إيمانها بانتصار
البشر في تلك الحرب صار أمرًا مشكوك فيه، وعلى الرغم من الثبات الذي
حاوله الملك تميم إظهاره فإنني شعرت بالقلق في صوته عندما سألتها:
- هل ظهر لديك من أي عابرة قد يأتون أولًا؟

لتجيبه:

- إن العبارات جميعها تتصل ببعضها بعضًا، ستأتي الجحائل عبر
عبارات جبال الغرب بصورة رئيسية، لكنها قد تأتي أيضًا عبر عابرة
الغاية، وربما عابرة البحيرة، وإن كنت أظن أن البحيرة ستكتفي
بمخرج مياهها كي تكون جاهزة حينما تأتي إليها الهياكل العظمية كي
تغوص فيها فتكسى لحمًا.

نقل:

- إن فرقة كبرى من قواتنا تحيط بالبحيرة من جميع الجوانب على كل
حال، وستكون جاهزة للاشتباك إن خرجت منها أي وحش.
ثم سألتني عن الكتاب الذي أحضرته، فوضعت على طاولة أمامه وبدأت
أحكي له وللباقيين ما قرأته به، حتى أنهيت حديثي قائلاً:
- تعبت لو كان ذا فائدة.

مررأه أسفاً. وصمت الباقيون، وبعدما أمر بانصرافنا.



في اليوم التالي تجولت صباحًا بحصاني بين خيام أهالي القرى التي
مؤخرا إلى وسط المدينة قبل أن أندرك مع الملك تميم لتعقد القوات العنصرية
حول البحيرة الحافة والمحاق المؤذعة بانتظام على جانب العانة الخشبي
قبل أن نطلق إلى الوادي الأسود في أقصى الشرق، لنصل هناك قبل
الشمس وأراه للمرة الأولى: جبلان صخريان بينهما وادٍ مُغطى بالقار الأسود
بالكامل هو وسفحا الجبلين على جانبيه. عندما صعدت بالحصان إلى أعلى
أحد الجبلين، ونظرت إلى الوادي من أعلى أدركت عظم مساحته مع طوله
الذي يتجاوز ستة أميال وعرضه الذي لا يقل عن ثلاثة أميال، وفكرت في
تلك المساحة لو احتوت بأكملها على ذئاب مُتراصة في باطنها فلن تكون
هناك فرصة لنجاة أي بشري في هذا العالم إن نهضت تلك الذئاب.

عدت بعد ذلك إلى القصر فوجدت درع جسد كامل من صفائح الفولاذ
موضوعا في غرفتي، وبجواره خوذة فولاذية ذات غطاء وجه متحرك لا يُظهر
إلا العينين، وسيف طويل أمسكته ولوحت به في الهواء متحمسا بعدما كان
ذلك إعلانا واضحا لوفاء الملك تميم بوعدده لي بوجودي بجواره في الصفوف
الأولى، ثم أويت إلى فراشي محاولا نيل قسط من النوم إلا أن ذلك كان صعبا
المنال بعدما بلغ الضجيج الصاخب في ذهني ذروته مع بقاء أقل من عشرين
ساعة على معركتنا الحاسمة.

كانت صفوف الفرسان والجنود قد انقطعت في خمس عشرة هولة كبرى
 بالمساحة الشاسعة بين المحائق والغابة عندما تقدمتُ أما وحائد ورائي على
 مياها نحو مقبلة العرقة الثامنة التي يقودها الملك نعيم بأمر منه، بينما
 لبثت مروء وصارة في خيمة ملكية بالخيام التي نُصبت في المؤخرة على
 مقربة من «براقيا»، وكان الليل على وشك الحلول فمكثنا ننظر حبيثاً إلى
 السماء وأشجار الغابة في توحس وحسنت لا يقطعه إلا صياح الفرسان الذين
 هموا يركضون بجيادهم أمام الصفوف جيئةً وذهاباً كي يحسوا حيوهم
 للمرتقبين.

ثم حلَّ الليل وظلَّ البدران في السماء، فرائد الترقب وانطلق على وجوه
 الجميع خاضعةً بعدما لم يحدث أي جديد خلال أول ساعتين تقريباً، وتأكد
 الرسائل التي تحملها الغربان من طلائع غرب الغاية عدم وجود أي تغير في
 الأوضاع هناك، حتى صدر فجأة من السماء العواء، لتطويل نفسه الذي سمعناه
 يرم وضوء الدنب إلى أم العابرات، فاهتاحت الجياد فرغاً، ومنها ما رفعت
 قوائمها الأمامية فأسقطت فرسانها من فوق صهونها، قبل أن تهتر الأرض
 بشدة من أسفلها ويتحول ذلك الصواء إلى صوت قعقعة عالية تشبه ابرع
 ناحلت نوارن المزيد من الفرسان وسقطوا عن خيولهم التي ما لبثت أن هربت
 راكسةً في خوف شديد، لتسود حالة كبرى من الاضطراب بين الصفوف، لم
 تهدأ إلا بعد دقائق عندما سكنت الأرض من أسفل مرة أخرى، وانقطع مع

سكونها ضجيج السماء، حينذاك التفت إلى تاي، كانت تقمض عينيها
تركيز شديد، قبل أن تفتحهما وتقول وهي تحديق إلى الغابة:
- لقد فُتحت العبارات، إنني أسمع أصوات وحوشها يوضح شديد.

وسرعان ما أُلحقت توليها ذلك الفارس الذي أتى إلى الملك تعيم برسالة وصلت
عبر غراب تؤكد نبوح ماء بحيرة «جمارة» بالقرب من طرفها الشرقي، فصرخ
الملك تعيم في مساعديه بأن يعيدوا تنظيم الصفوف سريعاً، فانطلق الفرس
برباباتهم كل نحو فرقة من الفرق المحاورة تنفيذاً لأوامره، سألني خالد حينها
إن كنت أعرف مكان عابرة الغابة، فأجبته:

- لا أحد يعرف مكانها، لقد دُون عنها في كتب التراث أن مكانها كل
يتبدل كل سنة أشهر، وكان يُحرّم على الناس الدخول إلى الغابة في
ليشي فتح تلك العابرة.

فقال في نلق وأصح

- هكذا لن نستطيع معرفة ابوت الذي قد تستغرقه الوحوش الآتية عرماً
تصل إليها، على عكس وحوش عبارات العرب التي نعرف أنها ستصل
إلى نصف يوم على أقل شيء تمرر العادة إذا طلعت سريعاً سرعة
الحياة القديس

فانفتحت معه في ذلك



بعد فانية ساعتين أحريين من الترقب وصلت إلى الملك تعيم رسالة جديدة:
من طلائع العرب تدلّ معها وحبّه يوضح وهو يقرؤها، قبل أن يُخرج رعبه
ويتحول لمساعدته السد «جريد» بسرعة قلقة:

- جهّز المحاق في الحال

سأله خالد بسرعة القلق ذاتها

- ماذا هناك؟

قلت: نكرت الرسالة بدء خروج الحيوانات الضارية من الجبال إلى الغابة بأعداد رهيبية، ويوصي قائد الطلائع بإحراق الغابة في الحال لأن أردنا النتيجة.

فقال مرة أخرى:

- ربما مصيره هو وجنوده هناك؟

بالجواب:

- هناك خطة وضعناها قبل رحيلهم إلى هناك، سيعاودون الاحتفاء بمنطقة جبلية لا تخرج منها تلك الوحوش.

وتابع وهو ينظر إلى الغابة ثم إلى لشاهد:

- سنتنظر حتى دخول أكبر عدد من تلك الضواري إلى الغابة، ثم نبدأ لمجانق في إطلاق كرات لوبها الضخمة لتحرقتها بالكامل.

فقلت حينذاك:

- لكن ذلك الانتظار قد يسمح للوحوش التي تخرج من غابة الغابة بالوصول إلينا.

قال دون أن ينطبع وجهه بأي تعبير:

- تلك ستعمل معها بسيوفنا.

بجاء نطق ناي دون أن تنظر نحو أي منا ويصوت أجش غرب كأن شخصاً آخر يتحدث من خلالها:

- لن نعلق البوابات هذه المرة مع حلول المهار أو روال الدوا الأخرى، لقد نمت بلا رجعة، سيستمر تدفق المنقذين إلى هذه الأرض من جميع الأزمنة حتى يحرقوا إخوتهم في الوادي الأسود.

انلعت ريفي رعباً وأنا أفكر في أن الشاهد قد استخدم ناي لإرسال رسالته إلينا، وصحتُ فيها كي تستفيق، لكنّها واصلت تحديقها إلى الأسفل.

دون أن تنتبه لي، فاقتربت منها وأمسكت بذراعيها وهزتها كي تستلقي، بينما
تطرق الملك تميم إليها واجمأ، وكأنه أيقن بقله حيلته وعدم جدوى خطة إحراق
العابة إن استمر تدفق تلك الوحوش بلا نهاية، حتى وإن نجح لهم إحراق
الآلاف منها.

عندما استفاقت ناي تلعتت حولها مستغربة من غيبها الموقت من الوعي،
وتساءلت عما حدث خلال الدقائق العاضية، فأخبرتها بما تالته، فلذت
بصمتها رعبناها تلعبان بالدموع، سألتني خالد بعدئذ وهو ينظر إلى العاة
نظرة طويلة شاردة.

- من ذكرت الكتب القديمة كم استمر حريق الغابة عندما أشعلها أجدانكم
كي يتخلصوا من الثئاب؟

قلت:

- لا أتذكر تحديداً، لكن على ما أظن قرابة شهر.

ومدت أسأله عن سبب سؤاله وشروده الطويل لولا وصول رسالة ثابتة
من طلائع الغرب يتوسلون فيها إلى الملك تميم بأن ينسحب على الفور إلى
ملك الجيش بأكمله، وقبل أن أفكر فيما قد يحدث فوجئت بدفعة من الصيادين
تخرج من العاة راكعة نحواً بأقصى سرعة؛ أسود ونمور ذات أنياب طويلة
سريعة، وثئاب تلعب عيرها عسة مع ضوء قمري السماء، وقبل أن أصرخ إلى
من حولي بأن يستعدوا، كنت شبك كثرى من الأحبال السميكة قد ارتفعت
عن الأرض نحأة لتصيد في داخلها الكثير من تلك الحيوانات وتعرق النائم
عن انتقم إليها حيساً صاح الملك تميم إسي أحد الفرسان بكلمة لم أستطع
تخيئها، دسطلت إلى اسماء على لغز سهام منسيئة عصابة لم أر مثلاً في
حياتي، وبعدها بدأت قذائف المجانيق المشتعلة تنطلق بغزارة نحو الغاة
تقشع النيران في أرجائها، وما لبثت أن انطلقت فرقة من الفرسان لتخون
أحساء الحيوانات العالقة في الشباك والثلة التي استطاعت الإفلات منها

بعد قليل خرجت إلينا دفعة أخرى من الصواري كان عددها أكثر من
الدفعة الأولى، استطاع أغلبها تجاوز الشباك لتقدم إلينا فُتاجة صخوة

بدأ على وجه مساعدته أنه يريد البقاء لمواصلة القتال معه، لكن صرماً
وجه الملك تميم في إعطائه الأمر جعلته يفحني برأسه مُطيعاً، فقالت سارة
بعصاً خرج السيد «جربير»:

- لماذا لا تتسحب بقواتك هم أيضاً سيدي؟

هز رأسه راضاً وقال:

- إن وصلت تلك الوحوش إلى الوادي الأسود سيعطاردوننا لا محالة في أي
مكان نذهب إليه، ستدافع عن الوادي الأسود حتى آخر قطرة دماء لدينا

قنطق خالد الذي عاد إلى شروده اطويل منذ دخولنا إلى الخيمة:

- ماذا لو أعدنا ذئب «صامون» إلى الحياة؟

لم أستمع فهم ما يقصده، وقلت:

- لقد عاد الذئب للحياة بالفعل.

فقال:

- ماذا لو لم يُقتل من الأساس؟ لقد خطر في بالي شيء حنونني مع

ورود الرسائل التي تؤكد كثرة أعداد الحيوانات القادمة إلينا، لقد ذكر

كتاب «الخصاب الأسمر» على لسان مؤلفه أن ذلك الجندي قد دُفن مع

متعلقاته في قعر جدران من المرمر بأحد الأودية الرملية قبل أن يصير

ذلك ابوادي فيما بعد الوادي الأسود. ماذا لو استطعنا الوصول إلى تلك

القبر وحصلت على خاتم الجندي الذي لا بد أنه هناك برفقة عظامه

كي أستخدم طاقته للعودة إلى تاريخ صنعه وسمع أولئك النصوص من

الدخول إلى العابرة، وبالتالي منح كل ما ترثب عليه.

فقلت منهشاً مما يفكر فيه:

- حتى وإن كان ما تفكر فيه بشأن العودة إلى العاضى قابلاً للتنفيذ

فكما قلت إنه مدفون في الوادي الأسود بين الآلاف من العظام، مُحال

أن تصل إلى قبره دون أن تكشف مساحة شاسعة من الوادي، وهذا ما

يريد الشاهد.

صحت مكرراً ثم قال
 . إن كنت حقيقاً أنما لا تمتلك فرصة للاختصار في هذه الحربة فقد
 مجاً شهر واحد ومن بعده ستعمد السيران ولن يكون هناك حتى يسع
 الوحوش من الوصول إليها،
 ثم نظر إلى الملك نعيم متوسلاً وقال:
 . ثم عودت سدي بإزالة طبقة القار وأحدهم يحثون عرس النمر
 لعلها في نص إلى عظام ذلك الحدي لمن موات الأوان يستع على
 الأكل لبدن بالبحث بهار

فدالت صارفة

. لن يستطيع الحدود إعادة طبقة القار الحقة كما كانت له، وستكون
 حينئذ الشاهد من الوصول إلى العظام ليستهي الأمر بالرعد لعد
 جيشه فحاصروا بين الوحوش القادحين من الأمام ويحيطون
 والمسيكين لعد فحة من الحف.

نظر خالد إلى الملك نعيم وقال:

. أرحون سيري ثم بي، تعلم أنني أستطيع فعلها.

ثم نصح الملك نعيم، ففعل:

. حتى وإن استطاعت العثولة على حدة لك تحسب وحاشية طر تخضع
 الوصول إلى غاية بقاية التي تشتعل التيران من حولها أو إلى عسرت
 حال حرب، فهي تشتعل خروها الوحوش.

قائه

. لا أحتاج إلى تلك المناورات، لبدن عسرة في حورته ما تفعل

مردود بعد بقوه، فأدركه

. لا بد وأن العجود المعجكين سيرة عذابة، قد رزقتهم في مع

مه ماؤها.

ونظرت إلى ناي وتابعت:

- إنها عابرة السبيرة، أليس كذلك يا ناي؟

هزّت رأسها متفكة معه، فقالت:

- وما دامت العابرات تتصل جميعها بالآزمنة وبيعضها بعضًا يمكنكني أن
أحتار تلك العابرة إلى الماضي بخاتم الجندي إن عثرنا عليه من أهل
منع مقتل الدثب وكل ما ترفد عليه.

هزّت رأسي راضيًا في غير اقتناع أي كلمة قالها، بينما واصل الملك تعيم
صعته، فتابع خالد إليه مُصرًا:

- سأطلب من مروة أن ترحل مع المازحين إلى جنوب بحر الرمال. أسألك
فقط سيدي أن ترسل معها فارسًا إلى زيكولا أو إلى الملكة أسيل بدلاً
إلى منخل السرياب الغربي كي تستطيع العودة إلى بلدها.

هناك نظرت له مستجيبةً ومتعجبًا بعدما انتبهت إلى شيء لم يذكره،
وقلت وأما أفكر في أنه لا يملك خليًا من بلده في يده، حتى وإن صُنع له خلي
هنا وأراد العودة إلى أرضنا وزماننا ولن يستطيع تجارز دثاب العابرات:

- هذا يعني أنك إن ذهبت إلى ذلك التاريخ فستعلق حذاءك ولن تستطيع
العودة إلى هذا الزمن بأي عالم!

لاد بصعته وكأنه فكر مليًا فيما اقترحه قبل البطق به، ونظرت مجددًا إلى
الملك تعيم الذي ظل صامتًا هو أيضًا ثم قال:

- أرحوك سيدي هذه فرصتنا الوحيدة.

فهزّ الملك تعيم رأسه رافضًا، ثم تركنا وخرج مفارقًا الخيمة.



دلفت مروة بعد ذلك إلينا، قالت:

- هناك الكثير من الجرحى في الخيام المجاورة، وتُناقِل الأحداث
اليأس بين الصمود بكثرة.



بنتهم بهنم بما قالته منشعلين بما اقترحه خالد. سألنا مستعربة

ما الأمر؟

يا سارة

مستعربة مع المهاجرين إلى جنوب بحر الرمال سيبقى هذا العنقاوي

معه

سنت رثاها تلاحات مقوية، فأردف إليها:

سيتقرب فدرس إس ريثه لا بني أعتقد أنها ستفتح بابها مع هذه
لغروب الصارخة، أو إلى أماريتا حيث ستعطني بك اللثة لسهل حشر
تؤمن عودتك عبر السرداب إلى قريتي.

سأنت

- يا سارة؟ لماذا لا تعود معي؟ لا أظن أنك ستأرب كي تبقى هنا.

فأنت

أظن أن أبقى، إن لدى القدرة على القتال مثل أي رجل هنا.

سنت مرة أخرى، واتحدت عكشاً في جانب السجعة وطمست من غير أن
تدرك شيئاً، بعدها قدست سارة بعالم.

- حيث لي بواقى العلك تعيم على لقراحت، بسعوت.

وأخبرته أنه أسفاً، بعد ما

أنا أزال السؤال، بحثت في صندوق من عازلة النحاس إلى الصفحة
العميقة، أسر أنشعر بتمسكها وأسمع صوتاً في رأسها يشبه
سأله من أن سحر إلى لعبة المشتله، سراجة تفتتاه، سنانة
من مديحة، وصيت صات أيام حريق الساحة فجر قلعة معو لوني
لأنه لا سارة

سألتها

- وأظهر الصدر الأمامي بعد؟

قالت:

- لا، جميعها حيوانات مفترسة حتى الآن.

قالت مروة:

- لا بد وأن الشاهد يريد تأمين طريق أولئك البشر أولاً من خلال اقتراس تلك الحيوانات للجنود هنا ومن بعدها يُطلقهم كي يزيلوا طبقة القار.

ثم نظرت إلى خالد وسألته:

- أي اقتراح اقترحت؟

قال:

- لا شيء.

فقلت:

- يقترح صديقك أن نزيل بأيدينا طبقة القار كي نبحث عن الجندي القديم الذي أتى من بلدكم، ثم يستخدم خاتمه للعودة إلى تاريخ صنع من خلال عابرة البحيرة كي يمنع مقتل الذئب.

رغمته بعينيهما، وبدأ أنها فكرت في حماقة مقترحه، ولأنه بصمتها، بعدها ساءت صعبت طويلاً بينما حتى قالت ناي:

- أعتقد أن علينا المحاولة.

تعجبت مما تقوله، فأردفت قائلة:

- لا أحد منكم يدرك بنظم ما هو قادم إلينا مثلي، سيأكلنا الآدميون أحياء، وسيصلون إلى الوادي الأسود لا محالة، إن كانت هناك ذرة من الأمل يراها هذا الرجل فلم لا نسعى إليها؟

فقلت متعسكاً برأيي:

- إنه تعجيل بالموت لا أكثر.

فقالت:

- إن كان موتاً في كلا الحالتين فالمحاولة قرض علينا.

realme

حرب في حاطري في تلك اللحظة أنه إن منح خالد فيما يسعى إليه ويدر
بدره إثر الداء حقا ومنع مشوب حرب الذئاب مستساخ حبة في "لواوي"
منه عماره، وربما لن يكون قد ولدنا من الأماسي، حتى إن ولنا واستمرت
جيسي لنا رسالة وماقي أهل الوادي دون تغيير من الممنوع أن نصح
زعماء بين الذئاب وأنشر والمليين كما كانت في العاصي، وناثلي لن
بشئ المليون هرتا من الموت متعا فعلوا قديما، ولي يتروحا من الشر
بشئ المليون تغلب عليها صفات البشر مثل ناي، فقلت لها.
- إن لم تحدث حرب الذئاب لم يكن المليون ليتروحا من خارج هنتهم.
لم يكن منك ليتروح من بشوية، إن عاذ الزمن وتسلت أحداث العاصي
لي نكوي هنا.

صرت نظرة مطولة نحوي، ثم قالت والفاقين ينظرون إليها:
- وإن ظل الماضي كما هو فلن نكون حقيقا ما مع شهر من الآن، أحلنا
على انفراد أن يضحى من أجل الجماعة، هكذا تصير الحياة
وتابعت:

- يود الرجل التضحية بنفسه والعودة إلى زمن غير زمنه دون رجعة من
إحلبا، إنه يقدم لنا فرصة لنقائنا مستقبلا، حتى وإن لم نلتجع معا
فيما بعد ستقودنا أقدارنا إلى ما هو أفضل.

نظرت مروة إلى خالد منهولة وكأنها انتبعت لتتو إلى شقة رجليه لا
عوق، وكانت تقول شيئا لولا أن الملك نعيم دلف إلينا مرة أخرى وفيه
الكتاب الذي يتحدث عن قصة الجندي الأسمر، وما لبث أن سأل حال
- هل يمكنك فعلها حقا؟

خالد

«نعم، ليس هناك حل آخر».

هكذا، كنتُ أغسُرُ وأُأَدِّقُ الغابة في انتظار طيور وجوش الشاهد بما ملأه من دُمٍ، فجأة إحصائية العودة إلى دمن الشيخ موسى ومع كل حدث من ... إلى عذرها على خاتم حدي البتانة، حتى وإلى علفت في عبي ... أن سيكون هناك الملايين من الناجين إلى سمحت، ولي يشتف ... كنتُ ... ثم راد إصراري على ما فكرتُ فيه بعد ما رأيت من أثر ... مع أعداد قليلة للعابة من تلك الحيوانات.

فكرتُ في منى ويامن وترددت في دألي كثيراً، لكنني عدتُ وحدثتُ ... أن ... أحارسي دون غيري لإخراج تلك الدماء اللعين من القرمي ... ما ... أنفسي الطف بعم الذي وخيه القدر أيتها المدمور سجنه إلى وأدعه حب ... العظيمة التي لم يكن يفتح بها إلى صديرت من ... حر، ومثلُ السر وسعياً بها في هذا العنار والزمان لإيجاد أولئك ... من شر الذمات، لذا كنتُ وانتظاراً به سيجود إلى الشدة ... أخرى مغلداً ... على ما فكرتُ فيه، وبعدما سألتني:

هل يمكنكُ فعلها حقاً؟

صتُ من جلستي وأحنته على القوّة

بعم سيدي

ال

- حسناً يا خالد، ستحصل ثلاث فرق عسكرية من القتال هنا إلى الوادي
الأسود مع طلوع النهار. اثنتان منها ستحضان عن خاتمك نهاراً،
وتطوق الثالثة الوادي للسيطرة على أي مهاجم من العظام.
قلت متحمساً في حين طير الفلق يوضح على وجود النقية باستثناء

ماي:

- خبيراً ما قدرت سيدي.

في الصباح التالي بدأ العمل على قدم وساق، إذ قُسم الوادي الأسود إلى
أربعين رقعة متساوية مساحة الرقعة الواحدة كيلومتر مربع تقريباً، وأُخبرني
الملك نعيم عن نيته إزالة طبقة القار فوق رقتين يومياً حتى إن حدث ما
مخشاه واستدعت الذئاب النهوض فتكون أعدادها في نطاق يسمح لقواته
بمواجهتها، فكرت في أن ذلك المعدل قد يمنحنا عشرين يوماً أو ربما أقل
إن استطعنا الوصول إلى مقبرة الجندي قبل آخر رقعة، وتعميت في داخلي
ألا يخمد حريق العاية قبل هذه المدة، بيد أنني عندما تحركت بحصاني بين
الجنود الذين كانوا يكسرون طبقة القار الجافة بفؤوسهم وجواربهم في
صعوبة بالغة أدركت استحالة الانتهاء من الوادي في تلك المدة مع سلك
طبقة القار الذي لا يقل عن قدمين واقتصر العمل على ساعات النهار فقط،
وعندما أدركت الحلك نعيم الأمر نفسه أمر بدفع فرقتين أخريين من الجنود إلى
الوادي خاصة مع مرور الميار الأول دون استطاعة الجنود الانتهاء من نصف
رقعة واحدة.

في تلك الليلة لم يستطع النوم مع مراقبتنا للمساحة الصغيرة التي كُشفت
من الوادي وغطيت مرة أخرى بقطع القار الجافة، كانت سارة محقة بشأن
صعوبة إعادة الجنود لطبقة القار إلى وضعها الأول مع جفافه وصلابته،
وعرفت أن الملك نعيم كان قد سأل حاكم الوادي عن وجود أي مخزون من
القار اللين، فأحابه بانتهاء المخزون كله مع تدعيم طبقة القار القديمة بعد

ظهور الشاهد في السماء قبل سبعة أشهر، ثم اهتاجت الخيول بجأة عند
مصرف الليل، فأدركت أن ما تخشاه قد حدث، وأن هناك بعض العظام قد
بهرت من رقدنها وسرعان ما حاءها الخير عن اشتباك الجنود مع أكثر من
سبعمائة وثلاثين ملدياً نهضت هياكلهم فجأة وهجمتهم، قبل أن يسعوا
جسامها ويكسروا عظامها قطعاً ويحرقوها، لنصر اللبلة الأوس في ملهم.

في النهار التالي تواصل العمل، مجموعة تكسر طبقة القار وتزيلها،
ومجموعة ثانية تُقَب في الرمل المكتشفة عن المقبرة المقصورة، ومجموعة
ثالثة تعيد رص قطع القار وترجمها معاً كي لا يتسرب ضوء الشاهد خلالها.
في ذلك النهار قاد السيد «جيري» أهل الوادي غير القادرين على القتال رجلاً
ونساء وأطفالاً إلى مصر بحر الرمال، حاءتني مروة قبل أن تغامر كي تدعني
انتمت بعين رابعة وهي تشكرني على الحصة التي قضيتها معاً وعلى
حرصني على عودتها سالمة إلى وطننا، واعتذرت عن أمانيتها التي أدت إلى
صياح الثقب، وسعتها مسعاً حاثاً إياها ألا تفكر في أمر الذئب الهارب، فكما
قلت ناي كان أمراً سيحدث سواء معها أو معي أو مع غيرها، وحشيتها مرصفاً
عن مدخل السرداب الذي يقع خارج سور زيكولا الغربي والذي سيقدما إليه
الفارس أو لملكة أسيل، وسألتهما أن تخبر زوجتي مني وبمن ألتني أحبهما
كثيراً، فأومأت برأسها إيجاباً، وعندما دهمت عيني في تلك اللحظة رمت على
يدي تطعمني بأشهي ساجد حلاً وأنجو كما تعودت بأفء، ثم ركنت حثاً
خلف الفارس الذي عيّنه الملك تعيم خصيصاً لتوصيلها إلى زيكولا، أو إلى
الملكة أسيل إذا كان باب زيكولا معلقاً ليتحرك بها مبتعداً وهي تلوح بي
بينما وعيداً ما دامعتان قبل أن مخنفي عن ناظري.

في ذلك اليوم، انتهى الجنود من كشف رقعة واحدة من ابوابي لتكون قد
كشفتنا خلال يومين رقعة ونصفاً تقريباً من الزوابع الأربعين، ونهضت خلال
الليل مجموعة أخرى من العظام استطاعت مهاجمة إحدى الكتائب لتقتل
وتصيب خمسة عشر جندياً قبل أن يصطادها بقية الجنود ويحرقوها.

كنتُ أعلم أن أعداد الهيكل الناهضة ليلاً قليلة جداً بالنسبة لآلاف العظام
والعظيصات التي كنت أراها نهاراً مُكدّسة أسفل القار العُمران، وأدركتُ في تلك
الليلة حكمة الملك تميم بتقسيم الوادي، وكذلك تحسن كفاءة الجنود الذين
كانوا يُركّبون قطع القار الجافة مع بعضها البعض، لتترك بينها خطوطاً
رفيعة لا تُمرور إلا قدرًا ضئيلاً من ضوء الشاهد لا يُنهض إلا عظاماً قليلة توجد
أسفل تلك الخطوط مباشرة، فبعض تظل باقي العظام المُكدّسة بالطبقات
السفلى في أمان تام.

في الأيام الثلاثة التالية لم يحدث أي جديد سوى أننا لاحظنا ترايد منسوب
بحيرة دجمارة، بمعدل أكبر كل ساعة، وفي اليوم الرابع خرجت جماعة من
الضواري تحترق أجزاء كبرى من أجسادها إلى الفرق العسكرية المواجهة
للغاة، ناستطاعوا حصاد رقابها وإن بدأ القلق ينتابنا بعدما أدركنا أن هناك
مساحات من الغاة قد خمدت حريقها وتسللت من خلالها تلك الحيوانات،
وحشينا أن نستطيع باقي الحيوانات معرفة تلك المساحات وسلوك طريق
عمرها إلباء، لذا دفع الملك تميم بفرقة خامسة إلى لوادي الأسود للإسراع
بكشف مزيد من مساحته، إلا أننا وعلى الرغم من الفرق الخمسة التي كانت
تعمل على مدار ساعات النهار لم نتسكن إلا من إزالة ثمانية رُقع فقط من
رُقع الوادي خلال العشرة أيام التالية مع تزايد سُمك طبقة القار كلما اقتربت
من منتصف الوادي، كان ذلك المعدل يعني أننا قد لا نستطيع كشف نصف
مساحة الوادي خلال الأيام المتبقية على انطفاء الحريق، ومع قدوم الضواري
بصورة ليلية عبر الغاة المحترقة بأعداد كانت تتزايد كل يوم عن اليوم الذي
يسبقه ونواصل رثي ناي دامتلاء المنطقة الغربية عن آخرها بالحيوانات
المحتنسة عدا منطقة واحدة طُنت خالية دون أن تعرف السبب لم يكن التفكير
في الدفع بعريد من الفرق إلى الوادي الأسود إلا حماقة كبرى، لذا أمر الملك
تميم باستمرار الأعداد هناك كما هي من دون تغيير، ليتواصل العمل خلال
الأيام التالية دون توقف.



في النهار اذ مشى من من دة الشقيب في الوادي فوحشا منوح يأتي بحصانه
بعضا إليها وعلى وجهه فرع كبير، سألته قلنا وأما أنف بحوار الملك نعيم عما
لها من هناك شيء حطير، فقال لا هنا.

لقد رأت ما في العشر الأوائل في رؤياها للمرة الأولى، يخرجون بأبيالهم
من العاصيات.

ومعها حبارها والملك مرفقة ومعها اثنان من مساعدي الملك إلى الخيمة
تأتي توحد هبها ما في وسارة، قالت الفتاة عندما سألتها عما رأت:

فقطعت من الأفيال الضخمة ذات الأنياب الطويلة يركبها رجل
عمره كنبو الشعر طويلو اللحي، تحيط معاصمهم أساور فولاذية،
ويمسكون في أياديهم جرابًا طويلة، يخرجون تباغا من العاصيات
ويستعدون في صفوف منتظمة بالمنطقة الخالية التي لا تشغلها
الضواير، وكأنهم يستعدون لاقتحام الغابة.

بق قلبي سرعًا، لم تكن قد انتهينا إلا من ثلث مساحة الوادي تقريبًا،
ومع تلك الرؤية صار الوقت عدوًا الأول، صمت الملك نعيم قليلًا، ثم أمر أحد
مساعديه بإطلاق كرات اللهب دون توقف نحو الحائط العربي من العابة،
ثم سمع منكرًا مرة أخرى، نظرت إلى وجهه، فأدركت أن هناك الكثير من
العناء المتضاربة تعصف في داخله في تلك اللحظة، قبل أن يعاجلني
وبأمر مساعده الآخر بنحريك ست فرق أخرى من الفرق الخراجة أمام العابة
إلى الوادي الأسود في السال للعطل مع مزيلتي البقار هناك.

حينذاك قالت سارة مرتعبة:

- ذلك يعني كثرة الأعداد الناحية في الذئاب والمطربين كل ليلة ومع
إمبال خيولك طيبة النهار سيكون سال المزيد من الضحايا.

وقال موح قلنا من بقاء أربع فرق، نشط في مواجهة الشاة:

- يجب تخلي عن أكثر من ثلثي دفاعاتك أمام العابة سدي¹⁸

أنا سدي:

- ليس هناك حل آخر.

وخرج مفارزا مطر لي الاثنان بطرفة مؤمنة وكأنني السحب لي كل ما
يحدث بعد الفتراسي ،التنقيب في الوادي بحثا عن حاتم الحندي، فملت هارثا
- ماوان انا امل، يستكما المصادرة إلى جنوب البحر الرملي الليلة إن
أرثعا

أوما برأسيهما رافصين، فخرجت لأتبع الملك تميم إلى الوادي الأسمر

بعد ثلاثة أيام احترما أخيرا نصف الوادي، وللأسف لم نعر على مقبرة
الحندي، فكرت في ذلك المساء وأنا أقف أمام البحيرة وأبصر مسنوي مائها
الذي صار قريب للعبادة من حافة حريقها أنني كنت مخطئا في تفكيري منذ
الاية، وبدأت تدور في رأسي أفكار منسجعة يائسة تُرحح احتمالية إزالة قدماء
هذا الملك لأي مقابر بشرية بالوادي الأسود قبيل دفنهم عظام الذئاب والمطيبي
به، ونسرت إلى داخلي للمرة الأولى شعور بالدس تحاه الجنود العاملين هناك،
وفكرت حيا في سؤال الملك تميم بأن يكتفي بما تم كسبه وأن يريح الجنود
خلال الأيام لسنة المتقبة كي يستعدوا للقبال القادم، ثم جلست على ضفة
البحيرة موصلا تفكيري في بحيرة كبرى، حتى وضعت رأسي بين راحتي يدي
وأغمضت عيني من شدة إرهاقي الذهني، قبل أن أستشعر حركة مفاجئة في ماء
البحيرة أصر، ففتحت عيني مرتانا لكفي لم ألاحظ شيئا في الماء، فليصت من
جلستي كي أعود للنقاء لملك تميم، لكفي ما إن استدركت حتى أمسك بطني فجأة
شأن عار مثل، حسه يرتعش بقوة، سقطت فجأة من العقاقاة، وأخرجت
حشوي الذي كان معي منذ عثرت عليه بأحد بيوت المنطقة الغربية، وكنت أشق
عنه لولا أنني لاحظت أن مبيبه صفراء لا ترى، تلمع بشدة مع ضوء الشاهد،
توقف هذا فجأة في جسده المحيط بعدما أدركت أنه ملدي فزت عظامه
من لومي لاسود إلى بحيرة جمارة حيث كسيت لحفا وجلدا.

بأهلين وعبر مصدقين كانت سارة وموج والملك نعيم وثلاثة من مساعديه
روى إلى الشاب الذي كَوَّم حسده في وسط الخيمة بعد إلباسه مشرة
لأنه من الكتان بينما لاذت ماي بحسبتها، حاول أحد القادة استجوابه
ما لك هذه أحاط عن الأسئلة جميعها بعدم تذكره أي شيء، فنطقت ماي
بها:

إنه صادق، لم يمر على اكتمال خلاياه إلا وقت قصير للغاية، ولم يبت
الشاهد في عقله أو امره إلى الآن.

قتنّب أعمى الملك نعيم أوامره لأحد مساعديه بتشديد الحراسة بمحيط
بردة والتأكد من إحراق أي عظام ماهرة كي لا يتكرر ما حدث مع تلك
ي، ثم أمر مساعداً آخر، إطلعاه والتحفط عليه بذيمة مجاورة وأخبره
بأن أي حديد بشأنه، فافتاده ذلك القائد إلى الخارج وتبعه الثانيان
إن، طلبت حينها من ماي وسارة ونوح مغادرة الخيمة، ولما عابروا قلت
نعيم:

اعتقد أنني كنتُ مخطئاً في تفكيري بشأن البحث عن تلك العنصرة، ربما
علينا أن نتوقف عن التنقيب في الوادي، وأن نعيد الحنود إلى أماكنهم
في مواجهة لغابة.

رأسه رافضاً وقال حاسماً:

لم تعد هناك رجعة، علينا أن نكمل ما بدأناه، سنجدد يا صديقي
أولت أن أستطرد، فرفع يده مصعفاً على قوله، فأرمأت براسي إيحاً
ببزل القلق عن داخلي.

النهار التالي لم يحدث أي جديد، وكذلك النهار الذي تلاه باستثناء
ماي تواصل تدفق البشر الأوائل عبر عابرات الشمال، واستمرار المعارك
الصفري بين الحنود والهيكل الباحصة، ووصول دفعات أكثر كانت أقل
من سابقتها واستطاع عددٌ كبير منها تجاوز الفرق الأربعة المواجهة

للغاية، إلا أن العرق المحيطة بالبحيرة وماوردي الأسود استطاعت القضاء عليها، ثم حدثت المعجزة أخيراً في منتصف اليوم الثامن والعشرين من بده التفتيب في الوادي بحسب ارتطم من جاروف أحد الحدود فجأة مشبه صخر لا يتحرك أسفل دلفة قار الرقعة الواحدة والسنتين، وعندما أوال مزيداً من القار المتسبب والرمال التي نوحه أسفله فوجئ بكونه قد دلفه مسطحة كبرى من المرمر الأبيض، فأزال عنها مزيداً من الرمال والقار بمساعدة رفقاءه الذين أدركوا مع وصوح معانها شيئاً نسيئاً أنها ليست إلا عطاء قبر لبنت جدره بين الرمال، لبواصلوا إرلة الرمال والقار عنها حتى صار القبر مكشوفاً تماماً، كثر وقتها أنف برفقة الملك تعيم على بُعد نصف ميل منهم تقريباً عندما جاء ما نارس بحسب حدوث المعجزة، فانطلقنا بجيادنا خلفه على الفور.

سأل الملك تعيم قائم تلك لفصيلة إن كانوا قد فتحوا القبر بعد، فأجابيه دافياً مؤكداً استناره بولت على ركني متحسناً بيدي سطح القبر، أمس، ونظرت إلى الملك تعيم، فأمر قائم الحدود برفع الغطاء الذي كان يبلغ سمكه عشرة سنتيمترات تقريباً، فذش حنديان جاروفيهما أسفله وبدأ يرفعه حتى أزالاه، فصور ماظن القبر يقع في وسطه هيكلاً عظمي بجواره حذاء طويل العنق وبلة عسكرية خصر، مبتدئة ما إن أبصرتها حتى أدركت أنها نفس البذلة العسكرية التي رأيت الهجاة يرتدونها في رؤى يامن، فقلت للملك تعيم بعينين لمفتين فرحاً:

- إنه هو سيدي.

ول أنصسى التوتر سريعاً عندما نظرت بعيني فخر عظيماء يديه ولم اصبر سائماً عدلت إلى القبر مُعدداً قدمي عن انظام، وجعلت عظيمات اليد متعصفا ومتحسناً طبقة الرمال اريقة أسفلها، لتسارع أنفاسي عندما لم أقتل على شيء، وكان القلق نفسه قد انطبع على وجه الملك تعيم عندما مررت القدر بخود وما أخذت بحبب الدلة العسكرية - من حديري حتى صرخت إنه عددي تخرج الحاتة - قصا من دلة الماء لتعكري وأنا

فمنها من لا يملك له مفرجة لم أشعر بمشيتها
منها من قد مر من الوادي
- ما هو هذا سبيدي

لبيك به ويصدق إليه بشرويه كثير، قل أن يأمر مساعديه بإغاثة طينيات
الطريق ثمرة إلى موصفها، وتحريك كافة الفرق المقاتلة إلى أماكنها بالحاس
الشرقي العامة مرة أخرى

عندما عدنا إلى الخيمة لم يصدق نوح وصارة أننا عدنا على الخاتم إلا
عندما أمك كل منها به في أنسبار شديد، ثم نظرت لي سارة وقالت:
- صارت حياتنا كلها متوقفة عليك الآن يا خالد.

بينما ينظر نوح إلى ناي نظرة شاردة حائرة، فنطقت إليه وأنا أربت على
كتفه:

- ستعثر عليها مستقبلاً يا فتى.

سألني الملك تميم عما إن كنت مستعداً، فهزئت رأسي إيجاباً، فقال:

- هناك زودق يتم تجهيزه الآن، سيقودك مَجْدُوقُهُ إلى شابة البحيرة.
ثم تابع:

- وفق ما ذكر في الكتاب وما نعرفه من حكايات الوادي القديمة، سيعيد
الخاتم إلى وقت يسبق مقتل الذئب شهر كامل، خلال هذا الشهر
سنقاوم الوحوش الهاربة من الغابة المحترقة على قدر المستطاع،
وبعد خمود نيران الغابة تعافاً سننسحب إلى داخل أسوار ومراقباء
لنتحصن بها حتى تمنع مقتل الذئب. افعلها من أجلنا يا خالد
فقلت بأسفاً:

- سأفعلها يا صديقي.

بعدها فوجئنا بعروة تدخل إلينا لاهثة متعرفة وكأنها كانت تركض، ونقول
لي:

- ظننتُ أنني لن ألقُ بك، هل عثرتُ عليه حقًا؟

تعجبتُ من عودتها، فأردفتُ سريعًا:

- كنتُ قد اجتزْتُ ممر بحر الرمال بالفعل، وقطعتُ أكثر من عشرة
أيام أخرى بالطريق المعتد نحو بلاد الجنوب، حتى سألتُ الفارس أن
يعيدني إلى هنا بعدما انتبهتُ إلى شيء أغفلته، أعتقد أنه قد يستطيع
إعادتك إلى سرداب فوريك قبل ثمانية أشهر من الآن إذا عبرت به
الطاحونة القديمة بعد الانتهاء من مهمتك.

سألتها على الفور:

- أي شيء؟

أخرجتُ من جيبها عُقْدًا من الصدف الموصول ببعضه بحلقات صغيرة
نحاسية، وقالت:

- إنَّ الصَّدَفَ شيءٌ طبيعي استُخْرِجَ من بحر بلادنا، وكذلك النحاس،
وكما ترى صيغ في شكل دائري، لقد أهدتني أمي إياه في عيد ميلادي
قبل ثمانية شهور، بعدما أوضحت أحد صنّاعه بصنّاعته خصيصًا من
أجلي قَبِيلَ ذلك اليوم بأسبوع.

حدّقتُ إليها غير مصدق، فقالت باسمّة وهي تمد يدها لي به:

- لن نخسر شيئًا من المحاولة، سأعبر الطريق الجنوبي إلى زيكولا مرة
أخرى، وأتمنى أن ألقاك في قرينك في المستقبل القريب.

أمسكتُ بالعقد مدموشًا، قبل أن أبتسم وأنظر إليها معتئًا، بعدها دلفَ
إلينا أحد الفرسان وقال للملك تعيم:

- إنَّ زورق البحيرة على أتم الاستعداد سيدي.

الفصل الأخير

مع جنديين يجتف كل منهما بمجداف طويل ركبُ الزورق الصغير
جهاز من أجل نقلي إلى عابرة البحيرة، نظرت إلى العلك تميم الذي كان
ن مع البقية على ضفة البحيرة ناظرين نحوي، وأومات له برأسي إيحائاً
شي سوف أفعلياً، فأجابني بإيعاءة باسمه مشجعة، قبل أن ألوح بيدي
بغاله ولمررة ولأصدقاء الوادي سارة ونوح ونأي الذين رفعوا أيادهم
بحين لي بحرارة هم أيضاً، أقيتُ بعدها نظرة مطولة نحو سماء الوادي
نبات البحيرة، قبل أن أخرج عقد مروة من جرابي القماشي وأؤكد من عدم
مال طرفيه في تلك الألوان خشية أن تمر عبر دائرته طاقة العابرة فتنتلني
شرة إلى سرداب قوريك، وإن كانت مروة قد فتحت مشيكه وفصت طرفيه
بي بالقدس، ثم تفحصتُ خنجري المغمدة وبذلة الجندي العسكرية وحذاته
مجمته التي أخذتها في جرابي أيضاً، وأغلقتُ عنق الجراب بإحكام
بعد دقائق توقف الجنديان عن التجديف، وقال أحدهما وهو يشير بيده
مقاييع تظهر في مركز دوائر مائية متتالية تولد صغيرة ثم تتسع
نشي في النهاية:

- إنه المكان الذي ينبع منه ماء البحيرة سبدي.
- قلتُ وأنا ألفتُ طرفي حبل الجوال حول خصري، وأعقدتهما معاً جيذاً:
- حسناً، إنني جاهز.

ثم أخرجت خاتم الجندي من جيبِي ووضعتَه في سباتِي اليمنى، وعندما أُلقيتُ نضرة خاطفة إلى أصدقائي قفزتُ إلى المياه بجوالي، وسبحتُ نحو تلك الدوائر التي سرعان ما جذبتني نحو مركزها ما إن عبرتُ أول دائرة منها، فملأتُ صدري بهواء قُبِ أن أغوص إلى أعماق البحيرة متتبعًا بكل طائفتي المسار العمودي الذي تصعد منه المقاييع كي أصل إلى منبع الماء قبلما ينفد هواء صدري.

عندما وصلتُ إلى قاع البحيرة أكملتُ غوصي نحو دائرة شفافة يُداهز قطرها مترًا ونصفًا، تظهِر وسط رمال القاع الداكنة وتخرج منها فقاعة كبرى كل حين، جذبتني تلك الدائرة إلى داخلها ما إن مددتُ ذراعي إليها حيث اشتدت الظلمة لثوانٍ قبل أن يتحول ذلك الظلام إلى ضوء أبيض شديد ذكرني وأنا أعصص عيني من شدته بدائرة الضوء التي دخلنا إليها أنا ومروة يوم عبرتُ السرداب إلى ذلك الوادي، ثم شعرتُ بسخونة الخاتم بعض الشيء حول إصبعي، وسرعان ما اعتصر وجهي الألم مع اشتداد سخونته واحتراق جلده إصبعي أسفلَه، بعدما خُمِتِ الضوء فجأة وما إن فتحتُ عيني حتى وجدتني أُلْقِط في الهواء، وأسقط أرضٌ بي مكانٍ شبه مطالم، لم يكن إلا تلك الطاحونة التي رأيتها في رؤى يامن.



مثالًا تزعّتُ الخاتم عن إصبعي، ثم مكنتُ طرفي حبل الجوال عن خصري، ووضعتَه بجواري يقطر اساء منه، وخلعت قميصي وبنطالي وعصرتُ ماءهما وارتديتهما حديدًا، ثم زادت الإضاءة داخل غرفة الطاحونة فأدركتُ أنَّ الدر قد سطع بالسماء دون غيوم نواريه، حينذاك أزلتُ بخصري بعض الطوب المحيط بفتحة صُغرى كانت توجد في أحد الجدران حتى صارت مناسبة للخروج منها، فخرحتُ بجوالي إلى الأرض الزراعية المجاورة التي أظهرها اسدر الساطع بوضوح، حالت في بالي وأنا أتفحص الأرجاء من حوالي كلمات «إسماعيل» المُدوَّنة في الكتاب عن صنع الخاتم في الليلة التي سبقت دخولهم القرية، وأدركتُ وصولهم إلى لقربة بعد ساعات. فكُرتُ

الدواب إلى منطقة البيوت التي ظهرت ظلالها بعيداً أسفل هضبة النهر.
 ثم نزلوا من البيت وداروا على ضفة الفرعة الشرفية التي لم تتغير معالمها في
 مائة عام من مرور مائة عام منتظراً حلول الصباح، ومعتزلاً بما
 يحدث، مد ساعات، ثم شعرت بالجوع فنهضت وتجولت بين الحقول أولاً
 في العنود على أي ثمرة تؤكل، كانت جميع الأراضي القريبة من الطاحونة
 ممتلئة لا يوجد بها شيء يؤكل، فعدت إلى الطاحونة مرة أخرى ودخلت إلى
 غرفتها عبر منحتها الجانبية، وجلست مسنداً ظهرها إلى جدارها أظفر إلى
 أجزائها، فادوسها الضخم وذراعها الخشبية الطويلة، قبل أن تسدل حجابي
 ويملأني النعاس لأهض مع تسرب ضوء النهار عبر الفتحة لحنينة وأحد
 شبك العنكب والأتربة قد ملأت الغرفة ووارت أجزاء الطاحونة وقبل أن أفكر
 في كيفية حدوث ذلك تنافى إلى مسامعي صوت إطلاق النار لستسمع وحده،
 فعدت أن جنود الهجانة قد وصلوا إلى القرية، ونهضت على الفور وخرجت
 منيها نحو منطقة بيوتها.



كان الهرج والمرج يسودان شوارع القرية في ذلك الحين، ومن فوق
 جبالهم أخذ الجنود يوجهون الناس بسياطهم نحو ساحة منتصف القرية
 صارت في وقتنا الحاضر أرض مدرسة ابتدائية، اندفعت مع الجميع دون أن
 يتدخل أحد في ولا يتأبى الغربية، ووقفت بين الحاضرين أستمع إلى خطاب
 قائد الجنود الذي كان يؤكد فيه فرص حشر التجوال في القرية وإطلاق النار
 على من يخرج من بيته بعد غروب الشمس، فكرت حينها في الدواب إليه
 واختاره بها ينتظرهم داخل الطاحونة وأريه بدنة إسماعيل وحذاءه وخانمه
 وجمجمته، لكنني توقفت عن التقدم إليه عندما رأيته يضرب مزارعاً بسوطه
 دون رحمة لمجرد أنه وقف في طريق حمله، فكرت في احتمالية عدم
 تصديقه لي مع ما رأيته في عينيه من غرور حتى وإن كنت أمتلك كل تلك
 الأدلة، ومن يدري لربما يأمر جنوده بتكيلي أو يصوب بلورده نحو كي لا

أزعزعهم، وحينها لن أجنبي شيئاً سوى فقدان فرصة وجودي في هذا البلد ليلة مقتل الذئب بعد شهر، لذا تراجعت وأثرت الانتظار.

بعدئذٍ بحثت بعيني بين الحاضرين عن موسى فأدركت صعوبة اكتشافي له مع حتمية اختلاف هيئته المهمة في الصورة التي احتفظ بها جدي عن هيئته في ذلك الوقت، بالإضافة إلى أن توقيت تلك الصورة كان بعد عشر سنوات على الأقل من تاريخ ذلك اليوم. ثم صرفنا الجنود بغلطة، فسألني شاب مستغرباً عن أكون، وأخبرته أنني من مدينة الإسكندرية، حفتُ بحثاً عن خواجه اسمه «فايز»، فقال:

- لم يأت إلى القرية منذ أكثر من عامين.

ثم استطرده بالحديث عن سوء حظي بالإتيان في ذلك اليوم، وتمنى لي الخروج سالماً من بطش أولئك الجنود. شكرته، وكان يغادر، فتذكرت شيئاً رأيتُه في رؤى يامن، حينما قال أحد الشبان لموسى:

- إنها سيارة صديقك.

فسألت الشاب:

- هناك شاب اسمه «موسى» يعرف الخواجه؟

أجابني ضاحكاً:

- الولد موسى! يتحدث دائماً عن الخواجه كأنه أحد أفراد عائلته على الرغم من أن الخواجه لا يعرف شيئاً عن وجوده أصلاً.
قلتُ:

- هل يمكنك أن تدلني عليه؟

أشّر بيده نحو أحد الشوارع في غير اكتراث:

- إن بيته هناك، يطل على الشارع العمومي، بيت منخفض من طابق واحد، يفصله عن مسجد القرية شجرة توت كبيرة.

شكرته مجدداً ثم تجولت في القرية بعض الوقت، وقبيل غروب الشمس توجهتُ إلى بيت موسى مهتدياً بوصف الشاب **realme** بقتُ بابه الخشبي،

قلت من دقيقة فتح الباب شأت ابتسمت وأن أحتل إلى ملامح وجهه التي
تختلف بغير شيء فعلاً عن ملامحه في صورة خذي القديمة، سألتني
مراً وهو ينظر إلى حوالي:

- من أنت؟!

قلت:

- أنتي من طرف الخواجة فايز.

لديجت أسارىره قجاة، وسألني:

- هل أرسلك لقتلني أرضي؟!

لم يكن في ماسي شيء عند قدومي إليه، لكنني أجمته في الحال:

- نعم، بالصبط، هل يمكنني الدخول؟

قال محرجاً:

- نعم، تفضل.

وأخطني إلى راحة صغيرة توحد بها أريكتان خشبتان صغيرتان لجلستي
على واحدة وجلس هو على الأخرى، نظرتُ إلى أركان البيت، لم يختلف كثيراً
عن البيوت القديمة التي لطالما رأيتها في طفولتي في الحارة القديمة تقريباً؛
حنان من الطوب اللبن المُلطَّح بالطين، أرض طينية تتناثر بها بقع المياه،
رسف من الغاب والقشر مدعوم بقوائم خشبية. قال:

- لم يأت الحواجة منذ زمن إلى القرية

قلت:

- نعم، لذا أرسلني من أجل تقديم عرض لأرضك.

وأردفت:

- كم تريد تعناً لها؟

قال بأسعاً:

- ما يراه الحواشي، لقد نمتها أحد، ألامال، هذا ستة جبهات، وأنا لي
أحتك مع تدوينة لم أسمع
قلت.

- ربما سألتك بالأمس.

ثم أشرت قلبي وأنا أتابع:

- لكن هل لي أن أرى هذا حتى يسمح الله؟ لقد غرقت الشمس وأحس
أن يؤذي من فوق الهجانة إن خرجت في هذا الوقت.
فكر قليلاً ثم قال:

- على لوح واسعة بالطلع، أمتلك سريرًا واحدًا، يمكنك النوم عليه،
وسأنام أنا على هذه الأريكة.
دنت شاموًا

- لا لست طعامًا إلى هذه الدرجة، سأنام أنا على هذه الأريكة.

أقسم مضمًا - لي ترك سرير لي، فأنصعت له في النهاية، بعدئذ تحدثنا
عن حال القرية وعن الحريق الذي حدث قبل سبعة أيام وقيل في إثره تسعة
عشر رجلًا، كان الشاب يتمتع بذهن متقد وعقل سليم تعلمنا ورعبة واضحة
بالانتقال إلى المدينة لتحرر من قيود القرية، سألتني عن معرفتي بالخواجة،
فتحدثت كاذبًا عن علي مع بمدينة الإسكندرية، ثم حوّل مجرى الحديث
إلى الهجانة الذين أتوا إلى القرية وأنا أفكر في أن إخباري له بكونهم لصيغًا
جاؤوا من أهل الدخول إلى لطاحونة سيكون متعارفًا كُبرى قد تنتهي بطردي
من بيته مع عدم تصديقه لي حتى وإن أريته ثياب الجندي وحصصته، فلم
أحبره، ثم بدأ الهجانة بتحويلون بجعلهم في الشوارع المجاورة للبيوت، وبين
حيزٍ وآخر كنا نسمع أصوات طلقات بنادقهم انارية، فبدأ الغنى يتنم ببعض
آيات القرآن متعبين ألا يُصاب أحد بأذى، وبصوت عالٍ أخذ يحمّد الله لوحوي
معه في تلك الليلة التي لم يكن ليعرف كيف كانت ستمر إن بقي بعفره

أولاً: أريد أن أؤكد أن الغرفة التي يوجد بها سريرها الوحيد
في البيت ليست سوى غرفة واحدة، وليس لها أي شيء.

٥٥٥

قلت لأخيرة في داخلي متواصلة: حان مني يرى أن أعود إلى قائد الهجاة
وأريد أن أرى رجل هو وحيدته قبل فوات الأوان مثلما فكرت صباحاً، تعارفه
شدة نكارة في رأسي تنصر على وجود احتمال ولو ضئيل بعدم تصديقه لي.
واقعية تعرضه لي مألوف، وبنائي ضياع مرضي الوعدة لإبقاء ذنب
صانعه بعد شهر، وجانب يرى بأن أخبر موسى بما ينوي الهجاة فعله.
لغة يسمع أهل القرية ويمنع دخولهم إلى الطاحونة، تعارفه أكار تذكرني
بالحرف الثاني على وجود أهالي القرية في الساحة، وكدة استعالة قيامهم
مقاومة عود الهجاة حتى وإن علموا سيكونهم لتحويلها، وجانب أكر يؤيد
انتظاري دخول الهجاة إلى الطاحونة ومنع ذهاب موسى إليها بعد شهر.
وبعد تفكير طويل رأيت أن الحل الثالث الذي يؤيد الانتظار هو الأضعف خاصة
مع وجود مبرر أستطيع القدوم به إلى موسى لاحقاً، كما أنني رأيت فيما
يحدث للصومس نوعاً من العدالة بعد تسببهم في مقتل تسعة عشر رجلاً
إثر الحريق الذي سببوه، ثم انتصف الليل فسمعنا دوت محرك سيارة تدخل
إلى القرية عبر الشارع العمومي، فقال موسى متعجباً:

- إنها سيارة الحواجة فايزا

هرزت رأسي إيجاباً زاعماً قلبي ومفاجأتني فقال متحارناً.

- سيقبله الهجاة ما لم يلتزم بالخطر الذي مرصوه.

ولم يكمل جملة حتى سمعنا صوت إطلاق البارود يصعد متالياً في
الخارج، فأمسك الفتى برأسه متحسراً، فقلت:

- لعله بخير، سانتظر حتى هدوء شركة العمال هي الخارج وسأخرج

لتسليم الوضع.

قال

- هل أنت مجنون؟ إن خرجت سيفقلونك.

قلت:

- لا تقلق، علي أن أطمئن على الخواجة.

في خلال الساعتين التاليتين تواصلت أصوات البارود على فترات، ثم هدأت الأصوات في الخارج تمامًا، ففتحتُ النافذة المُطلّة على الشارع، فوجدته ساكنًا لا يوجد فيه أحد سواء من الهجّانة أو أهل القرية، حينذاك نظرتُ إلى موسى، كان قد غاب في سُبّته، فوجدتني أفكر وأنا أنظر إليه أنه إن مات فلن يُقتل ذئب «صامون» بعد شهر، ولن يموت كل أولئك البشر الذين ماتوا نتيجة لقتله، وستنتهي الحرب الدائرة بوادي الذئاب أثناء وجودي في القرية، وممستُ إلى نفسي وأنا أحرق إلى وجهه:

- إن موته سيكون أفضل له من عيشته التي عاشها بعد رؤيته للذئب.

ووجدتني أتحمس خنجري، فتقلّب على الأريكة معطيًا ظهره لي، فأبعثتُ يدي عن مقيض خنجري، وتهدّدتُ محببًا نفسي:

- لا، لستُ قاتلًا، سأنتظر ليلة بدر الشهر القادم.

ثم وثبتُ من النافذة إلى الخارج، كانت الشوارع تختلف كليًا عن شوارع قريتنا في وقتنا الحالي لكنني على الرغم من ذلك استطعتُ معرفة الطريق نحو المنطقة الزراعية التي توجد بها الطاحونة، وبحذر شديد اقتربتُ منها وسط سكون الأحواء القتل، لأجد الجنود هناك يدلفون تبعًا إلى داخلها دون اكتراث بشيء من حولهم، رقدتُ بالأرض الزراعية المحاورة أراقبهم من بعيد، وأراقب الخواجة فايز الذي كان يقف على باب الطاحونة يُسلمهم الخواتم الذهبية، قبل أن يدخل حلفهم ويترك جنديًا وحيدًا أغلق باب الطاحونة بقلعه من ورائهم، وركبَ حمله وأطلق بعيدًا، فنهضتُ وتسلمتُ على أطراف أصابع قدمي إلى جانب الطاحونة وألقيتُ نظرة عبر فتحتها الجانبية، فلم أجد أحدًا بي داخلها، حينذاك أعدتُ رص الطوب الذي أرسلته من الجدار قبل ليلة واحدة

يترجى فتحه صغيرة مما كانت، ثم دُرْتُ حول الطاحونة، فوجدتُ جملاً بارحاً
 على بعد أمتار منها على عكس الجمال التي فرُتُ بعيداً نحو القرية، اقتربتُ
 منه في هدوء، ثم امتطيته، فوقفَ على قوائمه في الحال وكأَن يُسقطني لولا
 أنني تشبَّثُ برجله حبذا، بعدما انطلقتُ به إلى الطريق الترابي المؤدي إلى
 سبينة المنصورة حيث عزمْتُ على قضاء الشهر العتيقي في نَزْلٍ هناك مقابل
 حرم الجندي الذي أسكنه وذلك الجمال الذي صارَ ملكاً لي.

متطلقاً إلى السماء كل ليلة، ومفكراً في مصير أصدقائي بوادي الذئاب،
 ولما يَأْنُ يكون الجيش الأماري قد استطاع الصمود خلف أسوار «براقبا»،
 وتجوَّلاً في شوارع مدينة المنصورة القديمة، ومُدَوِّناً في أوراقٍ اشتريتها ما
 حدثَ معي منذ أرسلتُ لي مروة رسالتنا الإلكترونية قضيتُ أيامي العتيقية
 على حلول بدر الشهر الجديد، وكلما لامتنى نفسي بعدم تدخلٍ لمنع الهجَّانة
 من دخول العابرة تحدثُ إليها مبرراً بما فكرتُ فيه سابقاً، لتسكن قليلاً
 عن لومي، قبل أن تعاوده مرة أخرى، لتمر الأيام تباعاً حتى انتصف الشهر
 القمري، فأقُلُّني شخص بحنطوره إلى القرية مع غروب الشمس حيث اتجهتُ
 مبشرةً إلى الطاحونة ومعِي الأوراق التي دُونْتُ فيها قصتي بالكامل وأغراض
 جندي البجَّانة، ودُرْتُ حولها وأنا أنظر إلى البدر المكتمل في السماء، قبل
 أن أجلس منتظراً على بعد خطوات منها، ثم اشتدَّتْ الريح فجأة وبدأت
 النجوم الكثيفة تقطِي الدَرَّ بين حينٍ وآخر، فتذكرتُ أَنَّ ذلك ما كَانَ يحدثُ
 تماماً وموسى يتحرك نحو الطاحونة وفق ما رأيته في رؤى بامن، وواصلتُ
 انتظارِي لساعاتٍ أخرى مُحدِّقاً إلى كامة الأرجاء من حولي، حتى أصبحتُ
 أخيراً ضوئاً بعيداً خافتاً يتقدم نحو الطاحونة، فنهضتُ من جلستي واقتربتُ
 من الطاحونة دون أن أظهر نفسي، كان هو موسى مرتدباً جلبابه البلاحي،
 يقترب بلسبته الجاز متعمِّناً بآيات القرآن بصوت عالٍ، قبل أن ينزل على ركبتيه

ويظهر عبر فتحة جدار الطاحونة، فُكِّرْتُ في الدخول حينذاك، لكنني انفتحت، ثم بدأ واضطراب يظهر على وجهه مع مواصلة النخل عبر تلك الفتحة، وكلما غطت العيون البدر أو انقشعت عنه نظرتُ إلى داخل الطاحونة من جديد، وتعمتُ بمزيد من آيات القرآن، حتى سقط على ظهره فجأة في نزع شديد، هناك أدركتُ أن أشلاء الحود قد بدأت تُلفظ من الطاحونة، وأن الذئب يوشك على الخروج، لم أكن أعرف كيف سيخرج من غرفة الطاحونة مع إغلاق بابها بالقفل، لكنني كنتُ متيقناً أنه سيفعلها كما رأيتُ في رؤى ياس، لذا نهضت متحرّكاً نحو موسى وقلتُ:

- عليك أن تعود إلى بيتك الآن يا موسى.

هوَى على لأرض مرتعياً وكأنه حُلُنِّي عريثاً، فقلتُ مودئاً له:

- إني هو، صديق الخواجة فايز، قضيتُ ليلة في بيتك منذ شهر، ألا تتذكرني؟

قَرَبَ لمنه نحوي بيده اليمنى وهو يمسك عصا فأسه الصغيرة بيده اليسرى، ثم سألني متعجباً بعدما تعرف على وجهي:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قلتُ .

- جئتُ أحميك من شر هذه لصاحونة.

قال خائفاً:

- إنها مسكونة بالجن، لقد رأيتُ لتو حُتْ حنود الهانة تنهالني في داخلها.

قلتُ:

إنهم ليسوا سوى نصوص أتوا إلى القرية كي يدخلوا إلى هذه الطاحونة، أرجوكم عُد الآن إلى بيتك، ولا تحرج به حتى يطلع الفجر.

خرج فأسه وحديثي غاضبًا:

- لست مساعدًا للشواعة فايز كما ادعيت، من أنت؟

قلتُ وأنا أرفع يدي بأوراقتي لتهدئته:

- اقرأ هذه الأوراق في الصباح وستعرف كل شيء، لقد دُونتها خصبًا
من أجلك.

ولما تعلق مصره بأوراقتي تابعتُ وأنا أقترِب منه:

- أعرب أن نضورك قادم إلى هنا كي تلقى نظرة عَرَ فتحة الطاحونة قبل
مناذرتك القرية بعدما شككت بدخول الجنود المخنقين إليها، وأعرف
أنك قضيت الساعات الماضية تحاول إقناع نفسك الخائفة كي تتحرراً
وتأتي إلى هنا في هذا التوقيت حتى أنك تحدثت إلى لعبة الجاز نفسها،
وأعرف أنك تتعمد بآية الكرسي منذ أن ابتعدت عن البيوت واتخذت
الطريق المؤدي إلى الأرض الزراعية.

سألني مستغربًا:

- هل كنت تتبعني منذ خرجت من بيتي؟!

قلتُ:

- لم أفعل، أتسم لك، ستجد كل شيء مُدَوَّنًا في هذه الأوراق، فقط اطلع
عليها في الصباح كما أخبرتك، وكُن متيقنًا أن كل حرف نُكِتَ فيها
صديق تمامًا.

ثم تنافى إلى مسامعي فجأة صوت زمجرة قريبة، وسرعان ما ظهر
الذئب بعينيه اللامعتين أمامنا، فتحركتُ مُجفلاً إلى جوار موسى الذي شعرْتُ
بارتعاشه جسده وهو يرفع فأسه نحوه، فهمسْتُ إليه:

- اخفض فأسك يا موسى.

لم يستمع إلى حديثي، ولوَّخ بهأسه خائفاً نحو الذئب الذي فتح فكَّيه عن
آخرهما مُظهرًا أنيابه المطوية، فأعدتُ رحاَّتي إليه،
- أرجوك يا موسى.

قالَ مرتعبا:

- سيفتلبنا.

قلتُ

- اخفض فأسك وحسب.

لم يستجب لي، وظلُّ رافعا فأسه، بينما بدأ الذئب يتقدم نحونا مُزججا
ومتأهبا للهجوم علينا، قلتُ لموسى متوسلا:

- أرجوك، اخفض فأسك وستنحو، لن يؤذينا الذئب ما لم تؤذِه، اخفضه يا
موسى، وعد إلى بيتك سالما.

متقدم أمامي إلى مواجهة الذئب وهو يحسك فأسه مُصرًا، حينذاك لم أحد
حلا سوى أن أنحني وأحمل مطوية كانت بحداد قسبي، وأضرب بها رأسه
لبسقط فاقدا وعيه، حينها توقفتُ الذئب عن التقدم ونظرتُ نحوي، فوضعتُ
المطوية إلى الأرض وأنا أبتلع ريقِي، ثم نزلتُ على ركبتي رافعا يدي، وحدثتُ
إلى عيبيه دون أن أعرف ما ينوي فعله، فقط واصلتُ تحديقي إليه، ثم أغمضتُ
عيئي مستسلما عندما واصل تقدمه نحوي، واقترب منِّي للغاية، وزمجر بقوة
في وجهي فاتحاً فكَّيه عن آخرهما، لم يكن لي بالي أن أقومه معها حدث
حتى وإن قبلني، لقد اتخذتُ قراري بالعودة إلى الماضي وأنا أعرف أنني
قد لا أعود إلى موطني، والآن وبعد كل ما حدث لم أكن لأصيب ذلك الذئب
بأي أذى وأحيب آمال كل من وثقوا بي وأمنوا بنجاحي، ثم شعرتُ بخطئه
يُداس وجهي، فسزت في جسدي رعدة عظيمة عندما أدركتُ أنه يتشمعني،
وحينما فتحتُ عيني مرتعبا وحدثه قد استدار وعاد مبتعدا عني ليدور حول
الطاحونة لم أحرك من مكاني، فقط نظرتُ إلى موسى الذي كان لا يزال

مطبخ الأرض، ثم زحفتُ نحو جدار الطاحونة ونظرتُ عبر فتحة، كان الذهب
قد دخل إلى غرفتها، ألقى نظرة سريعة نحوِي وكأنه يودعني، قبل أن يشب
إلى داروسها ويهبط إلى داخله، بعدها برق وميضٌ مفاجئ داخل الطاحونة
استمرُّ لثوانٍ قبل أن تعود الظلمة إليها مع توارِي البدر خلف الغيوم، حدثتُ
لك في برِّي، وتمنيتُ أن يحدث ما أملناه مع عودة الشب إلى وطنه سائلاً.

لم أكن أعرف بعدها كم تبقى على طلوع النهار، فتركْتُ موسى مستلقياً
ووضعتُ أوراقي بحواره، وأمام باب الطاحونة وضعتُ ثياب الجندي وحذاءه
وجمعته مدرّكاً في داخلي أن موسى سيخبر أهل القرية بما حدث بعد
تبرّضه من إغماءته، ومع وجود تلك الأشياء بجوار الطاحونة سيجد ما يدعم
قوله، ليزيأها أهل القرية إن صدّقوه، ولو لم أفكرتُ في أن نك قد يكون
السبب في عدم وجود الطاحونة في قريتنا بالزمن الذي أعيش فيه، ثم كسرتُ
قفلاً بابها ودخلتُ إلى داخلها، وشبكتُ طرفي عُقد مروءة، وتأكدت من اكتمال
دائرتي، ووضعتُ حول عنقي، وتسلفتُ الطاحونة ووقفتُ على حافة قادوسها،
قبل أن ألقُ إلى الباب الذي أصدر صريره، فرأيتُ موسى يتفقد محققاً إلي
تسأل الدعاء من رأسه إلى وجهه، ابتسمتُ إليه، ثم قفزتُ إلى داخل القادوس
حيث انزلتُ إلى ظلامٍ شديدٍ شعرتُ معه بسخونة العقد حول عنقي، فأدركتُ
لحظياً أن طاقة العابرة تمر من خلاله، بعدها سطع الضوء الأبيض الشديد
في عيني فجأة، فأغمضتهما قبل أن أفتحهما مجدداً مع خفوت شدة الضوء،
أحد نفسي في نفقٍ له جدران صخرية عليها نقوش لا أستطيع تفسيرها، ما
كنتُ أن تلقُتُ حولي لأكتشف أين أنا حتى وجدتُ الجدران تنهار من خلفي
لقدعني في طريق معين، فركضتُ باسمًا بأقصى سرعتي، وأردتُ في داخلي:

- سردابي الحبيب.

واصلتُ ركضي بالطريق الذي يدفعني نحوه السرداب حتى توفقت
الانديارات من خلفي ما إن عبرت صورة السيد «فوريك» المنقوشة على
جداره، فوقفْتُ ألتقط أنفاسي قبل أن أتابع ركضي خارجاً منه إلى البيت
المهجور الذي يعلوه، ومنه إلى بيتي.

كانت القرية ساكنة في ذلك التوقيت ليس إلا من بعض الشبان السهاري
الذين تعجبوا قدومي من اتجاه الأراضي الزراعية في ذلك الوقت المتأخر.
لم أهتم وواصلتُ طريقتي إلى بيتي حيث قرعتُ الباب بقوة، لتفتح مني
بغضبٍ شديد، احتضنتها، لكنّها واصلت نثرانها الغاضبة تحوي، سألتها عن
استقبالها الغريب، فقالت في ثورة عارمة:

- أين كنت منذ الصباح؟ ولماذا هاتك مُخلق؟ لقد أفلقتنا عليك، أنسيتِ أن
اليوم هو عيد ميلادك الأربعين؟ لقد صنعتُ كعكتك، ونالُ يامن ينتظرك
في الشرفة منذ وقت العصر كي يُصفى معك الشموع، وعندما فقد الأمل
في مجيئك خلد إلى النوم.

سألتها متعجباً:

- اليوم عيد ميلادي الأربعين؟

قالت مغممة وهي تغلق باب البيت:

- نسيتِ كالعادة

ثم تركتني وصعدت إلى غرفة نومنا وهي تواصل غمغمتها:

- قبل أن تأتي إلى الغرفة اغتسل، إن راحتك سيئة للغاية.

ضحكتُ، ثم صعدتُ إلى الطابق العلوي وتجهتُ إلى غرفة يامن حيث كان
الصبي نائماً في فراشه، وصمتُ يدي على جبينه متفحصاً حرارته، فوجدتها
طبيعية تماماً، فتخ عينيهِ حينذاك، وسألني هامساً:

- هل نامت أمي؟

أحسته هامساً أبا أيضاً:

نعم

لقد أجبرني على النوم من أجل الاستيقاظ مبكراً للعدسة على الرغم
من أنني كنت أريد انتظارك، إنها تضع كعكة عيد ميلادك في ثلاثة
المطبخ، لتسلل إلى الأسفل ونشعل شموعها ونطفئها معاً، وتتمنى
أمنيتك.

هكت، ثم احتضنت رأسي، وقلت وأنا أتذكر أمنيتي مرغبتني في حدوث
بغير وتيرة حياتي الثابتة:
لا، لا أريد أن أتعنى شيئاً.

استلقيت بحواره، وجذبت الفراش ليغطيها معاً، وقلت:
سأكل الكعكة معاً في الصباح لكن دون أي أمنيات.
نعماً تبرزم، تابعت:

ما دمت بخير هذا كل ما أتمناه.
سم، ثم قللي، وأغمضنا أعيننا لنخيب في سبات عميق.

قريبة البهو فريك قبل أيام من عيد ميلاد «خالد» الواحد والأربعين:

كان لوقت فجرًا عندما استيقظ كل من خالد ومنى على صوت جرس باب
بينهما، لتسأل منى في استغراب:

- مَنْ يأتي إلينا في هذه الساعة؟!

فأجابها خالد ناعسًا:

- لا أعرف.

ثم نهض مُبدلاً ثيابه، ونزل إلى الطابق الأرضي، وفتح الباب متأنثًا،
لباحاً مبروة تقف أمامه، وتقول بأسارير منفرجة:

- لقد عدت يا صديقي العزيز.

فانسعت حدقتا عينيه غير مصدق، فأردفت:

- لقد أوصلني الفارس إلى الملكة أسيل حيث بقيتُ في ضيافتها حتى عاد
الملك تميم بجيشه إلى أمريتا. وأرسل محي فرقة من الفرسان قادمي
إلى سرداب فوريك الذي عبرته مع بدر الأمس.

كانت منى قد نزلت إلى الأسفل، ولما تساءلت في استقراب عن تلك الضيفة التي أتت إلى بيتها متأخرة، ويبدو عليها أنها تعرف زوجها جيدًا، قال خالد: - لقد وصلت ضيفتنا للتو من أرض زيكولا، سأحكي لك كل شيء الآن. قبل أن يدخل مروة إلى البيت وسط زهول زوجته، وما لبث أن دلف إلى إحدى الغرف وعاد إلى مروة بصورة جده القديمة التي كان يحمله فيها أبوه، وقال:

- انظري.

نظرت مروة إلى الصورة لتعود مُحدقة إلى خالد في تعجب شديد، فابتسم قائلاً:

- نعم، لقد اختفى الشيخ موسى وذئبه من الصورة.

قالت منى حينذاك:

- إنني لا أفهم شيئاً.

فقال خالد:

- إنها قصة طويلة لم أكن لأحكيها لك قبل أن تصل هذه الفتاة إلى بلدنا، وتؤكد صدق كل كلمة أقولها.

هادي الذئاب بعد ثلاثة اعوام من حريق الغابة الثاني:

مهرولاً كان يتبع شائين نحو عجوز مريض يستلقي على الأرض وسط زحام شديد، قبل أن يفز على ركبتيه، ويبدأ في فحص حالته، حتى انتهى، مطمأن زوجته بأن حالته ستتحسن مع أعشابه، بعدها نهض متأملاً القصور والبيوت الفخمة التي سرعان ما شُيِّدت في ذلك الحي من «مراقيا» خلال الشهر العاضية، قال له أحد الشائين اللذين رافقهما:

- نشكرك سيد نوح على سرعة استجابتك لشخص أبينا،
فأجابه بابتسامة خجول قبل أن يواصل تأمله لأسوار المدينة التي أعيد بناؤها من جديد، ولوجوه الأُمالي السعداء الذين كانوا يسرون جنباً إلى جنب مع الذئاب، حتى انتفض قلبه بقوة وتسامعت أنفاسه عندما رآها تسير برققة نثب، فركض إليها تاركاً كل شيء من حوله، وهو يهمس:

- فاي!

ولما اقترب منها قال:

- ناي، إنني نوح.

حاولت الفتاة تبين الاتجاه الذي يأتي منه صوته، فأدرك أنها لا ترى. وتابع:

- ناي، إنني هنا.

قالت الفتاة باسمه:

- هل تقصدين سيدي؟

قال:

- نعم.

قالت:

- إن اسمي «فرح»، لا بد وأنت تبحث عن شخص آخر.

ابتلع ريقه، لم تكن إلا هي حتى وإن لم تتذكره، وسألها:

- هل أنت متزوجة؟

ضحكت وقالت في خجل:

- لا، ليس بعد.

قال:

- هل متزوجينني؟

واصلت ضحكتها وهي تتحسس وجهه، وقالت:

- يبدو أنك وسيم أيها الشاب، ربما إن أتى يوم وسُمح للعلاقات بأن

يتزوجن من البشر سأفكر حينها في الأمر.

ابتسم وقال:

- حسناً، سأنتظر حتى يأتي هذا اليوم.

ضحكت، ثم غادرت، فمكث مكانه ينتظر إليها وهي تبتعد برفقة ذئبها،

وبعد أن تسمر مكانه لدقائق ركض متتبعا لها مُعلنًا في داخله أنه لن يتركها

تضيع من يديه مرة أخرى مهما حدث.

تَمَّت بِحَمْدِ اللَّهِ.

- ناي، إنني نوح.

حاولت الفتاة تبين الاتجاه الذي يأتي منه صوته، فأدرك أنها لا ترى. وتابع:

- ناي، إنني هنا.

قالت الفتاة باسمه:

- هل تقصدين سيدي؟

قال:

- نعم.

قالت:

- إن اسمي «فرح»، لا بد وأنت تبحث عن شخص آخر.

ابتلع ريقه، لم تكن إلا هي حتى وإن لم تتذكره، وسألها:

- هل أنت متزوجة؟

ضحكت وقالت في خجل:

- لا، ليس بعد.

قال:

- هل متزوجينني؟

واصلت ضحكاتها وهي تتحسس وجهه، وقالت:

- يبدو أنك وسيم أيها الشاب، ربما إن أتى يوم وسُمح للعلاقات بأن

يتزوجن من البشر سأفكر حينها في الأمر.

ابتسم وقال:

- حسناً، سأنتظر حتى يأتي هذا اليوم.

ضحكت، ثم غادرت، فمكث مكانه ينتظر إليها وهي تبتعد برفقة ذئبها،

وبعد أن تسمر مكانه لدقائق ركض متتبعا لها مُعلنًا في داخله أنه لن يتركها

تضيع من يديه مرة أخرى مهما حدث.

تَمَّت بِحَمْدِ اللَّهِ.